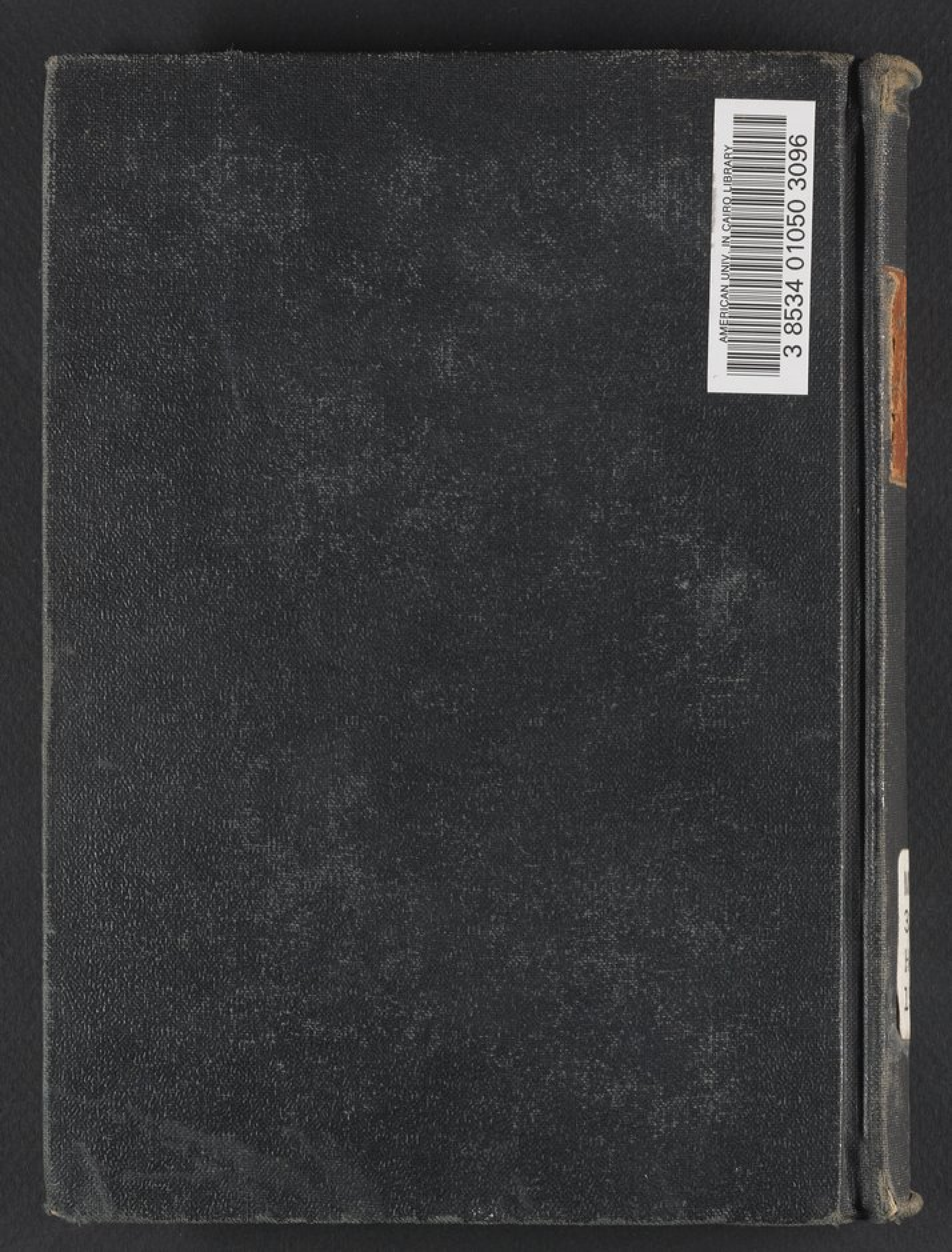
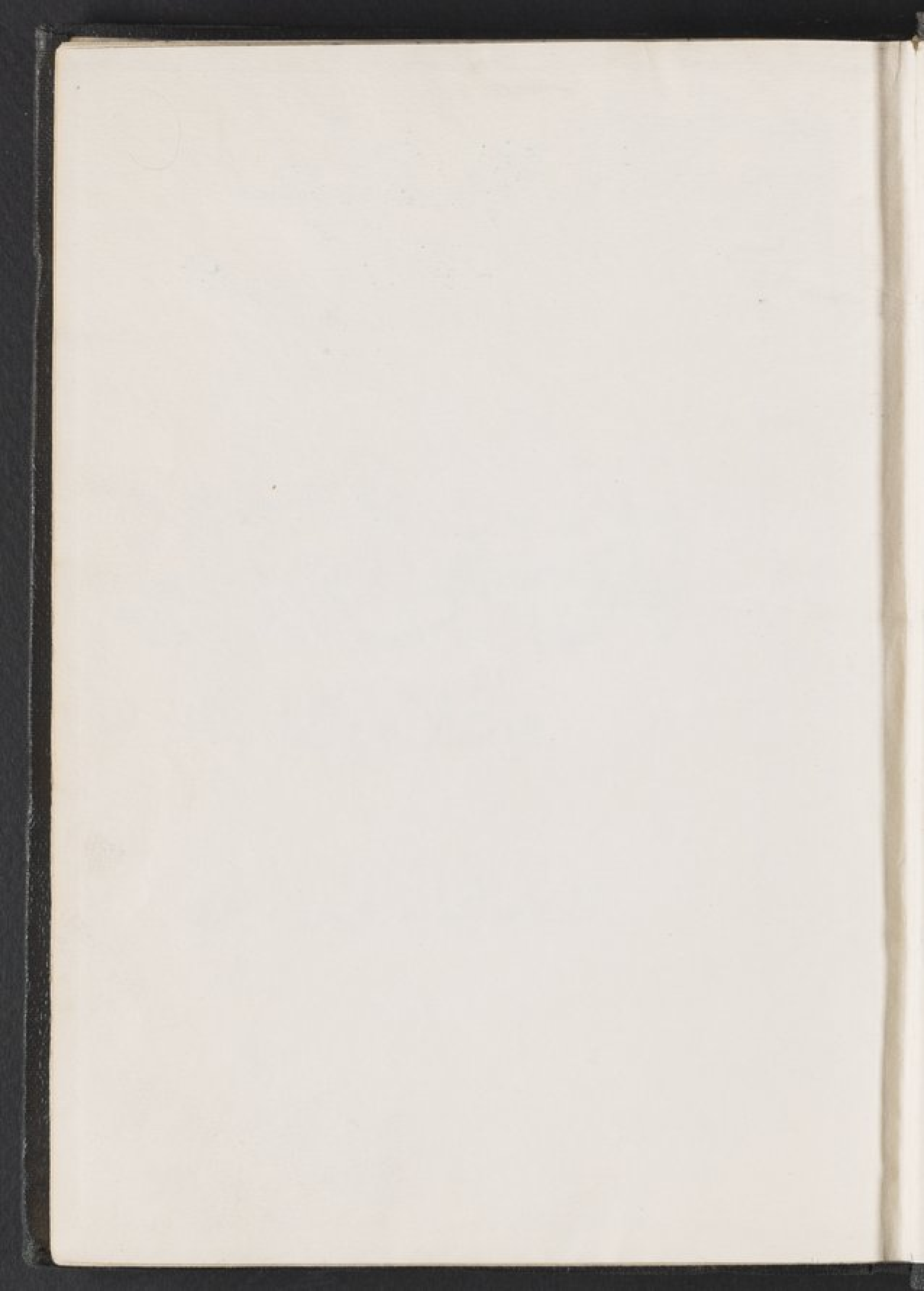
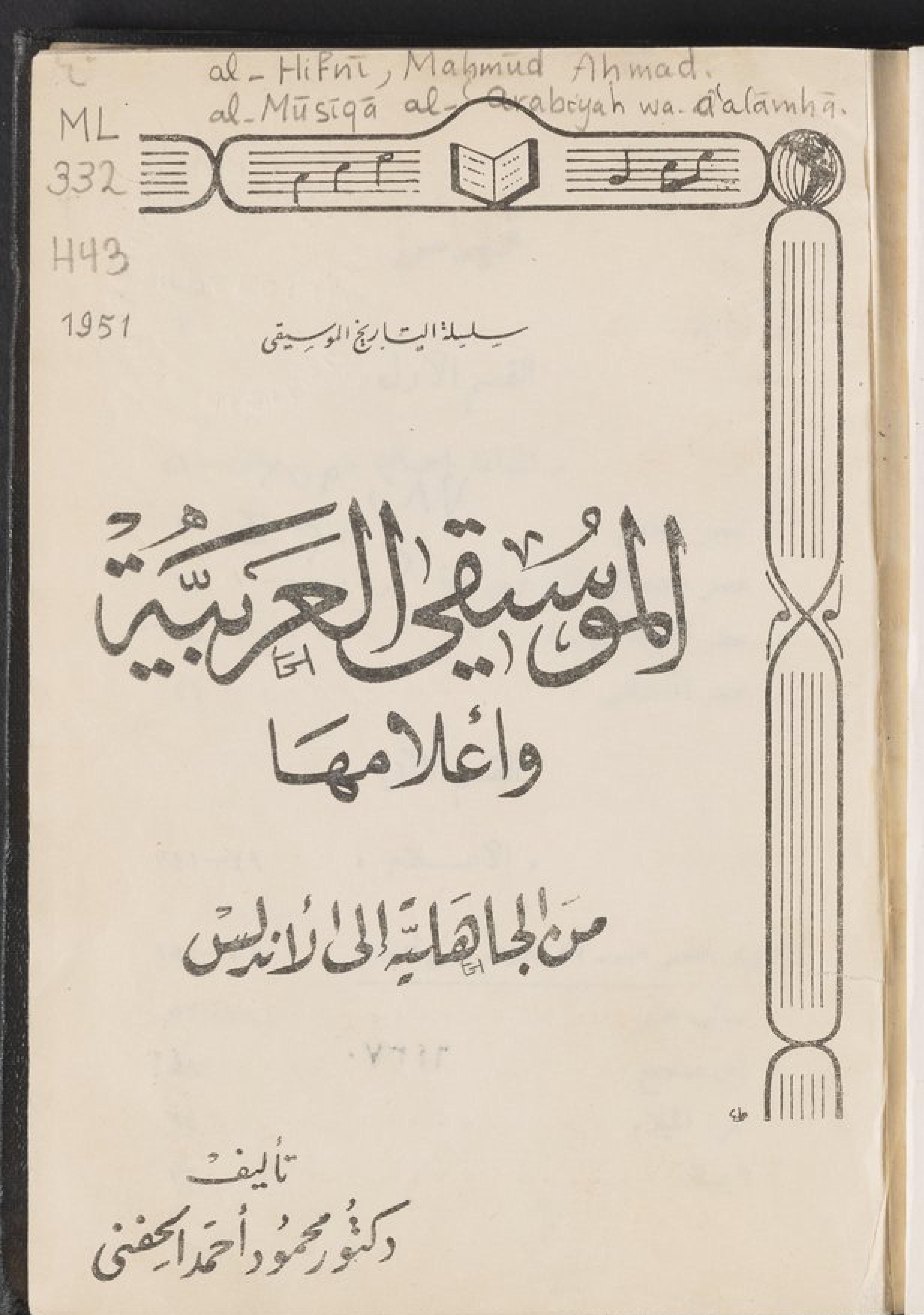

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01050 3096







سلسلة التاريخ الموسيقي

الموسيقى العربية وأعلامها

من الجاهلية إلى الأندلس

تأليف
دكتور محمود أحمد الحفني

فهرس

صفحة

صفحة

مقدمة

إن المصنفات التى نطالع بها القراء فى « سلسلة التاريخ الموسيقى » ما تزال متتابعة الحلقات ، متواصلة الصفحات . وهذا الكتاب « تاريخ الموسيقى العربية وأعلامها » حلقة جديدة من تلك السلسلة ذات الشعب والمناحى والفروع والأطراف .

ومع أن ما سبقه من مصنفاتنا كان يمتاز فى كثير من نواحيه وموضوعاته بألوان متفردة وتفاصيل مبتكرة وتحقيقات تاريخية كان لنا شرف التنقيب عنها والكشف عن مكنوناتها ، فإن الأهمية فى هذا الكتاب أوضح هدفاً وأوصل قرباً . فإننا نسجل فيه بداية موسيقانا العربية ، وانبثاق أنوارها ، ومدى تطورها مع ارتقاء المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الشعوب وتأثرها بها ، وتنقلها بين العواصم والحواضر ، وتناول عهود الخلفاء لها بلاطاً بعد بلاط وعصراً بعد عصر .

كل ذلك نجده فى هذا الكتاب ، وهو باعتبار آخر يعد سجلا فنياً لمجموعة قيمة من أعلام العروبة التى تحفزت الآن فى كل ناحية لجمع كلمتها ، واكتشاف معادن ثروتها ، وكنوز تراثها ، وبعث عوامل القوة والحيوية واليقظة بين مختلف شعوبها ، جاعلة أول

أهدافها التاريخ تستنبىء صحفه وتحاسب عصوره وتناقش معالمه حتى يفضى إليها بما لها قِبَله من مآثر وأمجاد .

ولعل هذه العروبة قد وفقت إلى تعرف أعلامها وعلومها ووضعت يدها على النجوم اللامعة فى أكثر أبواب الحياة . لقد بعثت أعلام الشعر والنثر والأدب والبيان ، وأيقظت عباقرة اللغة والدين والفنون المختلفة ، فى مؤلفات فردية على سبيل البحث المستفيض حول شخصية كبيرة ، أو فى مصنفات تضم مجموعات من هؤلاء الأعلام فى إطار من المذهب أو العصر أو الوطن .

وبقيت الموسيقى العربية وأعلامها لا تلتمسها العروبة إلا فى شتات المصادر إن عثر الباحث على بعضها ، وقلما يصيبه ذلك غناء أو جدوى . فالموضوع لم يقتل دراسة وبحثاً كما يقول العلماء ، ولم تنضجه المناقشات كما أنضجت غيره فى بحث الأفذاذ والأعلام كالمتنبى وأبى العلاء وأبى تمام والبحترى مثلا ، ممن يستطيع الباحث أن يجد العشرات من التآليف التى صفّت حسابهم بيتاً بعد بيت وقصيداً بعد قصيد ، ولم تدع من حياتهم خطرة ولا من أعمالهم خطوة إلا وضعتها بين عدستى الباحث المدقق ، ويسرت على الناس أمر مطالعتهم والتعرف إليهم والتعمق فى نتاج أفكارهم . ولم يكن للموسيقى العربية وأعلامها من كل ذلك حظ ولا نصيب .

وما كان أشد ظمأ العروبة إلى بحث أعلام موسيقاها لتستكمل

بهم قائمة النجوم فى تاريخها ، على أن يكون ما يقدم من تلك التآليف فى حلة العصر ومظهره وفى أسلوب واضح الجدة وتاريخ كامل التصفية والتنقية . ولئن طرقت المصادر القديمة بعض أخبار هؤلاء الأعلام فى شىء من الإيجاز تارة ومن الإيضاح البغيض تارة أخرى فى لون من الأدب السافر المكشوف ، فلعمرى إنه لخير للمرء أن يظل بعيداً عن معرفة أولئك الأعلام من أن يدنو منهم فى تلك المصادر أو بعضها ، حيث يرى من مجون التصوير أحياناً ومن سوء الأحدوثة وكذب النقل أحياناً أخرى ما يبغض إلى المرء الاطلاع ويرده خجلا آسفاً .

وإن التمحيص الذى أفاد منه الأدب والعلم على تتابع القرون فى الممالك العربية لم يتناول الموسيقى وأعلامها ، فإن هذا اللون من الدراسة التاريخية العلمية ، المبنية على الوثائق المؤكدة ، والقائمة على الأسانيد والحجج المقطوع بسلامتها ، لم يكن معروفاً فى الشرق ولا فى العالم إلا منذ عهد قريب ، وهذا هو الذى أفسح المجال للظنون والشبهات . ووجد المتصدرون للكتابة عن الموسيقى والموسيقيين أنفسهم أحراراً طلقاء لا يجدون من يناقشهم الحساب ، فأطلقوا لأنفسهم العنان ، وركبوا رءوسهم فى كل مذهب من الخيال ، لأنها رحلة مريحة لا تشق على النفس كثيراً . وراح بعضهم يتحدث عن أنباء الموسيقى وأعلامها فيسلك طريقة الإخباريين

ويتبع وسائل أهل الأحاديث فى رواية الخبر مسنداً معنعناً متصلا يرويه فلان عن فلان عن فلان . ولم يكن ذلك إلا محاكاة وتقليداً ومحاولة لحمل السامع والقارىء على التصديق .

وأعجب من هؤلاء أصحاب التعللات اللغوية فقد قرأت بإحدى المخطوطات العربية القديمة المحفوظة بدار الكتب العامة ببرلين أن طالباً سأل أستاذه عن معنى كلمة « موسيقى » فلم يجشم الأستاذ نفسه البحث عن أصولها عند قدماء الإغريق بل زعم أن اشتقاقها اشتقاق سماوى يرجع أصله إلى أن بنى إسرائيل كانوا مع موسى الكليم وأصابهم الظمأ فاستسقى موسى لقومه وضرب بعصاه الحجر فانفجرت العيون ، وقيل له من الوحى السماوى « موسى اسق » فصارت هذه اللفظة « موسيقى » . وهذا مثال من التضليل والتهافت والخذلان فى التعليل العلمى لا يدانيه إلا من فسر اسم الفارابى بأن أصلها « الفأر أبى » ، وذلك حين زعموا أن أبا نصر صنع العود لما مات أبوه فكان مخترعه الأول ولم يثقب له وجهاً فإذا به عند العزف عليه أخرس خال من كل طنين ثم حدث أن قرض الفأر وجه العود فأحدث فيه فتحة أكسبت صوته ضخامة ورنيناً ،فسر أبو نصر واعتز بصنع الفأر ، الذى أصبح دليله على الاكتشاف الجديد فمنحه شرف الأبوة وقال « الفأر أبى » فلقب منذ ذلك الوقت بالفارابى !! وجهل أصحاب هذه الأسطورة أن فتحة العود

قد سبقت أبا نصر وجرذانه بآلاف السنين عند قدماء المصريين وبقية الممالك القديمة كما جهلوا أن الفارابي من قرية فاراب فيما وراء نهر سيحون [1].

ولم يكن التخبط فى التأليف الموسيقى مقصوراً على مؤرخى العرب ، وإنما كان ذلك أثراً لحالة عقلية عامة عند المؤرخين فى الشرق وفى الغرب ، ممن لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث وجهد التنقيب عن الحقائق وإثباتها ومقارنة الأشخاص بالأشخاص ، والموازنة بين العصور والأمم وإجراء الأقيسة المنطقية السليمة بين الأزمنة والأمكنة للوصول إلى معرفة صحيحة ونتائج علمية مقبولة.

ما أكثر ما يشتهر عالم أو باحث عظيم فى ناحية ما حتى يحاط بهالة من نسج الخيال فى التحدث عنه ونسبة أشياء وحوادث إليه . وما أكثر ما تنقل الشائعات على هذا الوجه وتأخذ طريقها من مصنف إلى مصنف ، بل من لغة إلى لغة حتى تصبح فى مركز الحقائق الثابتة غير القابلة للنقد أو المعارضة ، إلى أن يأتى التاريخ بوثائقه الحاسمة التى تمزق أستار الأوهام ،وتكشف لثام الأباطيل عن وجه الحقيقة فتبدو سافرة بعد ماطال بها الأمد وهى فى غمار الظلام .

ولدينا على ذلك شواهد كثيرة نكتفى منها بالإشارة إلى

(١) أنظر ترجمة الفارابى فى هذا الكتاب .

« جيدو الأريزى » وقد عاش بأوربا فى نهاية القرن العاشر الميلادى .
كان نابغة فذاً وعبقرياً متفرداً رفع الأمية الموسيقية بتلك الوثبة
التى وثبها بالتدوين الموسيقى بما جعله أبا التدوين الحديث ، وكان
له الفضل فى تسمية درجات السلم الموسيقى بمصطلحاتها الجارية الآن
والمأخوذ بها فى الغناء الصولفائى ، كما كان له من التجارب العملية
ما يشبه السحر . فكان من أثر ذلك أن كاد « جيدو » يصبح من
الشخصيات الخرافية فى عالم التاريخ . لقد توسع المؤرخون فى
تفسير وجوده وموهبته وآثاره فما من عمل يؤدى ولا اختراع
يبتكر من مجهول إلا ويكون « جيدو » هو ذلك المجهول ، حتى
لقد نسبوا إليه اختراع آلة البيان وسواها . وأخذ الكتاب ينقل
بعضهم عن بعض ويتزيدون فى الرواية عنه والإشاده بعبقريته
والتحدث عن معجزاته كأنه سليمان سخرت له الأرض إنساً وجناً
وطيراً .. حتى ارتقت البحوث فى مناحى التفكير المختلفة ، وأصبح
التاريخ الموسيقى مادة مستقلة لها شعبتها العلمية الجامعية فى الدراسة
والتخصص . ومن ثم لم يعد « جيدو » مخترع كل شىء على نحو
ما صوروه ، إنما بقى فى حدود الحقيقة ، له فضله ولكن فضله هو
دون زيادة ولا نقص .

ولكن الجهود الحديثة التى ألحقت هذه الدراسات الموسيقية
بالحياة الجامعية بدأت فى ممالك الغرب ، وما برحت شجرتها فى نمو

حتى كانت لها ثمار وثمار . وبقيت الموسيقى فى الشرق كما كانت ينقلها فنان عن فنان وراوية عن راوية وكاتب عن كاتب فلا يقال للأول مافنك ، وما علمك ، وما مبلغ دراستك ومدى ثقافتك ..؟ ولا للثانى ما هى حدود روايتك ووسائل درايتك ..؟

وكان هذا مصدر ما لقيت من العناء حين حاولت مناقشة المصادر لإخراج هذا الكتاب للناس على نحو دراسى على يجمع بين الإيجاز والإيضاح ، وبين الترتيب والتنقيب واستخلاص الحقائق من بين أوهام الأساطير وأكداس الأضابير . وذلك مما جعل هذا الكتاب غير قريب العهد بالميلاد ، فلقد صحبنى هؤلاء الأعلام واحداً بعد واحد ، وطالعونى بوجوههم وفنونهم عبر الحقب والعصور ، من ثنايا المصادر العربية وغير العربية ، والمخطوطات القديمة والمطبوعات الحديثة ، فى مصر تارة وفى مكتبات أوروبا تارة أخرى . وربما اشتبكوا فى صراع عنيف ليسبق بعضهم بعضا إلى الظهور . وكانت نفسى موضع هذا الصراع ، حتى استجبت إلى بعضهم وأظهرته وحده فى مؤلفه الخاص كالكندى وابن سينا اللذين ظهرا تباعا بالعربية والألمانية . كما بعثت ذكريات ومآثر لغير هذين فيما نشرت من موضوعات ومقالات فى أكثر من مجلة أو كتاب . ولكنهم ظلوا وأضرابهم يطالبون بالظهور فى مشرق نور العروبة ونهضة مصر ، على أن

تجمعهم باقة واحدة يبحث أريجها ما كان للمدنية العربية من القيمة الفنية العليا . فرأيت بعد طول المدة أن أضيف بهم حلقة جديدة إلى سلسلة مصنفاتى فى التاريخ الموسيقى ، تلك المصنفات التى أعنى فيها عناية خاصة بكل ما يتصل بالشرق قديمه وحديثه ، وقد بدأت بواكيرها الأولى فى هذه الناحية بكتاب « موسيقى قدماء المصريين » الذى طبع بالقاهرة فى عام ١٩٣٦ م .

وقد أردنا بهذا المصنف الجديد أن نتناول تاريخ الموسيقى العربية وأعلامها منذ العصر الجاهلى إلى الأندلس . على أنه ماتزال لتلك السلسلة حلقات ستتبع بعضها بعضاً . وقد يكون من أجلها شأناً تلك الحلقة التى سنخصصها إن شاء الله لمصر وحدها منذ الفتح الإسلامى حتى الآن فى مصنف خاص .

على أن هذا المصنف الذى نطالعك به الآن ليس محصور الثمرة والجدوى فى دائرة الأسرة الموسيقية ، بل هو باب من أبواب المساهمة فى الثقافة العامة ، فحرى بمن يعنى بشأن الأدب العربى والمجتمع العربى ألا يفوته التعرف إلى أولئك العباقرة الذين يكشفون بسيرهم عن ألوان الحياة العربية ، ومظاهر مدنيتها ، وتنوع الجمال فى صورها ، وثرائها من ناحية الفن وغزارة المادة ، واهتمام الخلفاء ببواعث التشجيع التى رفعت أقدار أهل الغناء وبوأتهم المكانة الرفيعة وسجلت لهم صحائف الخلود . فما أحوج

دارس الأدب والاجتماع والتاريخ وغير ذلك أن يلتمس فى هؤلاء معادن وكنوزاً ومآثر ومواهب ما كان له أن يعثر عليها فى يسر وإمكان لولا هذا الجهد المتواضع الذى حاولنا فيه أن نسلك طريقة تجمع بين التبسيط والتحليل وأن نقدم أكبر عدد ممكن فى أصغر حجم مستطاع . فهو جديد فى المصنفات الأدبية الفنية يضاف إلى مكتباتنا العربية .

وقد جعلنا هذا المصنف قسمين ، فنى أولهما نظرة إجمالية وإلمامة تاريخية طفنا بها حول تلك العصور العربية والأجيال الإسلامية ، وقد حاولنا فى هذا القسم أن نضع أمام القارئ صورة سريعة مجملة يستطيع أن يشرف من نافذتها على الموضوع بصفته العامة وأن يستعرض المناظر فى إيجاز . أما القسم الثانى من هذا الكتاب فهو مدرسة الأعلام حيث يجد القارىء بعد استيفائه القسم الأول كل علم فى موضعه وفى إطاره ويتبين على ضوء ما سبق عصره وبيئته ومنزلته من محيطه ومن التاريخ بجملته . فقد رأينا من الخير قبل دراسة التفاصيل من سير أولئك النجوم أن نسبق تلك الدراسة بهذه الإحاطة الإجمالية التى تتناول ممالك ومدنيات سايرت حياة العرب فى تنقلهم من عصر إلى عصر ومن أرض إلى أرض . فإذا تم الوقوف هذه على المراحل بأزمنتها وبأمكنتها فى

المشرق والمغرب من تاريخ الموسيقى العربية ، أخذنا سبيلنا إلى دراسة هؤلاء الأعلام .

وإننا لانزعم أننا أتينا فى هذا المصنف على جميع المغنين فى تلك العصور ، أو على جميع ما كان لهم من خصائص ومواهب ، وإنما هى محاولة لعل فيها كفاية لمالا غنية عنه لقارئ أو دارس .

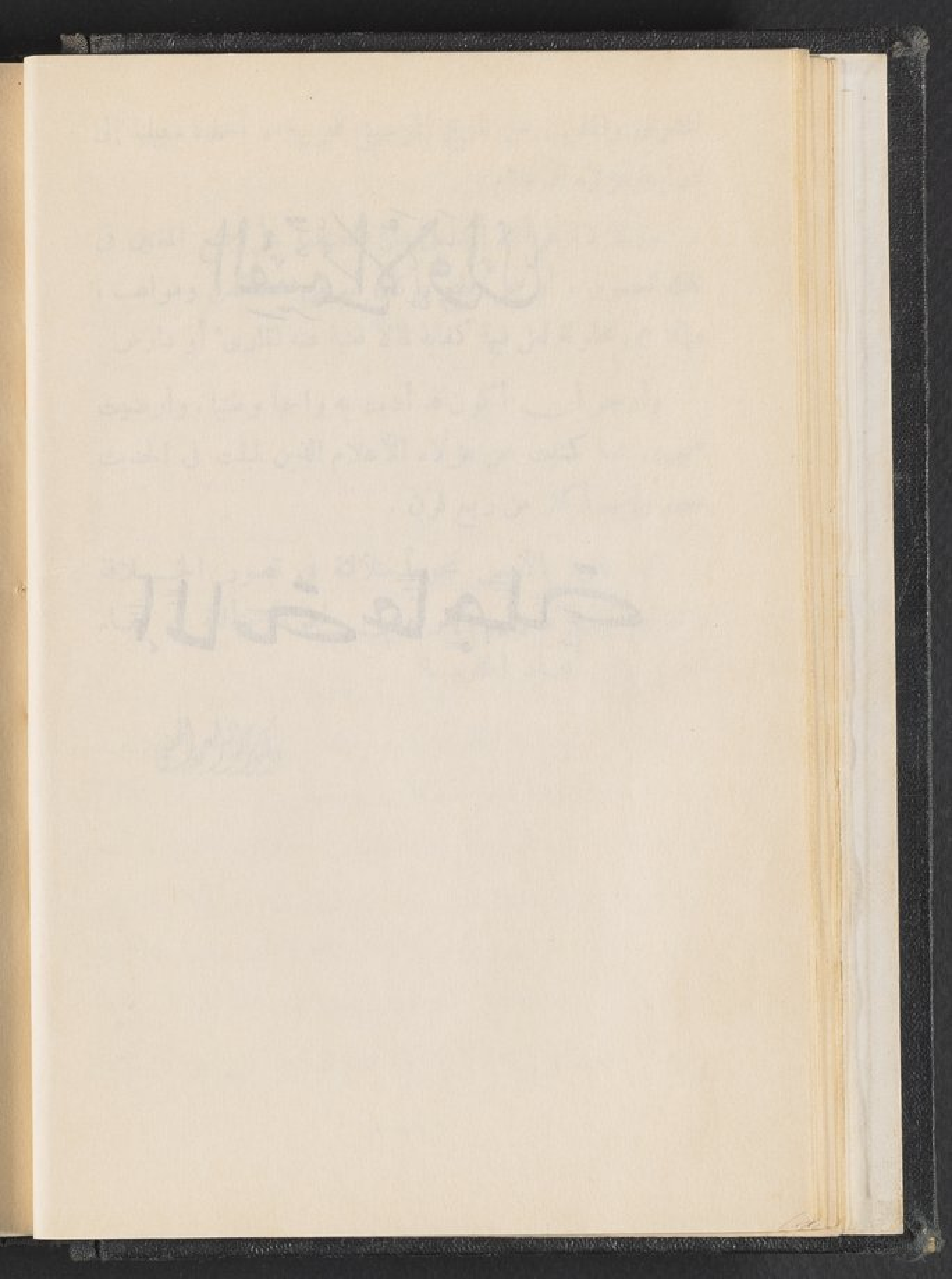
وأرجو أن أكون قد أديت به واجباً وطنيا ، وأرضيت ضميرى بما كتبت عن هؤلاء الأعلام الذين لبثت فى الحديث معهم وإليهم أكثر من ربع قرن .

لقد كانوا بالأمس نجوماً متلألئة فى قصور الخلافة وسماء العروبة ، واليوم يعودون نجوماً متألقة فى سماء التاريخ وفى أمجاد الخلود ؟

دكتور محمود أحمد الحفنى

القسم الأول

إلمامة عاجلة



العصر الجاهلي

مدته نصف قرن ينتهي بظهور الإسلام

كل شيء فى الصحراء من صنع الله ، سماء صافية ، وشمس ساطعة ونجوم تتألق ، وطبيعة تبوح بأسرارها فى انسجام شامل ولحن هادىء متناسق، تجعل ساكنها شاعراً بفطرته موسيقياً بطبعه وسليقته.

وكذلك كان العربى فى بداوته الجاهلية شاعراً موسيقياً . وإن فى قدرته على ارتجال القصيد ، وفى تناسق أوزان الشعر العربى وانسجام تفاعيله فى عدد حروفها المتحركة والساكنة وتوافق تعاقبها ، بل فى تناسب أجزاء الشعر ورنين قوافيه لدليلا على تلك الموسيقية الفطرية .

إن الحياة فى الصحراء ، وما فيها من وحشة وانفراد ، كانت تدعو العربى إلى تلمس أسباب الأنس ومنها الغناء . وإن الإبل وهى مجهدة فى أسفارها الطويلة كانت تحتاج إلى مايبعث فيها النشاط وينسيها ما هى فيه من ألم الجوع والظمأ ، فكان الحداء من خير الوسائل لإنعاشها ، على أن فى حركة مشيها إيقاعاً موسيقياً علم [illegible] فى البادية كيف يتابعه بصوته وترنيمه .

ولقد كان الترنم بالشعر أول أنواع الغناء الجاهلى ، ولم ينتحل العرب فيه يومئذ علماً ولا عرفوا صناعة ، فتغنى الحداة منهم فى حداء إبلهم والفتيان فى أوقات فراغهم ولهوهم . وكانوا يسمون الترنم بالشعر غناء وبالتهليل أو بالترتيل تغبيراً وهو التذكير بالغابر .

وكان الغالب على طبيعتهم الموسيقية التغنى بالرجز يرسلونه ارتجالا لبساطة تفاعيله ويسر تناوله . وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات بعض المناسبة ، وكانوا يسمون ذلك السناد . وأكثر مايكون شيوعاً فيما هو من بحر الخفيف الذى يجرى إنشاده بمصاحبة الدف والمزمار فتطرب له نفس العربى وتسكن إليه مشاعره .

وهذا الساذج مما سبق ذكره من ألوان الغناء لايبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم ، شأن كل ساذج من الصنائع ، فإنك تجد ذلك فى المطبوعين على الموازين الشعرية ، وتوقيع الرقص ، وأمثال ذلك .

لذا كان الشاعر فى الجاهلية موسيقياً بفطرته ، فإن اتخذ له أحياناً مغنياً يقوم بإنشاد شعره ، فما ذلك إلا كما يتخذ له راوية لإلقائه .

وللصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، فلا عجب أن يتغنى أهلها بنوع واحد من القول ، ولون واحد من النغم .

والشعر الجاهلى لا يدل على خيال واسع ولا على غزارة فى وصف المشاعر والوجدان، إنما هو قصائد كثيراً ما تتكرر فيها التشابيه والاستعارات فى قلة من الابتكار وفى غير تنوع ... موضوعات محدودة ضيقة، هى ظل لحياة الصحراء، وصورة صادقة لعيشة البداوة... وهكذا كانت موسيقى ذلك العصر، نغمة متكررة وألحان ساذجة فطرية .

وكان العربى حريصاً على التمتع بمسرات الحياة، متعلقاً بالحب كلفا بالشراب والميسر والصيد، مشغوفاً بالغناء وسماع المزهر [١]

وكان للمرأة حظ من الموسيقى فى ناحيتها، فقد اشتهرت نساء العرب بما كان لهن فيها من ألحان «المراثى» و «النواح».

ولئن كانت غالبية سكان جزيرة العرب تعيش فى البوادى، منذ الفطرة الأولى، والمعيشة البدوية هى السائدة فى تلك الجزيرة فقد تقدمت بهم الحياة الإنسانية نحو الحضارة والمدنية حتى صار من العرب طائفة عرفت «بالحضر». وهؤلاء أرقى من البدو بكثير يسكنون المدن، ويقرون فيها، ويعيشون على الزراعة والتجارة. وقد أسسوا قبل الإسلام ممالك ذات مدنية كاليمن، بلغت قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المبانى الفخمة والنقوش الكثيرة، وكالغساسنة فى الشام، واللخميين فى

---

(١) نوع من العود ذو وجه من الرق .

العراق . وكان لهؤلاء سيما الأشراف منهم موسيقى تسمو على موسيقى البدو ، تأثرت إلى حد ما بالمدنيات المجاورة .

وقد يعتقد البعض أن العربى فى الجاهلية حبسته الصحراء وألزمته طبيعة بلاده المعيشة بمعزل عن العالم ، وهذه فكرة خاطئة تنكرها الحقيقة ويدحضها التاريخ فقد كان العرب منذ جاهليتهم الأولى على اتصال مستمر بالمدنيات المجاورة لهم ، وذلك لعدة أسباب أهمها التجارة والبعثات الدينية من اليهود والنصارى تدعو إلى دينها ونشر تعاليمها .

وقد ازدهرت الموسيقى فى بلاد الفرس قبل بلاد العرب ، واهتم ملوكهم بها ، وجعلوا لأهلها مكاناً فى دولتهم ، حتى علا شأنها وتبوأت فى الشرق مكان الزعامة بعد مصر الفرعونية .

وكذلك كان الحال فى بلاد اليونان سمت فيها الموسيقى بعد أن انتقلت إليها من الممالك الشرقية القديمة ، وعنى بها علماؤها فدونوا أصولها وقواعدها .

وقد تأثر العرب بتيار هذه المدنيات تأثراً عظيما ، نقف على مداه من الشعر الجاهلى . وحفل تاريخ الجاهلية بأخبار القيان يستقدمن من بلاد العجم والروم ومصر بآلاتهن الموسيقية ، فلا يكاد يخلو منهن بيت من بيوت الأشراف ، وكانت حرفة الغناء مقصورة أولا على أولئك القيان اللائى كن يلقين أغانيهن تارة

بلغة بلادهن وأخرى بالعربية ، ودخل فى زمرتهن فيما بعد بعض العربيات وإن كن قليلات .

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى عن حسان بن ثابت يصف ليالى الجاهلية « لقد رأيت عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط [1] ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة » .

واشتهر من هؤلاء القيان كثيرات ، وأقدم من عرف منهن جرادتا عاد اللتان يضرب بهما المثل العربى قديما « تركته تغنيه الجرادتان » وهما قينتان لمعاوية بن بكر أحد العماليق ، كذلك جرادتا نعمان ، وجرادتا عبدالله بن جدعان وهبهما لأمية بن أبى الصلت الشاعر المشهور .

غير أنه وإن كان اتصال العرب فى الجاهلية بالحضارات الأجنبية أمراً ثابتاً ، فلقد كان يجرى من غير شك فى حدود ضيقة تلائم موقع بلادهم الجغرافى وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية .

وسنرى فيما يلى أنه ستطرد زيادة تأثر الموسيقى العربية ، من عصر إلى عصر ، بموسيقى المدنيات المجاورة ، سيما الموسيقى الفارسية حتى يبلغ هذا التأثر منتهاه فى عصر بنى العباس .

---

(١) مفرده بربط ، اسم فارسى للعود .

وقد عرف العرب فى الجاهلية من الآلات الوترية المزهر والعود ذا الوجه الخشبي ، كذلك عرفوا من الآلات الوترية الجنك أو الصنج والمعزف .

ومن آلات النفخ المزمار والقصبة أو القصابة والشبابة والصور والناى .

ومن آلات النقر الطبل والدف والقضيب (لضبط الميزان أو الإيقاع) والصنوج والجلاجل .

عصر صدر الإسلام
وبني أمية

يبتدىء بظهور الإسلام

وينتهى بقيام دولة بنى العباس (١٣٢ ﻫ / ٧٥٠ م)

جاء الإسلام فضرب المثل العليا لمبادىء الاجتماع المؤسسة على مكارم الأخلاق ، والسمو النفسى ، والكمال البشرى ، فكان لزاماً أن تنهض الموسيقى فى أحضانه ، وتزدهر فى عزه ، وترقى حتى تكون ثقافة تثمر فى كنفه . ذلك بأن الموسيقى هى الباعث للكمال الأدبى فى الانسان بترقية طباعه وتهذيبه ، فإن سماع الأنغام يوقظ المشاعر ، ويلهب الحس ، فيدفع بالعاطفة نحو السمو ، وبالعقل نحو التفكير ، وبالخيال نحو دنيا الروح . وعلى الجملة فإنها تكبت الشهوات الجسدية فيسود العقل ، والعاطفة ، والروح ، على كل غرائز النفس البشرية .

وما نعدو الصواب حين نقرر أن الموسيقى فى صدر الإسلام قد لبست ثوباً دينياً ناصعاً يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل فى أنفس الناس سريان العافية فى الجسم السقيم .

وآية ذلك ما بين أيدينا من أحاديث مأثورة عن مشهورى الصحابة فى مدح قارىء القرآن إذا كان جميل الصوت لم يخرج عن حد المعقول فى القراءة والأدب الواجب للقرآن . وهنا رفع القرآن الكريم علم الموسيقى عالياً بين العرب ، ونشأ علم التجويد [1] .

ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع ، الذى يسيطر على مستمعيه ، ولو كانوا غير مسلمين ، حتى قال بعض الأجلاء : « إن قوانين الموسيقى قد لحظت فى القرآن تامة مكتملة » . وكذلك الشأن فى بعض شعائر الدين الأخرى كالأذان للصلاة عامة ، وصلاة العيدين وتلاوة التكبيرات فيهما فى لحن موسيقى رائع ، مما يرقق حاشية الروح ، ويلين القلوب الغلاظ ، ويهيء الناس لتلقى النفحات الإلهية فى بهجة وانشراح .

ولئن تفرغ النبى ﷺ لنشر دعوته ، وتبليغ رسالته ، واشتغل بالغزوات ومحاربة الكفار من قريش ، فلقد كان عليه السلام يتقبل الغناء ، ويدعو إليه فى مناسباته .

من هذا ما سمح به لجارية من قريش نذرت : لئن رده الله من غزوه لتضربن فى بيت عائشة بدف . فلما رجع الرسول الكريم جاءت الجارية تريد أن تفى بنذرها . فذهبت عائشة رضى الله عنها

---

(١) وقد تفرع عن هذا العلم فن حديث اصطلحنا على تسميته فى مواد المعاهد الموسيقية بتربية الصوت اللفظى .

لرسول الله تخبره قالت : « فلانة ابنة فلان نذرت لئن ردك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بدف » فقال لها : « فلتضرب » .

وكذلك ما روى من أنه ﷺ دخل على زوجه أم المؤمنين عائشة وهى تزف جارية لها من الأنصار ، فقال لها : « يا عائشة ألا تبعثين معها من يغنى ؟ فإن أهل هذا الحى من الأنصار يحبون الغناء » .

وما روى عنه عليه الصلاة والسلام وهو يمتدح أبا موسى الأشعرى حيث قال : « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » . وماتناقلته الرواة والثقات من أنه ﷺ أذن لبلال بن رباح الحبشى — وهو أول من أسلم من الأحباش — بالأذان بصوته الجميل .

وقد اشتهر فى ذلك العصر من المغنيات كثير من القيان ، نذكر من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت ، وهى إحدى الجاريتين المصريتين اللتين أهداهما المقوقس فى العام التاسع الهجرى (٦٣٠م) إلى النبى (ﷺ) . وعنها أخذت عزة الميلاء الأستاذة الأولى لمدرسة الغناء التى درج عليها من عاصرها أو جاء بعدها . وقد روى صاحب الأغانى أن عزة كانت تغنى من أغانى سيرين ، وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام فى حنجرة سيرين وتلميذاتها فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على الرغم مما عرف عنه من شديد زهده فى الدنيا راضياً عما يعفو الله عنه من الغناء . فقد نقل صاحب العقد الفريد أن عمر قال للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له ، قال وإنك لقائلها؟ قال نعم . قال لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب .

وكان عمر يكره من الموسيقى الغناء المخنث الذى يبعد الشعب عن الجهاد والتخشن ، ويسلمه إلى الرفاهية والطراوة . وما كان ذلك من طبيعة الإسلام ولا من سجية عمر ، ولا مما يأذن به الخلق القويم .

وما كاد يقبل عصر عثمان رضى الله عنه حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية وتلميذتها الفتية عزة الميلاء وغيرهما كن يقمن فيها حفلات موسيقية رائعة يحضرها أشراف القوم وفنانوهم. وكان من بين هؤلاء حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ .

وقد كان فى اتساع الفتوحات التى تمت فى عهد عثمان ، وفى عهد سلفه ، والممالك التى دانت للإسلام ، والأسرى الذين قدموا إلى الديار العربية ، ماجعل تيار مدنيات البلاد المغلوبة — وبخاصة المدنيات المصرية والفارسية واليونانية — ينتشر فى البلاد العربية ، حتى لقد نبغ العرب فى فن العمارة فشيدوا أفخر القصور والمبانى . وأخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم فقللوا من غلواء نظرتهم

إلى الموسيقيين ، وحفلت بهم بيوت الأمراء والأشراف ، وأخذت الموسيقى مكانها فى مجالسهم بجانب الشعر والأدب .

وما كاد ينقضى عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذت الموسيقى تسلك سبيلها إلى وجهتها الفنية الواضحة . وأورقت تلك الدوحة التى بدأت نواتها منذ قريب لتمتد ظلالها وتستكمل نضج ثمارها فى عصر بنى أمية .

انتقل الحكم بعد مقتل على رضى الله عنه بقليل إلى الأمويين ، وأمام ما بذلوا من جهود واصلوا بها السير فى قافلة الحضارة دخلت الدولة فى عصر زاهر ، واتسعت فتوحاتها فى أيامهم شرقاً حتى وصلت الصين وغرباً حتى بلغت المحيط والأندلس . ولقد قيل بحق إن الخلفاء الراشدين جعلوا من الإسلام ديناً كما جعل الأمويون منه امبراطورية . وانتقلت الخلافة من المدينة إلى دمشق ، وزاد اتصالهم بالمدنيات المصرية والفارسية واليونانية فازدهرت الحضارة العربية وعمت الشرق أجمع ، ثم امتدت إلى أوربا فبزتها وحفزتها إلى التقدم حتى وصلت بها إلى عصر الإصلاح .

كان العربى معتداً بأصله ، فخوراً بمحتده ، لايحترف من المهن ولا يزاول من الأعمال إلا ما اعتبره موضع الاحترام والنبل . ولما كانت صناعة الموسيقى من الفنون التى لم تبلغ فى أنظار العرب هذا المرتقى ، زهدوا فى احترافها فتركوها لقيانهم ومواليهم . لذلك

كان احتراف الغناء فى العصر الجاهلى مقصوراً على طبقة القيان من المطربات . وظل الأمر كذلك حتى صدر الإسلام حيث أخذ الغلمان يتعاطون الغناء ويحترفونه . وكان المغنون من الرجال فى ذلك العصر يتشبهون بالنساء فى كثير من عاداتهن وأطوارهن . وأول من اشتهر من المغنين من هؤلاء « طويس » ويعزى إليه أنه أول من غنى بالعربية غناء يدخل فى الإيقاع . وكان لايضرب بالعود ، وإنما كان ينقر بالدف ، ويسمى بالمربع لتربيعه فى الشكل ، وفى ذلك ما يدل على أن غناءه كان محدود الصناعة . وقد تعلم الغناء من سماعه لأسرى الفرس وهم يشتغلون فى المدينة . ومات فى خلافة الوليد بن عبد الملك . وأشهر من عرف من معاصريه « الدلال » و « هيت أو هتب » . وهذه الطبقة من المغنين اشتهر أصحابها باسم « المخنثين » ، وكانت حلقة انتقال بين المدرستين القديمة والحديثة .

كان الروح العربى الموسيقى روحاً فنياً رياضياً غير متعصب ولا جامد ، فما كاد ينبثق فجر الدولة الأموية ، ويزداد اتصالها بالمدنيات المصرية والفارسية واليونانية حتى تشرب الروح العربى تلك المدنيات ونقل غناءها إلى غناء العرب وآلاتها إلى آلات العرب .

وكان للموسيقى فى الدولة الأموية حظ العلوم والفنون الأخرى فازدهرت وأينعت وظهر من مشهورى المغنين والمغنيات من يجدر بنا ان نطلق عليهم وعلى فنهم المدرسة الحديثة .

ويعتبر سائب خاثر نواة النهضة الموسيقية فى البلاد العربية ، وأول من نقل الغناء الفارسى وأسبغ عليه الطابع العربى وعرف بعد ذلك بالغناء « المتقن » . وهذا النوع المستحدث يقابل غناء « الركبان » الذى يمثل روح العصر الجاهلى وطابع البادية . ولقد كان من عادة المغنين من العرب حتى ذلك الوقت أن يستعملوا فى غنائهم القضيب ، وكان سائب خاثر يستعمله كذلك ، إلى أن رأى نشيطاً الفارسى يستعمل فى غنائه العود فاستعمله هو أيضاً فى أغانيه فكان أول من غنى فى المدينة مستعملا العود . ونبغ ممن أخذ الغناء عن سائب خاثر أربعة غدوا أعلام الغناء وهم : عزة الميلاء وجميلة زعيمتا النهضة الموسيقية العربية ، وابن سريج ومعبد .

وكان ابن مسجح — وهو أحد فحول المغنين فى العصر الأموى — أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة فى حداثته ، وقد اتقن محاسن النغمات فحذقها وأصبح له فى الغناء مذهب خاص وطريقة تبعها الناس بعده . وقد أخذ عنه ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض .

وإننا لنرى الموسيقيين يرتفع مقامهم شيئاً فشيئاً ويصبحون موضع الاحترام والتقدير ، ويسلكون نهجهم رويداً حتى يصلوا إلى قصور الخلفاء ، وينالوا الحظوة عندهم ، فلا تكاد تذكر خلافة بنى أمية فى أول عهدهم بالحكم حتى ترى الخليفة عبدالملك بن مروان

يشجع أهل هذه الصناعة ، بل تراه هو نفسه موسيقياً وملحناً ، عارفاً بأنواع الغناء ، يسأل ابن مسجح وهو فى حضرته هل يغنى غناء « الركبان » وهل يغنى الغناء « المتقن » ؟

وكان سليمان بن عبدالملك يجرى المسابقات بين المغنين ، ويجزل لهم العطاء . وبلغ من تقدير يزيد بن عبدالملك للموسيقى أنه ما كاد يتولى الخلافة حتى اشترى حبابة المغنية بأربعة آلاف دينار ، وظلت موضع إكرامه حتى وفاتها .

ورأينا الوليد بن يزيد يعظم الرعاية للموسيقى وأهلها ، وقد بلغ من إكرامه لمعبد أنه عندما مرض تولى أمره ، وآواه فى قصره ، فلما مات شيع الجثة بنفسه ومشى فى جنازته من قصره إلى موضع القبر . بل كان الوليد كذلك عالماً بصناعة تأليف الألحان ، وله فيها أصوات مشهورة ، كما كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل والدف .

ولم تقتصر معاضدة أهل هذه الصناعة على الخلفاء ، بل سرت إلى الأشراف والنبلاء والسراة . وقد كان لعبد الله بن جعفر مجالس طرب عظيمة يدعو إليها مشهورى المغنين ، وكان سائب خاثر ونشيط منقطعين إليه . كما كانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ترتاح إلى سماع الموسيقى ، وكان الغريض المغنى المشهور فى خدمتها ، منقطعاً لها ، منشداً مراثى أهل البيت ونائحاً

عليهم . وكانت عندما يجتمع عندها المغنون تأذن للناس فى دخول بيتها إذنا عاما (١) .

ولقد وضح من أنباء المغنين والمغنيات اطراد ظهور أثر الموسيقى الفارسية فى موسيقى العرب ، حتى دخل فى اللغة العربية كثير من الألفاظ الفارسية مما كان دليلا على عظم هذا الأثر ، من ذلك أن أطلق على العود اسم « البربط » ومعناه صدر البط ، و «الدستان» على موضع عفق الإصبع على الوتر . بل سمى وتران من الأوتار الأربعة المركبة على العود باسمين فارسيين ، فأطلق على الأسفل « الزير » وعلى الأعلى « البم » بينما احتفظ للوترين المتوسطين باسميهما العربيين القديمين « المثنى والمثلث » إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة .

كذلك تأثرت الموسيقى العربية بنظريات الموسيقى اليونانية تأثيراً كبيراً . وكثيراً ما كان يرد ذكر علماء هذا الفن من اليونان فى مصنفات العرب وكتبهم ، حيث ينوهون عنهم بالأقدمين .

غير أنه مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب ومغنيهم وإن أخذوا العلوم الموسيقية وفنونها عن اليونان والفرس ومصر فقد احتفظوا فيها إلى حد كبير بطابعهم العربى الذى ميز موسيقاهم وجعل لها صبغة خاصة .

---

(١) أنظر ترجمة حنين الحيرى فى هذا الكتاب .

ومما يذكر بالفخر لذلك العصر أنه بدئ فيه بوضع أول تصانيف عربية فى أخبار الموسيقى والغناء فقد وضع يونس الكاتب « كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك فى هذا الباب ومرجعاً لكتاب الأغانى الكبير الذى وضعه أبو الفرج الأصفهانى فيما بعد .

عصر الدولة العباسية

(١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)

جاء العصر العباسي فدخلت الموسيقى فى عصرها الذهبي ، وخطت خطوات سريعة نحو الكمال حتى بلغت أوج مجدها ، وذروة علاها ، وزادت المقامات وطرائق الإيقاع حتى تعددت فى اللحن الواحد ، وكثرت الآلات وتنوعت ، وشاع استعمالها حتى عزفت مائة قينة معاً ، وسما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم نديما له وجليسا .

ولما بنى المنصور مدينة بغداد أصبحت موطن الخلافة ، ومركز الشرق ، ومدينة الثراء ، وموطن الفنون والعلوم ، وفى مقدمتها الموسيقى .

كذلك والى الخلفاء عنايتهم بهذا الفن . وكان المهدى بن المنصور ذا صوت حسن ، شغوفا بالموسيقى ، مولعا بالغناء . فقد روى أنه كان أحسن الناس صوتاً ، يؤم قصره أعلام الموسيقى وكبار المغنين .

ولقد بدت فى العصر العباسي ظاهرة جديدة فلم يعد العرب ينظرون إلى الموسيقى بشطر العين ، أو يتأبون احترافها . بل إن

من أبناء أشرافهم من دخل فى زمرة أهل هذه الصناعة . فمن أساطينها ابن جامع الذى يتصل نسبه بقريش . بل لقد زاول هذه الصناعة بعض أمرائهم كإبراهيم بن المهدى .

كذلك كان الخليفة الواثق موسيقياً من كبار الموسيقيين ، ومن أعلم الخلفاء بالغناء ، بلغت صنعته فيه مائة صوت (لحن) . وروى أنه كان أحذق من غنى وضرب على العود . وكان كثير التقدير للموسيقى وأهلها . وإن قوله فى إسحق الموصلى لدليل على ما يكنه خلفاء هذا العصر من احترام هذه الصناعة وأهلها ، إذ قال: « ما غنانى إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى . . . وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها . ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى » .

ولقد أعطى الخليفة الهادى إبراهيم الموصلى مائة وخمسين ألف دينار فى يوم واحد حتى قال : « لو عاش الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة » .

وإنك إذ ترى هذه العناية من خلفاء بنى العباس بالموسيقى وأهلها ، وعناية خلفاء بنى أمية بها كإكرام يزيد بن عبد الملك لحبابة ، وتمريض الخليفة الوليد بن يزيد لمعبد فى قصره وتشييع جنازته هو والغمر أخوه . . تلمس فى ذلك كله عناية الخلفاء بهذا الفن ، وإكبار أهله وتعظيمهم . بل إن ذلك لأكبر دليل على سمو المدنية العربية ، إذ الموسيقى دائما مقياس المدنيات .

ولقد يضطر الإنسان إذ يعرض أمثال هذه الحوادث ، شاء أو لم يشأ ، إلى أن يوازن بينها وبين أحوال أبطال الموسيقى فى أوربا حتى أول القرن التاسع عشر ، أى بعد التاريخ الذى نحن بصدده بنيف وألف عام .

كان موسيقيو ذلك العصر ذوى متربة مكدودين يفعل بهم البؤس أفاعيله . وهذا « موتسارت » وهو أكبر عبقرية موسيقية عاشت فى أوربا فى القرن الثامن عشر ، فإنه على الرغم مما بلغ من الشهرة وبعد الصيت ، وبعد أن رحل إلى إيطاليا ، ونالت ألحانه الإعجاب والتقدير حتى منح لقب المحبوب من الإله ، وبعد أن ظفر بمثل هذا التكريم من فرنسا وانجلترا ، ما كاد يعود إلى وطنه النمسا حتى استدعاه حاكم مدينة زالسبورج مسقط رأسه وضمه إلى قصره تجرى عليه معاملة خدمه ومهانتهم ، حتى لقد كان يؤاكلهم فى مطبخ القصر . على أن الأيام لم تصف له بعد ذلك ، فعاش حياته فقيراً ، وقضى نحبه فقيراً لم تجد زوجه يوم موته ماتجهز به جنازته أو تشيع به جثته أو تشيد منه مقبرته فبقيت الجثة رهينة حتى قام القيصر بالإنقاذ فأمر بصرف ثلاثة آلاف جولدن .

ولم يكن « هايدن » قبله ولا « بيتهوفن » بعده أسعد منه حظاً أو أكثر وفرا .

ولقد أسست فى العصر العباسى أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون ، بناها المأمون فى بغداد وأسماها « بيت الحكمة » . فاشتغل فيها فطاحل العلماء ومنهم يحيي بن منصور وبنو موسى وغيرهم بترجمة علوم اليونان التى كان من بينها العلوم الموسيقية . ونسج الخلفاء بعده على منواله فشجعوا الفلاسفة والعلماء لاستقراء كنوز العلوم اليونانية والوقوف على أسرارها وترجمتها. وقد ظهر أثر ذلك جليا فى المؤلفات الموسيقية للكندى والفارابى وابن سينا كما سنذكره بعد .

ومما يسجل لهذا العصر بالفخر أنه ظهرت فيه عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى العربية ونظرياتها . فكان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية من التأليف بعد يونس الكاتب الأموى الذى سبقت الإشارة إليه فوضع «كتاب النغم» و« كتاب الإيقاع» فكانا بحق أول مؤلفات علمية فى الدولة العباسية. واستكمل إسحق الموصلى هذه المؤلفات. ثم جاء بعدهما من بزهما فى هذا النوع من التأليف، وهو إسحق بن يعقوب الكندى فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات فى العلوم الموسيقية ونظرياتها . وجاء بعده أبو نصر محمد الفارابى فكان من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان، وكان موسيقيا ضليعاً يجيد العزف بالعود . وقد وضع كثيراً من الكتب فى هذا الفن

أشهرها « كتاب الموسيقى الكبير » وفيه أوضح الفارابى أسرار الموسيقى العربية وقواعدها بما تدين له العصور المتعاقبة .

ومن أساطين من اشتهروا من الموسيقيين فى ذلك العصر « حكم الوادى » و « ابراهيم الموصلى » و « زلزل » و « فليح بن أبى العوراء » و « مخارق » . ومن المغنيات « بذل » و « دنانير » و « متيم الهشامية » .

وقد نسب بعض علماء الموسيقى إلى العرب إهمالهم تدوين ألحانهم مستندين فى ذلك إلى عدم ذكر شئ عن ذلك فى كتاب الأغانى الكبير . غير أن هذا مخالف للواقع ، فإن دقة الكندى فى تدوين الموسيقى بالحروف فى كتابه « رسالة فى خبر تأليف الألحان ، وما أورده صفى الدين عبدالمؤمن الأرموى من طرائق التدوين فى كتابيه الشرفية والأدوار لأكبر دليل على عناية كتاب العرب وعلمائهم بهذه الناحية وأسبقيتهم لمعاصريهم . بل إن كتاب الأغانى نفسه الذى يتهم بهذا ويتخذ الإهمال فيه حجة عليه ليورد فى أطوائه ويبين فى ثنايا أجزائه ما يدحض كل حجة ويبطل كل تزييف .

وفى ذلك العصر الذهبى اختيرت مائة الصوت المختارة ، فقد كلف هارون الرشيد ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وفليح ابن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب كلها مائة صوت

ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة ، فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحناً لمعبد من خفيف الثقيل الأول ، ولحناً لابن سريج من الثقيل الثانى ، ولحناً لابن محرز من الثقيل الثانى .

ولقد تأثرت الموسيقى العربية فى العصر العباسى بالموسيقى الفارسية تأثراً بالغ الغاية ، ودخل عليها الكثير من أسمائها واصطلاحاتها . ولم يكن ذلك فى الواقع مقصوراً على الموسيقى وحدها ، بل شمل كثيراً من العلوم والفنون .

عصر الأندلس

(١٣٨ ﻫ/٧٥٦ م — ٤٢٢ ﻫ/١٠٣١ م)

انبثق فجر المدنية فى بلاد الأندلس عندما فتحها بنو أمية ، وسطر العرب لها على صفحات التاريخ آيات مجد ظلت مضرب الأمثال ، وتوجت رأس العلوم والفنون بأفخر تيجان الرقى . وظلت عندئذ تفيض بنورها على أوربا التى لم تكن بعد قد أفاقت من سباتها العميق ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً لأساطين العلماء ، كما كانت إشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية .

قال ابن خلدون « حينما كان يموت عالم فى إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ترسل إلى قرطبة ، وإن مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التى نمت فيها الموسيقى وولع بها أهلها أشد الولع » .

وكان اهتمام خلفاء الأندلس بالثقافة عظيما ، وكلفهم بالعلوم شديداً ، حتى أن الحكم الثانى جمع فى عهد خلافته من البلاد العربية ما يربى على أربعمائة الف مجلد . ولقد كانت الموسيقى فى طليعة هذه

العلوم والفنون التى عنى بها خلفاء الأندلس ، فارتقت وذاع انتشارها ، حتى أنها لم تعد مقصورة على فئة خاصة ، بل غدت ثقافة عامة يشترك فيها جميع طبقات الشعب .

ونقل العرب إلى الأندلس كل ماسبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ، ثم أفتنوا فيها ، وزادوا عليها ، فأصبح لديهم منها عدد جم ، إذ استعملت الأندلس من الآلات الوترية : العود القديم ذا الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذا الأوتار الخمسة ، والشهرود وهو نوع من العود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والرباب ، والكمنجة ، والشقرة (أوالمشقر) . ومن آلات النفخ : المزمار ، والسرنا (أوالسرناى) ، والناى ، والشبابة ، واليراع ، والزمارة ، والقصبة ، والموصول ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ، والنفير . ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال ، والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصبة ، والطبل .

ولم يكن افتنان العرب فى الأندلس مقصوراً فى الموسيقى على آلاتها بل افتنوا فى التأليف الموسيقى وأنواعه ، وسايروا بها ارتقاءهم فى مدارج المدنية فاستحدثوا الجديد فيها . من ذلك « النوبة » وهى أهم أنواع الموسيقى والغناء فى الأندلس ، وكانت تؤلف أولا من أربع قطع لكل منها اسم خاص ثم صارت فيما بعد خمساً . كذلك ابتدعوا الزجل والموشحات .

وليس عندنا من ريب فى أن الموسيقى هى الينبوع الصافى الذى انبثقت منه تلك الألوان الحديثة من التأليف الشعرى التى كانت فى طليعتها وفى أشهرها الموشحات . فإنه ما كادت الموسيقى تمد رواقها وتوسع نطاقها فى تلك البلاد الخضراء حتى احتاج الناس إلى أوزان تعبر تعبيراً جديداً عما تنشده الموسيقى...أوزان يتحلل فيها الفنان من تلك البحور المعدودة والقوافى الضيقة المحدودة التى درج عليها الشعر وشب وترعرع وظل قروناً وأحقاباً لا يتغير إلا من حيث الفكرة أو الأسلوب ، وبقى مغلولا فى تلك الأصفاد من الأوزان والقوافى .

ولعل الفضل فى هذا التجديد والابتكار راجع إلى طموح الأعلام العباقرة من الموسيقيين أمثال زرياب ، فقد تطلب فنهم الوثاب فضاء واسعاً من الحرية ومجالا فسيحا من التقدم المطرد . ومجاراة ذلك كانت تستدعى بطبيعتها أن تخلق ضروباً جديدة من الفن الشعرى التى فى مقدمتها هذه الموشحات . ودليلنا على ذلك أن الوشاحين إنما كانوا يتعمدون اللحن والموسيقى ويقصدون إلى الغناء والطرب ، فلم يطرقوا أبواب الشعر وموضوعاته الأخرى كما صنعوا فى القصيد من مدح ورثاء وهجاء وحكم إلى غير ذلك . كما أنهم لم يتوسعوا ولم يطيلوا فيه ، وإنما نظموا هذه الموشحات فيما يلائم الموسيقى والغناء فكانت فى الأعم الأغلب تهدف إلى

العاطفة وتسكن إلى الطبيعة وتجنح إلى رقة الألفاظ وقصر الفقرات وجمال التصوير . ولهذا فهى من ناحية أخرى لاتتحدد بأبحر الشعر المعروفة فى علم العروض والقافية بل هى تخضع لمطلب الموسيقى ، ولكل وشاح طريقته ولكل بيئة ذوقها .

وكان من أقدم السابقين إلى ابتداع هذا الفن فى الأندلس مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله المروانى ، ثم تبعه احمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ثم عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية من ملوك الطوائف ، وكذلك الأعمى الطليطلى والطبيب ابن باجة الذى تنسب إليه ألحان كثيرة اشتهرت فى أغانى الأندلس .

ومن أمثلة الموشحات التى حازت قصب السبق وسايرت العصور فى تصوير جمال الأندلس قول عبادة القزاز فى موشحة تعتبر أقدم ما يتغنى به اليوم :

بدر تم ٭ شمس ضحا ٭ غصن نقا ٭ مسك شم
ما أتم ٭ ما أوضحا ٭ ما أورقا ٭ ما أنم
لاجرم ٭ من لمحا ٭ قد عشقا ٭ قد حرم

وكذلك قول الأعمى الطليطلى :

ضاحك عن جمان ٭ سافر عن در
ضاق عنه الزمان ٭ وحواه صدرى

وقول أبي الحسن سهل بن مالك :

كحل الدجى يجرى ٭ من مقلة الفجر ٭ على الصباح

ومعصم النهـــر ٭ فى حلل خضر ٭ من البطاح

وانتقلت هذه الأنواع إلى بلاد المغرب فى شمال إفريقية وإلى مصر فبلاد العرب . وأخذ الأبناء يتناقلونها عن الآباء . ومن أول المحسنين فى هذا الفن من المشارقة ابن سناء الملك ، وله الموشحة المشهورة التى لا يزال يتغنى بها إلى اليوم :

كللى ياسحب تيجان الربا بالحلى   واجعلى سوارها منعطف الجدول

ومن أهم من اشتهر من الموسيقيين فى الأندلس زرياب وابن باجة وعبدالوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب وولادة بنت الخليفة المستكفى وهند جارية أبى محمد عبدالله بن مسلمة الشاطبى وقد كتب إليها أبو عامر بن نبق يدعوها للحضور عنده بعودها :

ياهند هل لك فى زيارة فتية   نبذوا المحارم غير شرب السلسل

سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا   نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت إليه فى ظهر رقعته :

ياسيداً حاز العلا عن سادة   شم الأنوف من الطراز الأول

حسبي من الإسراع نحوك أننى   كنت الجواب مع الرسول المقبل

ولقد ظلت الأندلس زهرة أوربا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها أريجها من كل علم وفن . وأرسلت أوربا إلى جامعاتها

بالبعوث لارتشاف العلوم العربية ودراستها على أئمة العرب وأساطين علمائها . وكان أكثر الكتب ذيوعاً فى الدراسة كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد التى ترجمت جميعها إلى اللاتينية ، وانتشرت فى جميع بلاد أوربا ، كما ترجم غيرها من كتب العرب. كذلك نقلت أوربا عن العرب كثيراً من مؤلفات اليونان الأقدمين التى ترجمت إلى العربية .

وكانت الموسيقى أولى هذه العلوم والفنون التى وفدت البعوث لدراستها وترجمة كتبها فيما بعد . وممن اشتهروا من أعضاء البعوث إلى بلاد الإسلام وصاروا أعلاما فى أوربا بعد عودتهم إليها : جربرت وهرمان كنتراكت وجين الإشبيلى وقسطندى الإفريقى وقد تعلم فى تونس ومصر وبغـــداد . وقد نقل هؤلاء وزملاؤهم الكثير من كتب العرب فى الموسيقى كمؤلفات الكندى وثابت بن قرة وزكريا الرازى والفارابى وإخوان الصفا وابن سينا وابن باجة .

وبعد سقوط الأندلس ظل ملوكها المسيحيون محتفظين فى قصورهم بالموسيقيين من العرب، وإنا لنجد فى أوائل القرن الرابع عشر أن هؤلاء الملوك قد ملأهم الشغف باستدعاء الموسيقيين من العرب إليهم كما كانوا يدعونهم هم والراقصات فى أعيادهم وأفراحهم حتى أن بعض شعراء الأسبان كتب الكثير من الأغانى العربية

لهؤلاء الموسيقيين والراقصات العربيات . كما انتشرت فى بقية ممالك أوربا ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى العربية ، وكثير من هذه الآلات قد انتقل إليها بأسمائه التى تنم فى اشتقاقها عن أصل عربى كالعود [١] والقيثارة والنقارة والرباب والطنبور . ومعلوم أن الآلات الموسيقية ، لا تنتقل إلا ومعها موسيقاها . وهذا هو الواقع فإن أوربا ظلت تحت غزو الموسيقى العربية وآلاتها وفنونها وعلومها عدة قرون طويلة حتى بعد عصر الإصلاح . بل لقد ظل استعمال العود منتشراً فيها حتى القرن السابع عشر حيث قضى عليه ذيوع آلة البيان لمناسبتها للموسيقى الأوربية الحديثة بعد ما تطور فيها علم الانسجام الصوتى (الهارمونى) وصار علما على تلك الموسيقى . كذلك ظلت أوربا حتى القرن الثامن عشر تستعمل التدوين الآلى على شكل جدولى (تابلاتور) يبين مواضع عفق الأصابع على الأوتار وكيفية العزف . وقد أخذت هذا النوع من التدوين عن العرب .

---

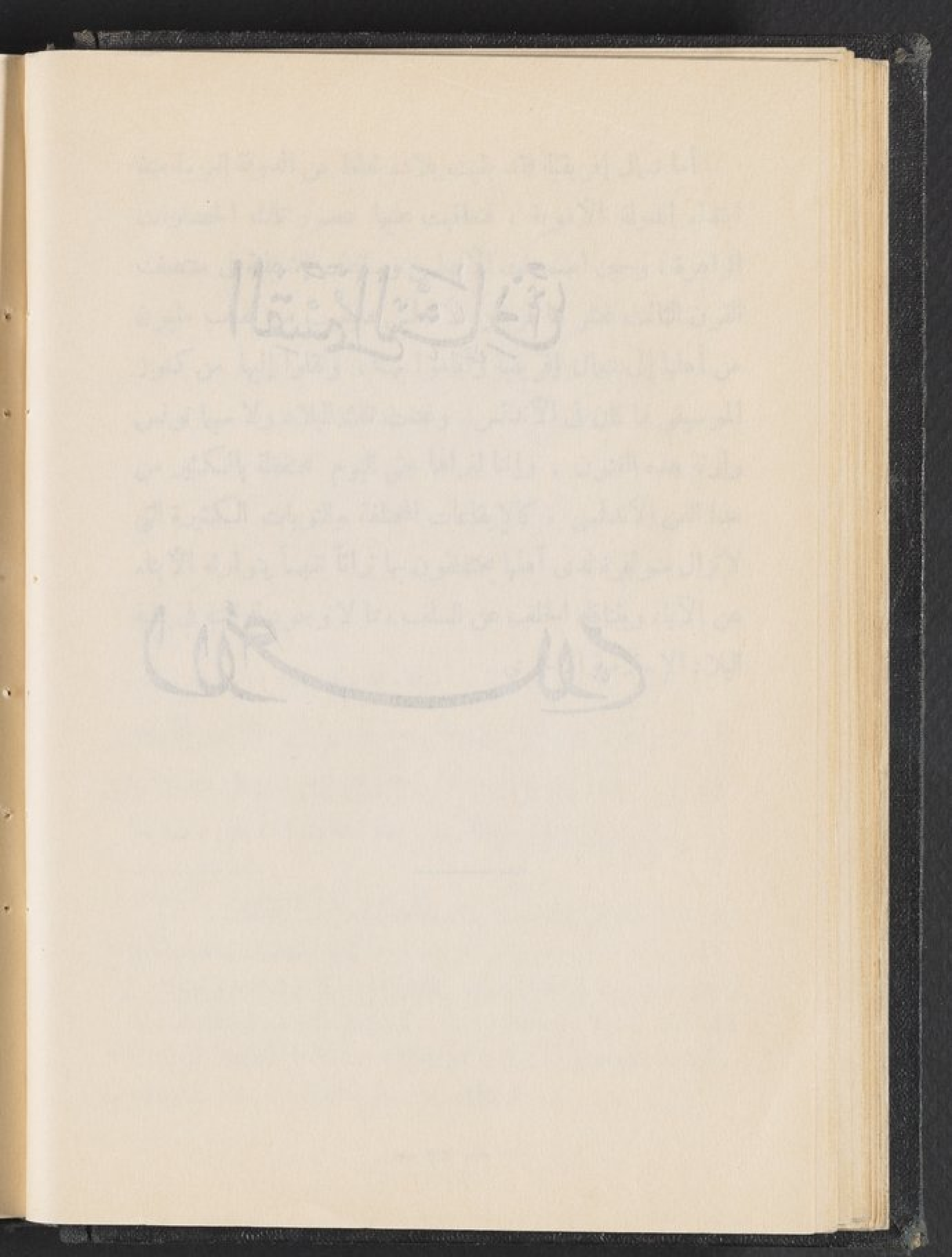
(١) وحسبنا أن نسجل هنا أسماء العود فى اللغات الأوربية الآتية وظاهر فيها جميعاً اشتقاقها من اللفظ العربى :

الانجليزية **Lute** ، الهولندية **Luit** ، الدانيماركية **Lut** ، السويدية **Luta** الفرنسية **Luth** ، الايطالية **Liuto** ، الاسبانية **Laud** ، البرتغالية **Alaude** الألمانية **Laute** ، الروسية **Ljutnja** ، البولونية **Lutnia** ، الفنلندية **Luutu** ، الصربية **Lutnja** ، المجرية **Lant** .

أما شمال إفريقية فقد بقيت بلاده قطعة من الدولة العربية منذ ابتداء الدولة الأموية ، فتعاقبت عليها عصور تلك الحضارات الزاهرة ، وحين اضمحلت الأندلس وسقطت إشبيلية فى منتصف القرن الثالث عشر هاجر من الأندلس مايقرب من نصف مايون من أهلها إلى شمال إفريقية وأقاموا بها ، ونقلوا إليها من كنوز الموسيقى ما كان فى الأندلس . وغدت تلك البلاد ولا سيما تونس وارثة هذه الفنون . وإننا لنراها حتى اليوم محتفظة بالكثير من هذا الفن الأندلسى ، كالإيقاعات المختلفة والنوبات الكثيرة التى لاتزال متوافرة لدى أهلها يحتفظون بها تراثاً نفيساً يتوارثه الأبناء عن الآباء ويتناقله الخلف عن السلف ، مما لا وجود له البتة فى بقية البلاد الإسلامية الأخرى .

القسم الثاني

الأعلام



أعلام عصر صدر الإسلام

وبني أمية

من ابتداء ظهور الإسلام إلى سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م

سائب خاثر

كان عبد الله بن جعفر حمى المغنين وراندهم ، ومنتجع الموسيقيين وملاذهم . وكانت حياة سائب خاثر قبل أن تتصل حبالها به حياة لا تسترعى الأنظار ، فهو مولى ولد فى فىء كسرى وكان ولاؤه لبنى ليث فاشتراه أو اشترى ولاءه عبد الله بن جعفر . وأى الأمرين قد حدث فإنه لا يعنينا إلا بقدر ما نعلم أن اتصال هذا الفنان بهذا السرى الغنى المحمى الجناب كان اتصالا كتب لفنه البداية والحماية والخلود .

ولم يكن سائب محترفا للموسيقى فى بداية أمره إنما كان تاجراً فى القمح غالباً يبيعه بالمدينة ويشتريه . وقد ربح وسعد . ثم كانت مدرسته الغنائية بعد ذلك تبدأ فى بيئة النائحات حيث يكاد الجو يخلو من المغنين . فلم يكن من سبيل أمام أبى جعفر سائب خاثر إلا أن ينهل من أقرب المناهل إليه . وهذا هو الذى صبغ غناءه بذلك اللون الحزين كلما شدا بأغنية فيما بعد . وكان سائب بطبيعته ذا صوت عريض يملأ أجواز الفضاء حوله ، وكان نقياً مشبعاً بالحنان وقوة التأثر بطبيعة نشأته الأولى .

وكانت نفس سائب عالية المنزع تطمح إلى السمو . ولم يكن يلقى بفنه لقمة سائغة ليد تتلقفها أو أذن تتقبلها ، بل كان حريصاً على ألا يغنى إلا لمن هو فى طبقة مولاه عبد الله بن جعفر من خليفة أو أمير .

ومع أن خلافة معاوية كانت لا تزال قريبة العهد بالتشدد فى أمر الترفيه والطرب فقد استمع هذا الخليفة إلى سائب عدة مرات ، وهو فى كل مرة يتملؤه طرباً فيملؤه ذهباً .

قال ابن الكلبي : « إن معاوية بن أبى سفيان أشرف ليلا على منزل يزيد ابنه فسمع صوتاً أعجبه واستخفه السماع فاستمع قائما حتى مل ، ثم دعا بكرسى فجلس عليه . واشتهى الاستزادة فاستمع بقية ليلته . فلما أصبح قصد إليه يزيد فقال له : يابنى من كان فى مجلسك البارحة ؟ قال : أى جليس يا أمير المؤمنين ؟ وقد حاول الإنكار تهيباً من والده . قال : عرفنى فإنه لم يخف علىّ شىء من أمرك . قال : سائب خاثر . قال : فأخثر (١) له من برّك وصلتك فما رأيت بمجالسته بأساً » .

ولقد استمع إليه معاوية مرة أخرى فى المدينة وهو يتغنى :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فطرب وأصغى إليه حتى سكت وهو مستحسن لذلك .

---

(١) أى أكثر .

وكان قبل ذلك قد وفد به عبد الله بن جعفر على معاوية ، فعرض عليه حاجة لسائب . فقال معاوية : من سائب خاثر ؟ قال : رجل من أهل المدينة ليثي يروى الشعر . قال : أوكل من روى الشعر أراد أن نصله ؟ قال : إنه حسّنه . قال : وإن حسّنه . قال : أفأدخله إليك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . فألبسه مخصرتين إزاراً ورداء . فلما دخل قام على الباب ثم رفع صوته يغنى : لمن الديار رسومها قفر . فالتفت معاوية إلى عبد الله بن جعفر فقال : أشهد لقد حسّنه . وقضى حوائجه .

وسائب خاثر مغن وملحن ، يعترف له الجميع بطول الباع وبالنبوغ فى الغناء واللحن . وهنا يحدثنا صاحب الأغانى «أن معبداً أخذ عنه غناء كثيراً فنحل الناس بعضه إليه ، وأهل العلم بالغناء يعرفون ذلك » .

ولا نغلو إذا قلنا إن سائب مغن حزين النفس. ولعل انتقاءه لهذه القصيدة المنسوبة للمخزومى والتى مطلعها :

لمن الديار رسومها قفر   لعبت بها الأرواح والقطر

وخلالها من بعد ساكنها   حجج مضين ثمان أو عشر

والزعفران على ترائبها   شرف به اللبات والنحر

ولقصائد أخرى تنتهى بك إلى هذا اللون من الغناء واللحن المشوب بالحزن والألم، ماينهض دليلا على مقدار تأثره بفن النائحات وما تركه من ألم فى نفسه وفجيعة فى حسه .

على أن بيئة النائحات لم تكن هى التى سيطرت على كل حياة سائب خاثر الفنية ، بل كانت له مدرسة أهم شأناً وأخلد أثراً ، ولعلها هى التى أحلته هذه المكانة من تاريخ الغناء العربى . بل لعلها هى التى جعلته أول معلم مجدد مبتكر فى هذا الغناء .

ورد على المدينة نشيط الفارسى يحمل معه غنـــاء بلاده بمصاحبة العزف على العود . ولما استمع إليه سائب — وكان من أصل فارسى كذلك — انفسح أمامه مجال جديد ، ورأى فى موهبته القدرة على أن يكون هو الوسيط للموسيقى والبريد المترجم الذى يستطيع أن يعقد الأخوة والتعارف بين اللونين من الموسيقى الفارسية فى عراقتها والعربية فى نقاء فطرتها . فأخذ هذا الثوب الجديد من الألحان الفارسية وأجاد تفصيله وحياكته على مصاحبة العود الرنان بعد أن كان الغناء العربى إلى وقته مقصوراً على مصاحبة القضيب الأجش . ومن ثم كان سائب خاثر هو أول من غنى فى المدينة بشعر عربى غناء « متقن » الصنعة ، وأول من أدى ذلك بمصاحبة العود ، وأول من استعار فناً لفن وغناء لغناء ، وأول من قام بالتعليم وأصبح له بالمدينة من تلاميذه من تسنموا قمة المجد فى الغناء العربى ، وفى مقدمتهم أعلامه الأربعة عزة الميلاء وابن سريج وجميلة ومعبد .

وقد استهدف سائب لنهاية محزنة لعله هو الذى انفرد بها دون أعلام الفن الآخرين . فقد كانت الفتنة فى عهد يزيد بن معاوية ، على ما يعلم الناس من شرها المستطير ، وقد أقبل جيش يزيد على المدينة وأريقت الدماء أنهاراً ، وكان طبيعياً لإخماد الثورة أن يظلم أناس وتزهق أرواح ، وشاءت الأقدار أن تطيح سيوف أهل الشام بأجمل مزمار فى أحسن حنجرة ، فى أول معلم مبتكر مجتهد هو سائب خاثر الذى كان الفن فيه هو الخاسر لواسطة عقده فى هذا العهد وفى وقعة الحرة عام ٦٤ ه (٦٨٣ م) .

ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح ، مولى بنى جمح وقيل مولى بنى مخزوم . أسود ولد بمكة . ومغن من فحول المغنين فى صدر الدولة الأموية . سمع غناء الفرس وهم يبنون المسجد الحرام فنقله إلى شعر عربى . ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم ، ثم إلى بلاد فارس فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم العزف بآلات مختلفة ، ثم عاد إلى الحجاز وقد أخذ محاسن النغم . واختار من السلمين اليونانى والفارسى أجمل مافيهما من أصوات وأهمل مااستقبحه من النبرات الموجودة فى غناء هذين الشعبين مما لم يتفق وذوقه العربى ولامع طابع غنائه ، وبذلك أصبح له فى الغناء مذهب خاص وطريقة جديدة اتبعها الناس بعده . وهو الذى علم ابن سريج والغريض ومعبد .

وكان ابن مسجح فطنا ذكياً فأعجب به مولاه منذ حداثة سنه .

ومما يروى عنه أيضاً أن مولاه سمعه يوما يتغنى بشعر ابن الرقاع العاملى :

ألمم على طلل عفا متقادم ... بين اللكيك وبين غيب الناعم

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا ... فيه المشيب لزرت أم القاسم

فدعا به مولاه فقال له : يا بنى أعــد ما سمعته منك على . فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتدأ به . ثم سأله : أنى لك هذا ؟ فأجاب : سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية فثقفتها وقلبتها فى هذا الشعر . قال له : فأنت حر لوجه الله .

ودفع إليه مولاه بعبيد الله بن سريج وقال له : يابنى علمه واجتهد فيه. وكان ابن سريج أحسن الناس صوتا ، فتعلم منه ثم تفوق عليه حتى لم يعرف له نظير .

وقد قال اسحق بن ابراهيم الموصلى وقد عاش فى أول القرن الثالث الهجرى : « إن أول من غنى فى مكة الغناء العربى كما يسمع حتى اليوم هو سعيد بن مسجح ». وهذا مايؤكده أيضاً على بن هشام أحد الموسيقيين المعاصرين لإسحق إذ يقول : « إن سعيداً ابن مسجح هذا هو أول من وضع الغناء العربى فى جزيرة العرب الإسلامية وهو أول من نقل الغناء الفارسى إلى الغناء العربى » .

وحدث دحمان الأشقر قال : كنت عاملا لعبدالملك بن مروان فنمى إليه أن رجلا أسود يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلىّ أن أقبض ماله وأسيّره [1] ، ففعلت . فتوجه ابن مسجح إلى الشام ، فصحبه رجل له جوارٍ مغنيات فى طريقه . فقال له : أين تريد ؟ فأخبره خبره ،وقال أريد

(١) أى يصادر ماله وينفيه .

الشام . قال له : فتكون معى . قال نعم . فصحبه حتى بلغا دمشق فدخلا مسجدها ، فسألا من أخص الناس بأمير المؤمنين ، فقالوا : هؤلاء النفر من قريش وبنو عمه . فوقف ابن مسجح عليهم وسلم ثم قال : يافتيان هل فيكم من يضيف رجلا غريباً من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها برق الأفق . فتثاقلوا به ، إلا فتى منهم قال أنا أضيفك . وقال لأصحابه انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفى . قالوا لا بل تجىء أنت وضيفك . فذهبوا جميعاً إلى بيت القينة . فلما أتوا بالغداء قال لهم سعيد : إنى رجل أسود ولعل فيكم من يقذرنى فأنا أجلس وآكل ناحية ، وقام . فاستحيوا منه وبعثوا إليه بما أكل . فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا به . وأخرجوا جاريتين فجلستا على سرير قد وضع لهما فغنتا إلى العشاء ثم دخلتا . وخرجت جارية حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلست على السرير وجلستا أسفل منها عن يمين السرير وشماله . فقال ابن مسجح متمثلا بهذا البيت :

فقلت أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف السجف أم أنت حالم

فغضبت الجارية وقالت : أيضرب هـذا الأسود لى الأمثال !! فنظروا إليه نظراً منكراً ، ولم يزالوا يسكتونها . ثم غنت صوتاً فقال ابن مسجح : أحسنت والله . فغضب مولاها وقال : أمثل هذا الأسود يقدم على جاريتى !! فقال لى الرجل الذى أنزلنى

عنده : قم فانصرف إلى منزلى فقد ثقلت على القوم . فذهبت أقوم ، فتذمم[1] القوم وقالوا لى : بل أقم وأحسن أدبك . فأقمت . وغنت الجارية فقلت : أخطأت والله يافاجرة وأسأت . ثم اندفعت فغنيت الصوت ، فوثبت الجارية فقالت لمولاها : هذا والله أبو عثمان سعيد بن مسجح . فقلت أى والله أنا هو ، والله لا أقيم عندكم . فوثب القرشيون ، فقال أحدهم هذا يكون عندى ، وقال هذا بل عندى . فقلت والله لا أقيم إلا عند سيدكم[2] . ثم سألوه عما اقترفه فأخبرهم الخبر ، فقال له صاحبه : إنى أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تحدو ؟ قال لا ولكن استعمل حداء . قال : منزلى يواجه دار أمير المؤمنين فإن وافقت منه طيب نفس أرسلت إليك . ومضى إلى عبد الملك فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مسجح . فأخرج هذا رأسه من وراء شرف القصر ثم حدا :

إنك يامعاذ يابن الأفضل إن زلزل الأقدام لم تزلزل
عن دين موسى والكتاب المنزل تقيم أصداع القرون الميّل
للحق حتى ينتحوا للأعدل

فقال عبد الملك للقرشى : من هذا ؟ قال : رجل حجازى قدم علىّ . قال أحضره . فأحضره له ، ثم سأله : هل تغنى غناء الركبان ؟

---

(١) تذمم فلان أى استنكف .

(٢) يعنى الرجل الذى أنزله منهم .

قال نعم . قال غنه ، فتغنى . فقال له : فهل تغنى الغناء المتقن ؟ قال نعم ، قال غنه ، فتغنى . فاهتز الخليفة طرباً ثم قال له : أقسم أن لك فى القوم لاسماً كثيراً ، من أنت ويلك ؟ قال له : أنا المظلوم ، المقبوض ماله ، المسير عن وطنه ، سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى . فتبسم عبدالملك ثم قال له : قد وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم . وأمنه ووصله ، وكتب إلى عامله برد ماله إليه وألا يعرض له بسوء .

وعاش سعيد بن مسجح حتى لقيه معبد وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبدالملك ، وقد مات فى حكم الوليد حوالى عام ٩٦هـ (٧١٥م)

***

هذا هو الرجل الذى حرر فنه ، أوهذا هو الرجل الذى حرر الفن بعبقريته وموهبته . تحمل فى سبيل إشباع هوايته عبء النضال ومصادرة الأموال . واستغل كل شىء صادفه فروى غناء العمال ، واستطاع فى معاشرة تلك الطبقة من بناة الكعبة أن يضيف إلى الموسيقى العربية دماً جديداً ، مازال به حتى نماه وغذاه من كل ما حوت مدنية الروم ومدنية الفرس وما استطاع أن يصل إليه منهما . وحسب ذلك الأسود أن يبيض صحيفة الغناء العربى فى بداية إنشاء المدرسة الحديثة وتكوين الطبقة التى سيكون على رأسها

معبد ، ممن اتسعت لهم بعد ذلك رقعة الحيـــاة وامتد عليهم ظل المدنية والتسامح .

إننا لنرى فى ابن مسجح الشجاع المناضل عن فنه ، الذى حمل المشعل أمام القافلة فلفت إليه الأنظار ، وتبعه كل مطرب ومطربة. وقد رأينا فى قصة حياته المفاجآت التى تدل على كرامة نفس وعزة قلب وإيمان بالفن . وحسبه ذلك قدراً ، وثروة من التاريخ ، ومثلا أعلى للفنان الشجاع ، وللمغنى المضحى ، وللرقيق الذى حرر فنه فحرره فنه .

عـزة الميلاء

كانت خلافة عثمان رضى الله عنه بداية عصر فنى جديد اتسع فيه الأفق للحياة المتطلعة المستشرفة إلى نقل المدنيات وألوان الترف من الأمم المتاخمة على أثر ما نشأ عن الفتوح والانتصارات من تمازج وتزاوج ، واندماج وقعت فيه أنظار العرب على وجوه لم يألفوها ومدن لم يعرفوها وفنون رفيعة اقتبسوها وجنوا أطايبها ، وأضفوا عليها من شخصيتهم العربية ما أسبغ عليها الكيان المستقل ذا الطابع الخاص المميز .

هكذا كانت خلافة عثمان فقد بدأ الناس يتجددون فى كل شىء . وهاهى المدينة تبتنى فيها الدور بل القصور الشاهقة . وهاهو العقيق وقباء وجوانب أخذ تحفل بالعمائر والمبانى الجديدة ، وتغرس فيها البساتين النضرة ، وقد امتلأت بالألوف من خدم وحشم وجوار وعبيد ... وإن تلك المناظر كلها لجديرة أن تفقد كل طلاء من الجمال والرونق مالم يتح لها فن يصور محاسنها ويترجم عن بهجتها وترفها . فما البساتين التى تخلو من طيورها الغردة إلا قيعان وقفار ، ولو كانت لبناتها من الفضة والنضار . فكان لابد إذن

للطبيعة أن تستكمل زينتها وأن تأتى للمدينة برائقة المغنية وأن تعد لها تلميذة بارعة وراوية فتية ومؤدية قادرة ومغنية حاكية بل وفنانة مبتكرة ، وتلك هى عزة الميلاء .

ولقد أتيح لأهل المدينة ، بل ولأهل الحجاز جميعاً أن يستقبلوا بطلتهم الجديدة ، فما كان أحوجهم إليها فى أتون تلك الفتن المترامية التى كانت تموج بها تيارات سياسية متعارضة فى المدينة والبصرة والكوفة ومكة واليمن ومصر ، مما بلبل الحياة العربية وهى فى طليعة مجدها ، فكان هذا الغناء ترويحاً لتلك النفوس المتعبة المناضلة ، بل كان تحقيقاً لذلك الانسجام لتستكمل الدولة الجديدة حاجتها من الفن وسحر الغناء .

وإذا قيل عن العصر الأموى شىء عن الجمال والسحر فإن العصور لاتولد طفرة ولا تخلق دفعة ، وإنما تنشأ إنشاء وتتطور غرساً ونماء . وقد كانت بداية هذه الحضارة فى مدن الحجاز ، لا فى دمشق فى عهد الأمويين ، ولا فى بغداد فى خلافة العباسيين ، ولا فى الأندلس وغير الأندلس ، وإنما سطع هلالها الأول من أولئك الذين بدأوا يحملون راية الفن فى عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

وأبى القدر إلا أن يكون على الجنس اللطيف حمل هذه الرسالة وأداؤها فهذه رائقة تتلوها عزة ويعقبهما جميلة وغيرها ، إلى عدد

كبير من مغنيات ربما اكتفى التاريخ بحفظ أسمائهن وإلى أن انتقل الشأن إلى الرجال فى قصور الخلفاء والأمراء والندوات العامة لم يزل هذا السرب التاريخى من المغنيات محتفظاً بالقيمة الأدبية لربات الخدور وجوارى القصور. وإن امتاز الرجال بعد ذلك بالصناعة والتأليف والتدوين ، ووضع القواعد والأصول فقد كان لتلك المغنيات الغردات فضل مشهود فى الأداء الحلو والنغم الجذاب الذى يستهوى الأفئدة.

كانت عزة الميلاء مولاة لبعض بيوت الأنصار. وأطلق عليها لقب الميلاء لما كان يبدو فى مشيتها من ميل واختيال. وقد زعم البعض أنها لقبت بذلك بسبب لبسها الملاء. والصواب أن الميل من الصفات المناسبة لأمثال عزة فقد عرف عنها أنها كانت من أجمل نساء عصرها وجهاً وأحسنهن قواماً.

وحدثوا عنها أنها كانت تعزف على جميع الآلات المعروفة فى عهدها من وترية ونفخية ، وحذقت العزف بالعود. وكانت مطبوعة على الغناء الجميل ، تغنى الغناء القديم لمن سلفها من القيان أمثال سيرين وزرنب وخولة والرباب. وقد أتيح لها أن تأخذ الفن الفارسى عن نشيط وسائب خاثر فى المدينة. وقد أنشأت على ألحانهما الفارسية صوغاً عربياً استولى على قلوب أهل المدينة وفتن ألباب رجالها وعواطف نسائها.

ولعلنا لم نكن نستطيع أن نقدم صورة صادقة لعزة حين تغنى وتعزف أبلغ من تلك الصورة العجيبة التى رسمتها كلمات الزبير حين يتحدث عنها فيقول : « إنه وجد مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عزة الميلاء قالوا لله درها ما أحسن غناءها ، وأمد صوتها ، وأندى حلقها ، وأحسن ضربها بالمزاهر والمعازف وسائر الملاهى ، وأجمل وجهها ، وأظرف لسانها ، وأقرب مجلسها ، وأكرم خلقها ، وأسخى نفسها ، وأحسن مساعدتها » .

كانت عزة الميلاء مدرسة ذات طابع خاص ، يؤمها الفنانون ويقصد إليها المغنون ، ويقطعون بوادى شاسعة وأودية سحيقة ، ليجدوا فى فنها متعة هوايتهم ، ويتخرجوا على يدها وفى مدرستها أساتذة جديرين بأن يكونوا أعلام الفن وأبواقه المطربة فى أزهى عصر للدولة الأموية . وهؤلاء الأساتذة قد سجلوا فى اعترافهم بفضلها شهادة التاريخ لمدرستها .

فهذا ابن سريج ، أحد أركان الغناء وأعلامه فى العصر الأموى ، كان فى حداثة سنه يتجشم الأسفار من مكة إلى المدينة ليستمع إلى غناء عزة ، وينقل من فنها وموسيقاها . وما سئل عن عزة إلا كان جوابه تغريداً بمزاياها وإشادة بمكانتها . فإن قيل له من أحسن الناس غناء قال : « مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء » .

وهذا ابن محرز فى مثل مكانة ابن سريج وفى مقامه الفنى ، كان يقضى ثلاثة أشهر بمكة حيث بيته وإقامته ، ثم يقضى مثلها بالمدينة ليتلقى الغناء من عزة . وكأنما قسم حياته قسمين أحدهما لفنه وهوايته والآخر لمعاشه وأسرته . وناهيك بهذا فضلا ودليلا على ما كان لتلك الجارية البارعة من غزارة ومقدرة استحقا من ابن محرز أن يهبهما شطر حياته .

ولم تقتصر الاعترافات والوثائق على قيمتها الفنية بل امتدت إلى القيمة الخلقية ، وهى فى نظرنا قيمة الفنان الحقيقية ، وكل فنان لا يستمد وجوده من خلقه فهو جدير بأن يفقد كيانه ومنزلته . وكانت عزة كما يروى التاريخ خليقة بأن تكون مغنية تنشأ فى عصر الراشدين من الخلفاء ، وأن تتحلى فى نفسها وفى فنها وفى خلقها بما هو لائق بقداسة هذا العصر ومنزلته الدينية الرفيعة .

وكان طويس المغنى كثير التردد على منزل عزة دائم الاتصال بها خبيراً بصفاتها وسجاياها ، فلنستمع إليه يصف عزة فيقول : « هى سيدة من غنى من النساء ، مع جمال بارع ، وخلق فاضل ، وإسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهى من أهله ، وتنهى عن السوء وهى مجانبة له ، فناهيك ما كان أنبلها وأنبل مجلسها ، وكانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رءوس أهل مجلسها ، من تكلم أو تحرك نقر رأسه » .

وقد أتيح لمعبد أن يشهدها فيشهد لها ، فقد استمع إلى عزة يوماً عند جميلة ، وقد تقدمت بها السن ، وهى تغنى على معزفة :

علّلانى وعللا صاحبيّا واسقيانى من المروّق ريّا

فقال : « ماسمع السامعون بشىء أحسن من ذلك وإذا كان هذا غناؤها وقد سنّت فكيف بها وهى شابة !! » .

أما تعبير الفطرة الفنية فيتجلى فى شاعر القصص العاطفى فى ذلك العصر عمر بن أبى ربيعة ، فقد سمعها يوماً تغنى شيئاً من شعره فلم يتمالك صوابه وشق ثيابه ، وصاح صيحة سلبته رشده ووعيه ، فلما أفاق قال القوم : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . فقال : إنى سمعت والله مالم أملك معه لا نفسى ولا عقلى .

وكذلك كان الإقرار بفضلها يتنوع التعبير عنه والإشادة به . وهذا حسان بن ثابت الأنصارى ، الشاعر المخضرم ، الذى لبث فى الجاهلية والإسلام عمراً طويلا ، وحلب الدهر أشطره ، ونادم ملوكاً وأمراء فى الجاهلية ، وحضر أحداثاً ومواقف فى الإسلام ، ومدح وأثنى ، وشبب وهجا فى العصرين . . هذا حسان يستمع إلى عزة وهى ما تزال فتية فى كنف أستاذتها رائقة ، فما يكاد يسمعهما حتى يسكب الدمع الغزير ، ويذكر أيامه الخوالى فى قصور بنى غسان . فقد روى أن زيداً بن ثابت الأنصارى أقام وليمة اجتمع له فيها المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة ، وحضر

حسان بن ثابت ، وقد كف بصره يومئذ ، حتى إذا فرغ الطعام أتوا بجاريتين إحداهما رائقة والأخرى عزة ، فجلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً ، وغنتا بقول حسان :

أنظر خليليّ بباب جلق هل   تبصر دون البلقاء من أحد

فسُمع حسان يقول : قد أرانى بهما سميعاً بصيراً ، وعيناه تدمعان فإذا سكتتا سكت عنه البكاء وإذا غنتا بكى . ولما عاد حسان إلى داره استلقى على فراشه وقال لابنه عبد الرحمن : لقد أذكرتنى رائقة وصاحبتها أمراً ماسمعته أذناى ، يعيد ليالى جاهليتنا مع جبلة ابن الأيهم (أمير غسان) . ثم جلس وتبسم وقال : « لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الذهب والفضة ، وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل هو وأصحابه بها ، وفى الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه ، ولا والله ماجلست معه يوماً قط إلا خلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل

من غير مسألة مع حسن وجه وحسن حديث ، مارأيت منه خنىً قط ولا عربدة » .

وقد ذاع شأن عزة وطبق صيتها الآفاق ، وأقبل الناس عليها من كل مكان حتى أفزع ذلك بعض المعاصرين من أنصار الصرامة والمتحفظين ،فتوجهوا بالشكوى إلى الأمير سعيد متهمين عزة بأنها فتنت أهل المدينة وأفسدت المؤمنين بفن مغر قد نهى عنه الإسلام . فأوفد الأمير إليها رسولا يأمرها بترك الغناء متذرعاً بأنها فتنت رجال المدينة ونساءها . وكان قد قصد إلى دارها وقتذاك عبد الله ابن جعفر ، من أشرف الناس مولداً ومكانة وأوسعهم ثراء وجاها . فقال للرسول : إرجع إلى صاحبك فقل له عنى أقسم عليك إلا ناديت فى المدينة أيما رجل فسد أو امرأة فتنت بسبب عزة إلا كشف نفسه بذلك لنعرفه ويظهر لنا ولك أمره . فنادى الرسول بذلك فما أظهر أحد نفسه . وقال ابن جعفر لعزة ، وابن أبي عتيق معه، لايهولنك ماسمعت وهاتى فغنينا . فغنته بشعر القطامى:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل

وهكذا استمرت عزة فى طريقها الفنى مطمئنة على تشييد مجدها ومجد الغناء العربى معها ، حتى قضت نحبها حوالى عام ٨٦ هـ (٧٠٥م)

جميلة

فنانة العروبة ومغنية الحجاز ورافعة راية الطرب فى العصر الأموى الزاهر ... فما كان أحوج هذا العصر إلى مثل جميلة . فقد اضطربت فيه الأحداث ، واشتبكت المذاهب الإسلامية فى صراع عنيف ، وانقسم الناس إلى معسكرات ماتكاد الهدنة تقوم بينها حتى تبدأ حرب شعواء جديدة بين شيعة أهل البيت وأنصار الخلافة الأموية من جهة ، وبين العدنانية واليمنية من جهة أخرى ، ثم بين الشعوبية والعربية من جهة ثالثة . فحين يحتدم الخلاف المذهبى والقبلى[1] يمد الفن ظلاله الفيحاء ، وينشر أغصانه الوارفة ، ويبعث فى الأجواء ألحانه السماوية ، فإذا بتلك النفوس المكدودة تفر من ذلك الأتون المستعر لترى فى الفن عزاءها وسلوتها . فما كاد شباب الخلافة الأموية يزدهر حتى كانت موسيقى « جميلة » نشيده العذب ، وترجمانه الساحر البديع .

وهى فى الأصل جارية ، امتازت بالبراعة والذكاء والقدرة على المحاكاة والتقليد وصحة الأداء ، ثم الابتكار بعد ذلك . وقد انتقل ولاؤها من بنى سليم إلى بنى بهز .

---

(١) نسبة إلى قبيلة

عاشت بالمدينة حتى أعتقت ، ثم تزوجت من أحد موالى الحرث بن الخزرج وأقامت وإياه بالسنح بين قصر مشيد وحاشية وخدم كثيرين . ثم انتقل إليها ولاء زوجها بالشهرة فلقبت بمولاة الأنصار .

وتعد جميلة علماً من أعلام الغناء العربى على الإطلاق . بل هى مدرسة الموسيقى وأستاذتها الأولى فى ذلك العصر الإسلامى المتقدم . وقد تخرج فى مدرستها تلك النخبة المنتقاة التى حملت راية الفن العربى وقامت برسالته منذ فجر الخلافة الأموية إلى أن تم نضجه فى الخلافة العباسية وقصور بغداد . وماظنك بأستاذة يكون تلاميذها نجوم الغناء العربى فى أزهى عصرين من عصور الإسلام ، من مثل معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة القس وعقيلة العقيقية وخليدة وربيحة .

أما مقامها الفنى فحسبنا فيه شهادة معاصريها ، وإقرارهم بفضلها. قال الحسين بن يحيى : « كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء » .

أما شهادة معبد لها فهى وثيقة إمام الغناء العربى وفارسه المجلى فى ذلك العصر ، والاسم الذى لا يسبق فى ميدانه ولا يلحق فى مكانته ومكانه . قال عنها : « أصل الغناء جميلة وفروعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين » .

أما أن تكون جميلة هى أصل الغناء العربى فأمر مقطوع به لأن قائله معبد ، ولأنه لم يعرف عن أحد من مغنى العرب أو قيانهم أنه سبقها إلى مثل مكانتها الغنائية . ولكن لابد للأصل من أصل . ولا مندوحة للتجديد عن عنصر جديد . فليس من الميسور الانتقال من حداء البوادى إلى فن الحضارة بعقده وتراكيبه دون تدرج وتطور ، فأين إذن يعثر الباحث على المصادر الأولى لفن جميلة ؟

لعلها هى قد تولت الإجابة عن هذا السؤال حين سئلت : أنى لك هذا الغناء ؟ وهو سؤال يحمل كل معانى التعجب والاستفهام والاستغراب . وقد أجابت بقولها :

« والله ما هو إلهام ولا تعليم ، ولكن أبا جعفر سائب خاثر كان لنا جاراً وكنت أسمعه يغنى ويضرب بالعود فلا أفهمه . فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائى فجاء أجود من تأليف ذلك الغناء . فعلمت وألقيت فسمعنى مولياتى وأنا أغنى سراً ففهمننى ، ودخلن علىّ وقلن : قد علمنا فما تكتمينا . فأقسمن علىّ فرفعت صوتى وغنيتهن بشعر زهير بن أبى سلمى :

وما ذكرتك إلا هجت لى طرباً إن المحب ببعض الأمر معذور
ليس المحب كمن إن شط غيّره هجر الحبيب وفى الهجران تغيير

فحينئذ ظهر أمرى وشاع ذكرى . فقصدنى الناس ، وجلست للتعليم . فكان الجوارى يتكاوسننى ، فربما انصرف أكثرهن ولم

يأخذن شيئاً سوى ما سمعنى أطارح لغيرهن . ولقد كسبت لموالىّ ما لم يخطر لهن ببال » .

وأنت تستشف من هذه القصة الصغيرة تاريخاً كاملا إذا استطعت وإذا شئت . فها هى ذى فتاة قد أرسلت نفسها إرسالا إلى موسيقى أجنبية عنها ، وإن كانت قريبة منها . ثم تراها وقد حذقت ما سمعت وحافظت على ما حفظت . ثم إذا أتمت عملية الهضم الفنى عملها ، بدأ دور الابتكار والإخراج والأستاذية . وهى لعمرى دراسة عجيبة فى بدايتها ، فلم تقم على مجرد التلقين والحفظ والمراجعة والمطارحة والتحصيل والتنقل فى درجات فنية ، ولكنها إصغاء ووحى وإخلاص واستمرار . كل ذلك اجتمع لجميلة مع ما توفر لها من قوة الاستعداد فكوّن منها تلك الشخصية العجيبة .

لو لم تكن شخصية « جميلة » فى أجل مكان من الامتياز والتفوق النادر، ما أتيح لها أن تنقل فناً أجنبياً ، ثم تعربه ، وتطبعه بطابع بيئتها ، وتغنى به غناء عربياً وأبياتاً جاهلية فى لغتها ، عصرية فى فنها . ونرى جميلة بعد أن تقوم بهذه العمليات كلها من دراسة ، واستيعاب ، وخلق وابتكار ، تنشىء المدرسة وتجلس للتعليم ، وتحترف الفن نفسه .

وهنا يجب الإلماع إلى أن هذه القصة القصيرة لا تعنى قصر المدة التى قضتها جميلة فى التعليم ، بل هى تشف فى ثناياها عن أمد

طويل تابعت فيه أباجعفر سائب خاثر ، وقضّت شهراً بعد شهر ، وربما سنة بعد سنة . ويتجلى هذا بوضوح إذا تذكرنا أنه الغناء الفارسى الذى لم تفهمه جميلة فى بداية الأمر . فلا بد من زمن ، وزمن غير قصير ، يكفى لتنطبع تلك الصور الفنية من أصلها الأعجمى ، ثم تستخلصها إلى العربية الأصيلة القوية . ولا شك أنها كانت فنانة موهوبة ذات مقدرة وعبقرية أتاحت لها أن تتربع على عرش الموسيقى وهى فى المدينة بمعزل عن حروب الجدل أو حروب الدماء فى التخوم والعواصم والميادين الأخرى .

وهذا لا يناقض ما هو معروف فى الآثار العربية والروايات التاريخية من أن سائب خاثر هو أول من حاكى الغناء الفارسى بغناء عربى فى المدينة ، وأنه تأثر بنشيط الفارسى المغنى . ولعل ما ظنته جميلة غناء فارسياً كان عربياً استعجمت ألفاظه وحروفه خلف ستار من الألحان الفارسية المحكية إلى العربية ، وهى عملية فنية مألوفة فى عصور الانتقال والتجاوب الفنى بين المدنيات والتفاعل بين الحضارات .

كانت جميلة قبلة الغناء فى المدينة ، يؤم دارها المغنون والشعراء من مكة وسائر أقاليم الحجاز . والمراجع العربية حافلة بوصف لياليها الساهرة ، وأغانيها الساحرة ، واستقبالاتها الفخمة ، وضيوفها وزوارها من أعلام الإمارة والثراء والفن ، يضربون أكباد الإبل ،

ويقطعون الأغوار والأنجاد على ظهور الصافنات الجياد، ليستمعوا إلى غناء لم يسمعوه، ويسعدوا بفن لم يألفوه.

نذكر من تلك الليالى ليلة أقامتها جميلة لتكريم عبدالله بن جعفر غنت فيها مع خمسين قينة، وقد وضعن على رءوسهن أكاليل الأزهار، ولبسن أفخر الثياب. فقالت لهن جميلة: «إضربن بضرب واحد وانشدن معى هذا الشعر وهذا اللحن بصوت واحد». فلما سمع عبد الله هذا الفيض الغنائى يتدفق سحراً بليغاً من هذا العدد الوفير من أصوات المعازف والقيان حول جميلة وهى تشدو بالمعجز المطرب قال: «ماظننت أن يبلغ الفن هذا الحد البعيد، وحقاً إن ذلك لما تفتتن به القلوب وتضطرب له الحواس».

وكذلك كانت دار جميلة الندوة الجامعة يقصد إليها أفذاذ المغنين، كما يقصد الظامئون إلى المنهل العذب. وقد ورد إلى المدينة ابن سريج ومعبد ومالك وسواهم من مشاهير الموسيقين ليتقنوا فن الغناء فى مدرسة جميلة، فكانت لهم الشهرة الذائعة والأسماء اللامعة طوال العصر الأموى.

وكانت فى كثير من الأحيان تغنى معهم، وكانت جميلة تغنى اللحن فيكررونه جميعاً بعدها مصاحبين الغناء بصوت العيدان. ويكفى فى وصف تلك الحفلات الشائقة قول معبد: «ما مررت بألذ من تلك الأوقات حتى ولا عند خليفة من الخلفاء».

ويبدو لنا أن جميلة كانت تحتوى نفسها على خلق فنان ، وتضم بين ضلوعها قلب موسيقية رحيمة ، لا تضن بالغيث المدرار من فنها على الظامئين إليه والمتلهفين عليه . فها هو ابن أبى عتيق وعمر ابن أبى ربيعة والأحوص بن محمد الأنصارى يقصدون إلى دارها فتطالعهم بالحفاوة والترحاب ، وما هو إلا أن قال عمر لها « إنى قصدتك من مكة للسلام عليك » حتى قالت « أهل الفضل أنت » . قال « وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك اليوم وتخلى لنا مجلسك » قالت « أفعل ». ودعت بالعود وغنت حتى سمع للبيت زلزلة وللدار همهمة واستخف الغناء أحلام القوم فصفقوا بأيديهم وضربوا بأرجلهم ، وأمالت النشوة رءوسهم وهم يقولون « نحن فداؤك من السوء ووقاؤك من المكروه ، ما أحسن ما غنيت وأجمل ما قلت» . ثم دعت بأنواع الأشربة فشربوا ما طاب لهم ، ثم غنت أبياتاً من الشعر لعمر فأخرجه الغناء من وعيه وصاح ويلاه ، ثم عمد إلى جيب قميصه فشقه إلى أسفله، فما لبث أن صار القميص قباء . وقال له القوم « قد أصابنا كالذى أصابك وأغمى علينا ، غير أننا فارقناك فى تخريق الثياب » . فدعت جميلة بثياب فخلعتها على عمر فقبلها ولبسها . ولما انصرف القوم إلى منازلهم وجه عمر إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب فقبلتها جميلة . وعاد عمر إلى مكة مغتبطاً برحلته .

وإن المرء ليأخذه العجب حين يقرأ القصة التالية عن جميلة فى ذهابها إلى الحج وعودتها منه ، وكيف كان تقدير أعلام المدينة ومكة لها فى المضى وفى الإياب ، وكيف صحبها الحور الحسان والفنانات البارعات من الجوارى والقيان ، وكيف أحاطت بها مواكب ووفدت إليهـــا أفواج . . . يجرى ذلك كله فى صدر الإسلام وفى فجر الدعوة، والأمة تجيش الجيوش وتغزو الأمصار بين الأندلس غرباً والهند شرقاً لبناء الامبراطورية الإسلامية العظمى . حقاً إن الحيوية إذا سرى دبيبها فى الأمة امتد فيها إلى كل الشرايين حتى تشمل العلم والفن والحكم والسياسة ، دون أن تطغى ناحية على الأخرى ، بل يكون كل عنصر ممداً للعنصر الآخر ومقوياً له .

فها نحن نرى جميلة الفنانة المغنية فى طريقها إلى حرم الله ، وهو دليل ساطع على ما كانت تتحلى به مغنية ذلك العصر من التقوى والإيمان وتعظيم شعائر الله . . .

قصدت جميلة إلى الحج فصحبها من شيوخ المغنين هيت وطويس والدلال ونومة الضحى وغيرهم ، ومن شباب المغنين معبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبوره وغيرهم ، ومن النساء المغنيات عزة الميلاء وحبابة وعقيلة وسلامة وخليدة والشماسية وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وغيرهن ، وكثير من الأشراف والنساء . وحج

معها من القيان كثيرات تعظيما لقدرها . ولحق بها زهاء خمسين قينة وجّه بهن إليها مواليهن فأعطوهن النفقات وحملوهن على الإبل فى الهوادج والقباب وغير ذلك ، فأبت جميلة أن تنفق واحدة منهن درهما حتى رجعن .

وحج معها من الرجال المغنين غير من سمينا زهاء ثلاثين رجلا ، وتخايروا فى اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظرف .

وقيل فيما قال أهل المدينة إنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً طيباً وحسناً وملاحة .

ولما قاربوا مكة تلقاهم من أعلام المغنين فيها سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز وعدد عظيم من الشعراء كعمر ابن أبي ربيعة والحرث بن خالد وغيرهم ، وقيان كثيرة . فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز كله مغن حاذق ولا مغنية إلا همّ معها .

وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم . فلما قضت حجها سألها المكيون أن تجعل لهم مجلساً فقالت : « للغناء أم للحديث ؟ » . قالوا « لهما جميعاً » .

وروى أنها أبت أن تجلس للغناء فى مكة ، حتى قال عمر بن أبي ربيعة : أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع غنائها إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج . فعزم القوم الذين سميناهم كلهم على الخروج . فخرجت جميلة فى جمع أكثر من جمعها بالمدينة .

فلما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء ، وخرج الجميع من بيوتهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها . فلما دخلت منزلها ، تفرق الجمع إلى منازلهم ، ونزل أهل مكة على أقاربهم وإخوانهم ، وجاءها الناس جميعاً مسلمين . فلما مضى لمقدمها عشرة أيام جلست للغناء . فلما كان اليوم الثالث عشر اجتمع الناس فضربت ستارة ، وأجلست الجوارى كلهن ، فضربن وضربت جميلة فزلزلت الدار .

ولعلنا أدركنا فى مجرى هذه القصة لوناً آخر ، وهو الجانب الثقافى لجميلة حين تسأل أهل مكة عن المجلس الذى يطلبونه منها أللغناء هو أم للحديث . ولعل الحديث هنا أعم من الحديث الدينى الشريف ، فقد يكون حديث الأدب فى منظومه ومنثوره ، وحديث الرواية والأنساب وأيام العرب وحروبهم . وكذلك كان الفنانون فى عصر القوة والمجد لا يقف بهم الأمر على ما يقرءون من منظومات يلقنونها فى مواطن كسب العيش ، وإنما كان الفن للفن وإلى جانبه علم واطلاع بماضى الحياة وحاضرها .

وكان من أخبار جميلة أن استهدفت لحالة نفسية مما يعرض كثيراً للشاعر فيقسم أنه سيترك الشعر ، أو للمغنى فيعتزم ترك الغناء . ولكن هذا الأثر لم يبق طويلا ، بل مضت جميلة — على ما يبدو من الرواية نفسها — مواصلة الغناء ، معتزة بفنها الذى خلد اسمها وتاريخها . قال المؤرخون :

قعدت جميلة يوماً على كرسى لها وقالت لآذنتها لا تحجبى عنا أحداً اليوم واقعدى بالباب فكل من يمر به فاعرضى عليه مجلسى، ففعلت حتى غصت الدار بالناس. فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الناس الماء فشرب من أراد، فقالت أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلى إلا شرب. ثم قالت لهم إنى رأيت فى منامى شيئاً أفزعنى وأرعبنى ولست أعرف سبب ذلك، وقد خفت أن يكون قرب أجلى، وليس ينفعنى إلا صالح عملى، وقد رأيت أن أترك الغناء مخافة أن يلحقنى منه شىء عند ربى. فقال قوم منهم وفقك الله، وثبت عزمك. وقال آخرون بل لا حرج عليك فى الغناء. وكان مما قاله شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة:

«يا معشر الحجاز إن الغناء يحيى القلب، ويزيد فى العقل، ويسر النفس، ويفسح فى الرأى، ويتيسر به العسير، وتفتح به الجيوش، ويذلل به الجبار، ويبرىء المريض ومن مات قلبه وعقله وبصره. من تمسك به كان عالماً ومن فارقه كان جاهلا، لأنه لا منزلة أرفع ولا شىء أحسن منه، فكيف يستصوب تركه». وقال لجميلة أوعيت ما قلت ووقع من نفسك ما ذكرت؟ قالت أجل وأنا أستغفر الله. قال لها فاختمى مجلسنا وفرقى جماعتنا بصوت فقط. فغنت حتى قال ذلك الشيخ: الحمد لله الذى لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته، وسلام عليك ورحمة الله ياجميلة.

وتوفيت حوالى عام ١٠١ هـ (٧٢٠ م).

ابن محرز

هو أبو الخطاب مسلم بن محرز من موالى عبد الدار من قصى .
وهو فارسى الأصل ، كان أبوه من القائمين على سدانة الكعبة .

وقلما عرفت الموسيقى العربية فى مثل هـــذا العصر رجلا كابن محرز تنقل بين حاضرتى الحجاز يتعلم موسيقى عزة الميلاء بالمدينة أشهراً ثم يعود إلى وطنه مكة فيقيم بها أشهراً يستمع من أستاذه ابن مسجح ومن غير واحد من أفذاذ المغنين بأم القرى . فإذا لم يجد بالحاضرتين ماينقع غلته ضرب فى الآفاق يلتمس الجديد من الفن الفارسى ببلاد فارس أوالألحان الرومية بالشام التى بقيت آثارها بعد جلاء جيوش الروم على أثر الفتح الإسلامى .

على أنه وهو يداول بين تلك الفنون فارسية ورومية لم يكن يريد أن يخلعها على شعر العرب ، وإنما أراد التخير والانتخاب والانتفاع بكل ماهو جديد طريف .. وهكذا يصنع الفنان البارع حين يلتقط المآثر الفنية والثمار المختلفة فيعتصرها ويهضمها ويخرج من عصارتها فنه الخالص ، فيه شخصيته الفردية وطابعه القومى ...

وهكذا صنع ابن محرز كما صنع أستاذه ابن مسجح ، حيث نسج على منواله ، وسار على دربه ، وجاء بما أدهش الناس من آثار رحلاته داخل الجزيرة العربية وخارجها من بلاد فارس والعراق والشام حين استخلص من تلك الموسيقات خير ما فيها ، واستبعد منها ما ينبو عنه سمع العربى وطابع موسيقاه .

ولبراعته فى الموسيقى أطلق عليه « صناج العرب » كما لقب الأعشى من قبل فى شعره بصناجة العرب .

وكان ابن محرز لا يكتفى فيما يبدعه من الألحان بعملية التصفية والانتقاء ، بل كان فوق ذلك ملحنا مبدعا مخترعا . وكان مما جدده فى الألحان نوع الغناء المسمى «الرمل» ولم يكن أحد قد سبقه إليه . وقد كتب لهذا اللون الفنى أن يعيش فى الحياة العربية ردحا طويلا من الزمن بعد صاحبه وأن يبلغ مكانة رفيعة من الاستحسان حتى نقله مغن فارسى فى أيام الرشيد استحسن لحناً لابن محرز فنقله إلى الفارسية وغنى فيه .

وإلى جانب ابتكاره الرمل فقد افتن فى اللحن حيث لم يكتف بلحن واحد يردد مع كل بيت ، بل كان أول من غنى بزوج من الشعر واقتدى به المغنون بعد ذلك . وقد قال : « الأفراد لا تتم بها الألحان » .

وقد تتلمذ لابن مسجح كما أسلفنا ، وكما أخبر هو عن نفسه .
ولأمر ما لم يكن يخالط الناس ، ولم يشهد مجالس الخلفاء فقد كان مرض البرص وهو العلة التي أصيب بها جديراً بألا يدع له صاحباً إلا جارية لأحد أصدقائه كانت تألفه وتحفظ عنه وهى التى روت غناءه وأصبحت حنجرتها سجلا لصوته وألحانه . فكلما عاد إلى مكة قدم ما بيده من المال إلى صاحبه ، سيد تلك الجارية ، فإذا نضب المال جهزه وقال له إذا شئت فارحل . وكذلك يمضى ابن محرز ويعود .. وما زال بين جيئة وذهاب حتى ذهب من هذه الدنيا فى عهد الوليد بن عبد الملك .

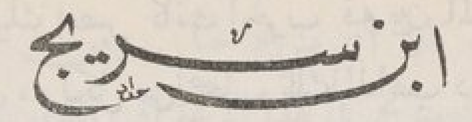
على أن ابن محرز وإن لم يغش مجالس الخلفاء ولم يحظ بمنادمة الأمراء فقد اعترف له بالفضل كبار أعلام الغناء . وكان من المقدمين عند إسحق الموصلى . كما أقر له بالسبق الفضل بن يحي ابن خالد البرمكى .

وإن القصة التالية لدليل على مكانته الرفيعة التى كان يحسده عليها معاصروه من المغنين :

قالوا شخص ابن محرز مرة يريد العراق فلقيه حنين الحيرى وهو حينئذ أكبر أعلام الغناء بها فقال له غنى صوتاً من غنائك فغناه بيتين من شعر عمر بن أبي ربيعة . فقال له حنين: كم أملت من العراق ؟ قال الف دينار . فقال له : هذه خمسمائة دينار ومعها نفقة

السفر فى الحضور والعودة فخذها وانصرف واحلف ألا تعود ..
ولما شاع ما فعل حنين لامه أصحابه عليه فقال : «والله لو دخل ابن محرز العراق لما كان لى معه فيه خبز آكله ولسقطت إلى آخر الدهر» .

وكم من حنين اعترضه ، لا فى طريق العراق، بل فى طريق الشهرة . ولكنه رغم ذلك كله ، ورغم العلة المنفرة التى حجبته عن الناس ، فقد اجتاز فنه الشام والعراق ، وطبقت شهرته الممالك والآفاق .



هو عبيد بن سريج مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد مناف .. هكذا التقت الروايات وتآزرت على هـــذا الولاء الذى كان من العوامل فى رفع شأنه حيث ينتمى إلى تلك الشجرة الظليلة من قريش ، وإن كان البعض يرده إلى غير هذا الولاء من البيوتات والقبائل .

كان ابن سريج قد جمعت له الحياة بين ظلامها ونورها ، وبين جمالها وقبحها . فهى حين أبدعت فى حنجرته فخلقت منها مزماراً من مزامير الفن الخالد أبت إلا أن تحرمه من كل ما هو جميل فى مظهره وصورته ، فأخرجته دميما ، فى عينه حول ، حتى قد رضى لنفسه أن يلقب بوجه الباب . ولم يكن له بد حين يغنى من أن يستتر بقناع يوارى فيه دمامته حتى لايشوه قبح منظره جمال غنائه .

وكان مولده فى أخريات خلافة عمر بن الخطاب . وطال عمره حتى بلغ الخامسة والثمانين ، حيث كانت وفاته فى خلافة هشام ابن عبد الملك ، على أشهر الروايات وأقربها إلى الصحيح المعقول .

وكان ابن سريج يجمع إلى الدمامة فى خلقته ملاحة فى خلقه

ورقة في نفسه وعذوبة في منطقه . فقد كان يتأتى للسامعين ويزدلف إليهم من حيث يحبون . فكان لايغنى أحداً إلا بالشعر الذى يلائم مذهبه . وناهيك بعصر كانت الحرب فيه بين المذاهب السياسية دائمة الاشتعال ، ولكل من أصحاب تلك المذاهب دعاته وشعراؤه .

ولو لم يكن ابن سريج مطلعاً بهذه الحياة الأدبية الخصبة ، عارفاً بمختلف النزعات فيها ، ما كان له من سبيل إلى إرضاء الجميع في وقت لم يرض فيه واحد عن الآخر ، حتى كان جديراً بأن يصفه ابراهيم الموصلى حيث سئل عنه بقوله : « إنه خلق من كل قلب فهو يغنى لكل إنسان ما يشتهى » .

كان ابن سريج في بداية عهده بالفن يوقع على قضيب بيده ، ثم اتخذ له عوداً على غرار عيدان الفرس حيث سلك هو وأستاذه ابن مسجح هذه الطريقة محاكاة للعازفين من الأعاجم ممن قدموا مكة لبناء الكعبة ، فكانا أول من ابتدع نوع الغناء المتقن في مكة . وذاع شأن ابن سريج في الغناء بهذه الطريقة الجديدة حتى أصبح أحد أعلام أربعة اشتهروا بالغناء بالحجاز في هذا العصر الأموى . ويقول في ذلك إسحق الموصلى : « الغناء لأربعة، مكيان ومدنيان فالمكيان ابن سريج وابن محرز والمدنيان معبد ومالك » .

وقد اعترف له بالتقدم والسبق غير واحد من أنداده ونظرائه . وحسبه أن معبداً كان إذا أحس من نفسه الإجادة قال أنا اليوم

سريجى . ولما علم وهو فى المدينة ، بوفاة ابن سريج قال : الآن أصبحت أحسن الناس غناء . فقيل له : أولم تكن كذلك ؟ قال : لا حيث كان ابن سريج حياً . ومن عرف قيمة معبد لم يجهل قيمة ابن سريج فى هذا الاعتراف الذى يؤيده قول هشام ابن المرية وكان مجرباً معمراً واسع الخبرة بالغناء وقد سئل عن أحذق المغنين فقال : ما خلق الله بعد داود النبى عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحذق منه بالغناء .

وكان ابن سريج قبل الغناء يصطنع النياحة، وعاش نائحاً يندب الموتى من كبار القبائل وكرام العشائر مدة طويلة .

وقد بعثت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما إلى ابن سريج بشعر يصوغ فيه لحناً يناح به ، وهو هذا البيت :

يا أرض ويحك أكرمى أمواتى فلقد ظفرت بسادتى وحماتى

فأجابها إلى ما سألت وصنع لها اللحن فصادف به نجاحاً عند أهل الحرمين، وقدموه على جميع النائحين فى مكة والمدينة والطائف .

ولك أن تستخلص من هذا أن اللحن كان يقصد إليه، ويصنع خصيصاً لبعض الأشعار ، ويصبح موضع الرعاية والاهتمام . كما تستخلص أيضاً أن النياحة كانت لوناً موسيقياً متداولاً بين الألوان الهامة فى الغناء العربى القديم . ولقد يتبادر إلى الذهن أن

هذا عصر من عصور المجد السياسى الجديد بالطرب والغناء لا بالنواح والبكاء . ولكن ليس الأمر كذلك ، فقد كان إلى جانب العظمة فى الفتوحات والانتصارات والطرب الذى يغمر الدور والقصور ألوان أخرى من الآلام والفجائع التى خلفتها الحروب والثورات الداخلية ، وأصاب أهل البيت وبنى هاشم وأنصارهم والزبيريين وأشياعهم ما جعل لهذه النياحة رواجاً إلى حين .

وروى أن سكينة رضى الله عنها وجهت إلى ابن سريج بعد ذلك مملوكاً لها يدعى عبدالملك وأمرته أن يعلمه النياحة ، فأقام على تعليمه مدة طويلة ، فلما توفى عمها أبو القاسم محمد بن الحنفية وكان ابن سريج يشكو مرضاً عضالاً قعد به عن القيام بالنياحة ، قال لها عبدالملك أنا أنوح لك نياحة أنسيك بها نوح ابن سريج . فقالت له أو تحسن ذلك ؟ قال نعم . فأمرته فناح ، وكان نوحه قد بلغ الغاية من التأثير ولا سيما فى قلوب النساء حتى تنادين قائلات إن هذا نوح غريض فكان ذلك سبباً لأن يعرف عبد الملك بعد ذلك بالغريض[1] . ولما برأ ابن سريج من علته بعد ذلك وعلم نبأ وفاة ابن الحنفية سأل عمن ناح عليه ، فقالوا عبدالملك غلام سكينة ، فقال وهل أساغ الناس نوحه ؟ قالوا نعم ، وقدمه بعضهم عليك . فأقسم

---

(١) الغريض : الرقيق اللين من كل شئ .

ابن سريج لا عاد بعد اليوم إلى النياحة أبداً ، وعدل عنه إلى الغناء .
ولكن هل بر بقسمه ؟ إن الفنان فى الواقع لا يكون دائما ملك
نفسه . أو نقول بتعبير آخر إن كل ما عند الفنان من الألوان عرضة
لاستخراجها وإرغامه على الظهور بها مهما حاول كبتها والإعراض
عنها . فقد ناح ابن سريج بعد هذه التوبة عندما ماتت حبابة وكانت
قد أخذت عنه وأحسنت إليه ، ثم ناح بعدها على يزيد بن عبد الملك ،
ثم لم يعرف عنه أنه ناح على أحد بعد ذلك .

وكان ابن سريج يضيف إلى جمال غنائه جمال السجايا . فهو
رقيق الشمائل ، رحب النفس ، ممتد الأفق ، يرى محادثه فيه من
خلقه محاسن لا يقل فيها عن فنه . ولقد يكون فى بعض أيامه عليلاً
أو مرهقاً أو متعباً ثم هو مع ذلك يلبى رغبة كل من يطلب منه
الغناء ، فلا يخيب متعطشا إلى فنه بل يرده ريان شاكراً . وقد
قصد إليه يوما جماعة من فتيان بنى أمية وهو مريض فلما دخلوا
عليه قالوا : « نحن فتيان قريش أتيناك مسلمين عليك وأحببنا أن
نسمع منك » . فما كان من ابن سريج إلا أن أمر جاريته بإحضار
جلبابه وعوده ، وأخذ نقاباً أسدله على وجهه وغناهم ، حتى إذا
اكتفوا ألقى عوده وعاد إلى الفراش .

ولعل هذه الخلال النبيلة فيه التى اشتهرت عنه هى التى حملت
الوليد بن عبد الملك على استدعائه لمجالسته ، فقد كتب إلى عامله

بمكة أن يشخصه له ، فلما جاءه قال الوليد : ويحك ياعبيد قد بلغنى عنك ما حملنى على الوفادة بك من كثرة أدبك وجودة اختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجاسك .

وكانت براعة ابن سريج الغنائية تتجلى بصفة خاصة فى إيقاع الرمَل ، فقد بلغ فيه الغاية التى قصر غيره دون بلوغها .

أما أساتذته فقد عرفنا منهم بمكة ابن مسجح ، على أنه قد تفوق عليه وبلغ الشأو الذى لم يدركه أستاذه . ثم هو لم يقف عند هذا بل تكررت رحلاته إلى المدينة فأخذ بها عن طويس فى مجالس الغناء التى كانت تقيمها عزة الميلاء . ولم يفته أن يفيد فى فنه من سائب خاثر .

ويرى المطلعون أنه لم يقتصر غناؤه على لون واحد بل كان يحلق فى كل أفق حتى قال ابراهيم الموصلى عنه « الغناء على ثلاثة أضرب فضرب مله مطرب يحرك ويستخف ، وضرب له شجىً ورقة ، وضرب ثالث هو حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع فى غناء ابن سريج » .

وصفاته الفنية هذه هى التى جعلته يحرز قصب السبق ويظفر بالجائزة الأولى فى مباراة غنائية أقامها سليمان بن عبد الملك .

وقد تبين فيما سلف أن الغريض أدى عن ابن سريج النياحة وهو عليل ، ولما خشى ابن سريج أن يجد فيه المنافس القوى الذى

يقض مضجعه أخلى له جو النياحة وتفرغ للغنـاء . وهنا يأبى الغريض إلا أن يلاحقه حيثما كان ، فمايكاد ابن سريج يغنى لحناً حتى يعارضه الغريض معارضة قوية حملت ابن سريج على أن حقد عليه وضاق بمكانه ذرعاً . وكلما اشتد به الأمر راح يبتكر الألحان ويبتدع فيها الجديد تلو الجديد ، حتى نشأ عن هذه المنافسة حوار غنائى فى دار كانت تجمعهما ببعض أطراف مكة فى كل يوم جمعة حيث يجتمع إليهما جمهور حافل ، وإذ ذاك يجلس كل منهما على كرسى فيتبادلان الغناء ويتناقضانه . ولما رأى ابن سريج أن خصمه كان يلعب بألبـاب مستمعيه حين يمزج غناءه بالنياحة التى حذقها بادىء ذى بدء وحافظ على صبغتهـا ، وأخذ يستميل العواطف ويستثيرها بذلك الأسلوب ، بدا له أن يأخذ طريقه إلى الأهزاج والأرمال ، وما لبثت أن استخفها النـاس لجدتها وقرب تناولها ، فتنبه الغريض إلى هذه المواجهة الجديدة ، وأراد أن ينال من خصمه وأستاذه فقال له « يا أبا يحيى قصرت الغنـاء وحرفته وأفسدته » . فقال له ابن سريج « نعم يا مخنث ، تقول هذا ، والله لأغنين غناء ما غنى أحد أثقل منه ولا أجود » . ثم أخذ فى غنائه .

وقد تناقل النـاس أنباء ابن سريج وأضفوا عليها من الغرابة ما تخيلوا معه أن زمر الطير كانت تهبط عند سماع صوته وهو يغنى

بين مكة وعرفة فى جمع من الشباب حين فروا بفنهم وسمرهم من تضييق نافع بن علقمة الذى نادى بتحريم الغناء والنبيذ .

ثم هذا ابن الزبير على شدته وعنفه يسمع صوت ابن سريج فيعود مأخوذ اللب لا يدرى كيف يعبر عن حقيقة رأيه ، وكل مافى الأمر أن يقول : « سمعت صوتاً إن كان من الجن إنه لعجب وإن كان من الإنس فما انتهى منتهاه شىء » .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز يسمع ابن سريج فيقول : « لله در هذا الصوت لو كان بالقرآن » .

وخير ما فى هذه الروايات أنها تصوير لمكانة ابن سريج وإشادة بمقامه الغنائى الممتاز الذى دفع أبا نافع الأسود آخر غلمانه وأحذقهم وأحسنهم صوتاً إلى أن يقول « إذا أعجزك أن تطرب القرشى فغنه غناء ابن سريج ، فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترقصه » .

ولعل من الخير لتاريخ ابن سريج فى مناسبة اقتران اسمه باسم عمر بن أبى ربيعة أن نروى هذه القصة :

حج عمر بن أبى ربيعة فى عام من الأعوام ومعه عبيد بن سريج فخرجوا من مكة بعد العصر يريدون منًى . ثم قال عمر لابن سريج « يا أبا يحيى إنى تفكرت فى رجوعنا مع العشية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج ، فهل لك أن نروح

رواحاً طيباً ونتحلل فى عشيتنا ونستريح على كثيب أبى سجرة ؟
قال ابن سريج طيب والله يا سيدى . فأمر بعض خدمه أن
يذهبوا إلى داره بمكة ويعودوا بسفرة وشراب إلى الكثيب ،
وهو على خمسة أميال من مكة مشرف على طرق المدينة والشام
والعراق . فصارا إليه فأكلا وشربا ، ولما انتشيا أخذ ابن سريج
الدف فنقره وجعل يغنى وهما ينظران إلى الحاج . فلما أمسيا رفع
ابن سريج صوته يغنى فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به ياصاحب
الصوت أما تتق الله قد حبست الناس عن مناسكهم !! فسكت قليلا
حتى إذا مضوا رفع صوته فوقف آخرون ، إلى أن سرت قطعة
من الليـــل ، فأقبل عليه رجل على فرس عربى عتيق بأصل
الكثيب وثنى رجله على قربوس سرجه ثم نادى : ياصاحب الصوت
أيسهل عليك أن ترد شيئاً مما سمعته ؟ قال نعم ، وغنى ما شاء .
فقال له الفارس بالله أنت ابن سريج ؟ قال نعم . قال حياك الله ،
وهذا عمر بن أبى ربيعة ؟ قال نعم . قال حياك الله ياأبا الخطاب .
فقال له وأنت فحياك الله قد عرفتنا فعرفنا نفسك . قال لا يمكننى
ذلك . فغضب ابن سريج وقال والله لو كنت يزيد بن عبدالملك
لما زاد . فقال أنا يزيد بن عبدالملك . فوثب إليه عمر فأعظمه ونزل
ابن سريج إليه فقبل ركابه ، فقال له لولا أنى أريد وداع الكعبة وقد
تقدمنى ثقلى وغلمانى لأطلت المقام معك ولنزلت عندكم ولكنى

أخاف أن يفضحني الصبح ، ولو كان ثقلى معى لما رضيت بالهوينا ولكن خذ حلتى هذه وخاتمى ولا تخدع عنهما فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار . ومضى يركض حتى لحق ثقله .

ومكانة ابن سريج هذه لم تكن مستمدة من جمال صوته فحسب ولا كان هو من الهواة الذين يرسلون أنفسهم مع البديهة والارتجال ثقة بما لحسن صوتهم من الأثر وإنما كان أكثر من ذلك مستمداً من علمه بأسرار فنه ودرايته الوثيقة بدقائق صناعته . وقد سئل مرة عن قول الناس فلان يصيب أو يحسن وفلان يخطئ أو يسئ فقال « المصيب المحسن من المغنين هو الذى يشبع الألحان ويملأ الأنفاس ويعدل الأوزان ويفخم الألفاظ ويعرف الصواب ويقيم الإعراب ويستوفى النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب أجناس الإيقاع ويختلى مواقع النبرات ويستوفى مايشاكلها فى الضرب من النقرات » فعرض ما قال على معبد فقال : لو جاء فى الغناء قرآن لما جاء إلا هكذا .

ولما شعر بدنو أجله نظر إلى ابنته فى تأثر وهى تبكى فبكى ، وقال إن من أكبر همى أننى أخشى أن تضيعى بعدى . فقالت لا تخف فما غنيت شيئاً إلا وأنا أغنيه . فقال هاتى ، فاندفعت تغنى أصواتاً ، وهو مصغ إليها ، ثم قال : قد أصبت ما فى نفسى وهونت علىّ أمرك . وزوجها من ابن مسعود الهذلى

الذى روى عنها غناء أبيها وأخذ ينتحل أكثره لنفسه . وكانت وفاة ابن سريج عام ١٠٧ هـ (٧٢٦ م).

ولم يكن الوارث لفن ابن سريج ابنته الباكية ولا زوجها المنتحل دون سواهما، بل لقد اشترك معهما فى ميراثه الكثيرون . وأخذ هذا التراث الفنى يجتاز العصر محتفظاً بقيمته وقوته حتى لم يستطع العصر الذهبى فى الخلافة العباسية أن يقلل من شأنه ، بل كان يزداد حسنا كلما تقادم به الزمن. وحسب ابن سريج أن يكون أحد ثلاثة هم المختارون من كل عصر بنى أمية يوم طلب هارون الرشيد إلى أعلام غناء عصره أن يختاروا له مائة صوت هى خير ما فى الغناء العربى ، ثم يختاروا منها عشرة ، ثم من العشرة ثلاثة ، فإذا بابن سريج أحد أصحاب تلك الألحان التى خلدت اسمه على مر الزمان .

الغريض

هو أبو زيد أو أبو مروان عبدالملك الغريض مولى لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، وهو من مولدى البربر ، بدأ حياته حائكا للثياب ، ثم غلب الفن على الحرفة والمهنة على الصناعة والموهبة على كل ما عداها ، وصحبه الجمال من جميع نواحيه فنسج حوله حاشية منسقة الوشى فما زال به حتى صنع من حنجرته مزماراً يرسل السحر صوتاً وغناء . كان حسن الوجه جميل المنظر طريف الخلق والخلق ، ولهذا دعى بالغريض وهو الرقيق اللين من كل شئ .

وعمدت به مولاته إلى ابن سريج لتخريجه . وما أن لمح فيه أستاذه مخايل النجابة فى الفن وإلى جانبها منظر أخاذ ومظهر جذاب حتى ثارت ثائرة الحقد فى نفسه عليه فطرده وطارده ، ولم تفلح الشفاعات بينهما . فتعلم الغريض فناً آخر هو فن النواح ، وتخرج فيه على أمهر الباكيات النادبات ، والمآسى يومئذ على أشدها ، فقد فجع أهل البيت بفجائع متوالية ولما تنقطع ما دام بنو أمية أحياء يحاولون استئصال هذه الشجرة الهاشمية من الدنيا ، وكلما جفت

دموع على شهيد بدا مأتم جديد . ومن هنا وجد الغريض لفنه مكاناً خصيباً فكان يحجب عن النساء ثم يطلق لنفسه العنان فينوح نوحاً يقطع نياط القلوب . وأصبح واحد دهره فى ذلك مما حمل ابن سريج على أن يلتمس لنفسه المخرج من هذا المنافس الخطير بابتكار لون آخر من الغناء .

وبلغ الغريض مكانة ابن سريج . فهذا جرير يقول : كان الغريض أحذق أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سريج ، وما زال أصحابنا لا يفرقون بينهما فى الغناء . وهذه سكينة رضى الله عنها تقول عندما استمعت إلى الغريض وابن سريج يغنى كل منهما (عوجى علينا ربة الهودج) : والله ما أفرق بينكما وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان لا يُدرَى أى ذلك أحسن .

والحق ما نقله المؤرخون من حكم بعض أهل البصيرة بالفن فى ذلك العصر ، وهو أن الغريض أشجى غناء وأن ابن سريج أحسن صنعة وإتقاناً .

وكان الحجيج يسمعون الغريض يتغنى فى المجاهل والمنعطفات الصحراوية أو على رءوس الجبال فيقفون الركب مشدوهين والهين ويقول بعضهم لبعض : لعل هذا صوت بعض الحجاج من مؤمنى الجن .

ولقد أثبت الغريض وابن سريج ومعبد يوما أن الفن قادر على أن يتحكم فى عاطفة أمير فيحمله على تغيير قرار أصدره . فلأمر ما أراد أمير مكة نافع بن علقمة نفى أولئك المغنين فاجتمع هؤلاء الفرسان الثلاثة فوق أبى قبيس آخر ليلة قبيل رحيلهم وأطلقوا ثلاثة ألحان بلغ من تأثيرها أن جعلت سكان مكة يفزعون إلى الأمير مستصرخين ومستشفعين ، فغير قراره وأقر إقامتهم .

ويتحدث معبد عن الغريض وأنه قام برحلة من المدينة إلى مكة ليستمع إلى غنائه فى قول جميل :

وما أنس م الأشياء لا أنس شادناً بمكة مكحولا أسيلا مدامعه

فلما وصل إلى مكة ودل على داره أخذ يطرق بابها على الغريض فلم يجبه أحد . فطرقها بغناء حنجرته ، بدلا من دق يده وقرع عصاه فلم يفلح ، وكاد ينصرف يائساً لولا أن صائحاً نادى به واستدعاه . وما هو إلا الغريض يغنى :

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها وقد قربت نضوى أمصر تريد

قال معبد : فلقد سمعت شيئاً لم أسمع أحسن منه وقصر إلىَّ نفسى وعلمت فضيلته علىَّ بما أحس من نفسه وقلت إنه لحرى بالاستتار من الناس تنزيهاً لنفسه وتعظيما لقدره وإن مثله لا يستحق الابتذال ولا أن تتداوله الرجال فأردت الانصراف إلى المدينة راجعاً فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بى يا معبد أنظر أكلمك

فرجعت فقال لى إن الغريض يدعوك فأسرعت فرحاً فدنوت من الباب فقال لى أتحب الدخول فقلت وهل إلى ذلك من سبيل !! فقرع الباب ففتح فقال لى أدخل ولا تطل الجلوس فدخلت فإذا شمس طالعة فى بيت فسلمت فرد السلام ثم قال اجلس ، فإذا أنبل الناس وأحسنهم وجهاً وخُلقاً وخَلقاً ، فقال يا معبد كيف طرأت إلى مكة ؟ فقلت جعلت فداءك وكيف عرفتنى ؟ فقال بصوتك فقلت وكيف وأنت لم تسمعه قط؟ قال لما غنيت عرفتك به وقلت إن كان معبد فى الدنيا فهذا . ثم قال لى يا أبا عباد لولا ملالة الحديث وثقل إطالة الجلوس لاستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه لأجلّ الناس عندى ، ورجعت إلى المدينة فتحدثت بحديثه وعجبت من فطنته وقيافته فما رأيت إنساناً إلا وهو أجلّ منه فى عينى .

وها أنت تلمس معنا فى هذه القصة حقيقة لا مرية فيها وهى أن ما كان يتوقعه ابن سريج من نباهة الغريض وعلو شأنه قد أصبح أمراً واقعاً ، مريراً أو حلواً على حد سواء . وحسبك أن معبداً علم الغناء فى التاريخ العربى يحج إليه فى مكة ، ثم هو يتدلل بعد ذلك ويتجنى ولا يطيل الجلوس معه ، ويخاطبه فى اختصار واقتصاد ، كل ذلك ومعبد يرى فيه ملك الفن الذى يحق له هذا التمنع وهذا الدلال ولا يجد فى نفسه عليه ولا يحقد . وهل نقص معبداً من قدره أن يقوم برحلة يفيد منها ويستزيد بها ، ثم يعترف بعد ذلك

بالفضل لأهله فى غير مواربة ولا جحود ؟ ألا فليكن كذلك الفنان الحر الطليق ، الذى يلتمس جوهر الفن من كل بحر، وثماره فى كل روض ، ولو كان الذى يلتمسه عنده أقل منه شهرة أو أدنى شأناً .

ولئن كان معبد قد صنع هذا وترك لنا هذه العبرة فما كان صاحبه الغريض بأقل منه شأناً فى هذا الباب ، فقد استمع ليلة إلى رهبان فى دير وقد أطلقوا لأنفسهم العنان فى ترنيماتهم وتراتيلهم فأعجبته الموسيقى وأطربه اللحن ، فأصغى إليه حتى حفظه ووعاه ثم نسج على منواله فى شعر عربى هو :

يا أم بكر حبك البادى   لا تصرمينى إننى غاد

جد الرحيل وحثنى صحبى   وأريد إمتاعاً من الزاد

وإنما يصنع الغريض ومعبد مثل هذا ، فيأخذ كل منهما عن صاحبه أو يأخذان عن غيرهما ، لأن الأمم فى أوج قوتها تأخذ من كل جديد بنصيب حتى تقتبس كل منافع الدنيا وتجمع كنوزها وترحب بالإصغاء إلى كل ما يتجدد فيها دون أن تغلق الآذان عن هبات الطبيعة وثمار الحضارات ، وهى بعد هذا الإصغاء والاستماع مطلقة الحرية فى أن تأخـــذ بما يصلح لها وما ينهض بشأنها .

وقد نبه شأن الغريض حتى غنى بحضرة الخليفة الوليد بن عبدالملك . ويلوح لنا أن الحياة بمكة تدافعت به فى جزرها ومدها ، ولم يأمن الإقامة بها فى جوار نافع بن علقمة ، ولم يشفع تأمينه إياه على أن يقيم بمكة مطمئناً ، فرحل إلى اليمن ، مثقلا معباً بأمراض عصبية ، كما يبدو لنا ، وكانت فيها نهايته إثر نوبة أصابته فى حفل غنائى صمت بعدها إلى الأبد .

وكانت وفاته فى عهد سليمان بن عبد الملك .



معبد

هو أبو عباد معبد بن وهب مولى عبد الرحمن بن قَطَن . نشأ بالمدينة وانتسب إليها . وبلغ معبد فى سماء الشهرة مالم يبلغه متقدم ولا متأخر ، وأصبح مثلا يضرب فى التشبيه والتظرف والثناء على كل مغن يبلغ الغاية فى فنه فيقال معبد زمانه وقد يكون ضارب المثل أو المادح ممن لايعرفون عن معبد أكثر من اسمه .

وتطالعنا فى نشأة معبد الغنائية بادرة تكشف عن ناحية من نواحى العظمة فى مثل هذه الشخصية الكبيرة . حدّث معبد عن نفسه قال : « كنت غلاماً مملوكا لآل قطن مولى بنى مخزوم ، وكنت أتلقى الغنم بظهر الحرة ، وكانوا تجاراً أعالج لهم التجارة فى ذلك ، فآتى صخرة بالحرة ملقاة — بالليل — فأستند اليها . فأسمع وأنا نائم صوتا يجرى فى مسامعى فأقوم من النوم فأحكيه ، فهذا كان مبدأ غنائى » .

هذا هو الإيحاء الذاتى الذى يكشف عن الميل الطبيعى فى الفنان ، وعن الموهبة المتطلعة منذ الصبا إلى الجمال الصوتى والبراعة فيه . فهى إن دلت على شىء فهى على أن معبداً كان بطبعه فى طليعة

أرباب الغناء وأعلام الموسيقى . وقد كانت خواطره تهجس فى المنام بما تطمح إليه آماله فى اليقظة . وهذه البدايات الباكرة والبادرة الأولى تجرى كثيراً فى حياة الموهوبين على اختلاف ألوان نبوغهم . وهكذا كان معبد أستاذ نفسه أولا ، يروى عن فطرته ويقلد وحيها فى اليقظة بعد أن يتخيله طيفا فى المنام . ثم أتيح له بعد ذلك أن يتصل بنشيط الفارسى وسائب خاثر فيأخذ عنهما مادته الأولى . على أنه منذ مطلع فجر الصبا قد زاول مهنة الغناء ودل بإجادته على ما ينتظره من مستقبل بعيد المدى .

حدثوا أن ابن عتيق عاد من مكة إلى المدينة ومعه ابن سريج من فحول المغنين فأسمعوه غناء معبد الصبى إذ ذاك وسألوه رأيه فيه فقال : إن عاش كان مغنى بلاده . وقد صدقت فراسته .

كان والد معبد أسود اللون أما هو فكان خلاسياً (١) . وكان فى خلقته مديد القامة أحول . وقد تبين آنفاً أنه نشأ فى العبودية والعدم ورعى الغنم ، فما كان شىء من ذلك ليحول دون نمو موهبته وتجلى نبوغه وابتسام الحظ له حتى يسمعه الأمير والخليفة وينقل التاريخ محاسنه من عصر إلى عصر ، وذلك شاهد بأن العبقرية من صنع الله لا شأن لها بأحداث الزمان ولا تفاوت الأنساب والأعراق .

---

(١) الخلاسى الولد من أبوين أسود وأبيض .

ولعل القصة التالية توضح لنا كيف كان الصبا فى حياة معبد يشف عن عبقرية منتظرة يخشاها أكبر مغنيين فى عصرهما ويحسبان لها حسابا . فقد خرج ابن سريج والغريض إلى المدينة ينشدان معروف أهلها الذين ينعمون فى دعة الحياة ورغد العيش . وكانت مكانتهما الغنائية غير مجهولة . فلما دنوا منها تقدما يرتادان منزلا عند المغسلة التى كانت تغسل فيها الثياب فرأيا غلاما ملتحفاً بإزار وقد ألقى طرفه على رأسه وبيده حبالة يتصيد بها الطير ، وهو يتغنى بهذا البيت :

القصر فالنخل فالجماء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

ولم يكن هذا الغلام إلا معبداً فلما سمعه ابن سريج والغريض مالا إليه واستعاداه أغنيته فراعهما أن يسمعا شيئاً يفوق ما عندهما ، وكأنما لم يسمعا بمثله من قبل . فسأل أحدهما صاحبه : هل سمعت كاليوم قط ؟ قال : لا والله فما رأيك ؟ قال ابن سريج هذا غناء غلام يصيد الطير خارج المدينة فكيف بمن فيها !! ثم دعى على والدته بالثكل إن لم يرجع . فكرا راجعين .

فإذا كانت هذه حداثة معبد فكيف إذن كان شبابه وكهولته؟

من الخير لنا أن نمضى قدماً مع الذين عاصروه وتحدثوا عنه ، وفى طليعتهم المغنون أنفسهم الذين حدثونا عنه فى مختلف أطوار

حياته ، وكانوا أقرب إلى العدل فى تقدير فنه وتقويم غنائه . على أن معبداً كان أسبق الجميع إلى الإيمان بما حباه به الله من موهبة لم يبلغ فيها أحد شأوه ، فلو حاول أحد أن يمتدحه بما هو دون قدره عدّ ذلك ضرباً من الانتقاص والاهتضام .

قال معبد: قدمت مكة فذهب بى قرشى إلى الغريض فدخلنا عليه وهو متصبح [1] فانتبه من صيحته وقعد فسلم عليه القرشى وقال له هذا معبد قد أتيتك به وأنا أحب أن تسمع منه . قال هات . فغنيته أصواتا فقال إنك يا معبد لمليح الغناء ، فأحفظنى [2] ذلك فجثوت على ركبتى ثم غنيته من صنعتى عشرين صوتا لم يسمع بمثلها قط وهو مطرق واجم قد تغير لونه حسداً وخجلا . فإن صحت هذه الرواية كانت هذه الزيارة لمكة مسبوقة بتلك القصة المماثلة التى نراها فى حياة الغريض .

وقد تناول الرواة معبدا وابن سريج فحدثوا أن معبدا كان خارجاً إلى مكة فى بعض أسفاره فسمع فى طريقه غناء فى « بطن مر » على مرحلة من مكة ، فقصد إليه ، فإذا رجل جالس على شاطئ بركة مرجّل شعره حسن الوجه والهيئة عليه درّاعة [3] قد صبغها بزعفران وهو يغنى :

---

(١) التصبح النوم بالغداة (٢) أحفظنى أغضبنى

(٣) الدراعة جبة مشقوقة المقدم

حنّ قلبي من بعد ماقد أنابا ودعا الهمُّ شجوه فأجابا
ذاك من منزل لسلمى خلاء لابس من خلائه جلبابا

فقرع معبد بعصاه وغنى :

منع الحياة من الرجال ونفعها حدق تقلبها النساء مراض
وكأن أفئدة الرجال إذا رأوا حدق النساء لنبلها[1] أغراض

فقال له ابن سريج بالله أأنت معبد ؟ قال نعم . وبالله أأنت ابن سريج ؟ قال نعم . قال ابن سريج والله لو عرفتك ما غنيت بين يديك .

ففي هاتين القصتين معاً نرى كلا من الغريض وابن سريج يشهد لمعبد ، إلا أن شهادة أولهما لم تكن بلغة الإفصاح والتعبير ولكنها كانت بلغة الهزيمة والحسد وقد ترجم عنهما امتقاع اللون واصفرار الوجه ، أما الشهادة فى القصة الأخرى فهى واضحة قد أفصح فيها التجاوب وأبان عنها ثناء ابن سريج على صاحبه وأنه ما كان ليغنى بين يديه لو علم أنه معبد . وهكذا نرى ابن سريج لا يمنعه مقامه فى السن والفن والتقدم من الصراحة والإقرار لذى الفضل بفضله . وكذلك كانت الفنون خليقة بالحياة ، فى عهد كله قوة وحيوية وصراحة .

ولما بلغ معبد النضج الفنى ، وكان الغناء العربى قد استوى على سوقه وتجددت نواحيه نوعاً ما فامتزجت الطبيعة العربية بما وصل

(١) النبل : السهام .

إليها من ثقافة فنية ، أصبحنا نرى فى معبد مغنياً ومعلم غناء وموسيقياً ومدرسة موسيقى ، يقصد إليه المتعطشون إلى المورد العذب من هذا الفن ، كما يعهد إليه الأشراف والسراة بتعليم الجوارى وتخريجهن . وأثبت معبد أنه ناجح فى مهنته التعليمية موفق فيها توفيقه فى صناعته . وهكذا كان يختلف إليه المغنون من كل حدب يأخذون عنه ويتعلمون منه ، فيتلقاهم منشرح الصدر ، طلق المحيا ، مخلص النية فى إرشادهم ، صادق النزعة فى تخريجهم ، لا يبخل على قصّاده بفن يجيده وعلم يتقنه ، بل لقد كان يتحمل المشقة فى هذه السبيل راضياً مرتاحاً .

كان معبد قد علم جارية من جوارى الحجاز الغناء تدعى « ظبية » وعنى بتخريجها فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهب وغلبت عليه ، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان ، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ، ويظهر التعصب له والميل إليه والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه ، وبلغ معبداً خبره ، فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل قد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز ، فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة

ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل وليس يعرف أحد منهما صاحبه. فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه فى مؤخر السفينة ففعل، وانحدروا، فلما صاروا فى فم نهر الأبلة [1] تغدوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين، ومعبد ساكت وهو فى ثياب السفر وعليه فرو وخفان غليظان، وزى جاف من زى أهل الحجاز، إلى أن غنت إحدى الجوارى من غناء معبد:

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما

واحتلت الغَوْرَ فالأجراع من إضما [2]

فلم تجد أداءه، فصاح بها معبد: يا جارية! إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له مولاها — وقد غضب — وأنت مايدريك الغناء ما هو؟ لِمَ لا تمسك وتلزم شأنك؟ فأمسك معبد ثم غنت الجارية أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت ولا يتكلم حتى غنت من أصواته:

بابنة الأزدىّ قلبى كئيب — مستهام عندها ما ينيب

ولقد لاموا فقلت دعونى — إن من تهون عنه حبيب

إنما أبلى عظامى وجسمى — حبها والحب شىء عجيب

---

(١) الأبلة بلد على شاطىء دجلة.

(٢) الغور الأرض المطمئنة. والأجراع الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها. وإضم واد بجبل تهامة وهو الذى فيه المدينة.

فأخلّت ببعضه ، فقال لها معبد : يا جارية ! لقد أخللت بهذا الصوت إخلالا شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويلك ما أنت والغناء ألا تكف عن هذا الفضول ؟ فأمسك معبد . وغنى الجوارى ملياً ، ثم غنت إحداهن من غنائه :

خليلىّ عوجا منكما ساعة معى
على الربع نقضى حاجة ونودع
ولا تعجلانى أن ألم بدمنة
لعزة لاحت لى ببلقاء بلقع
وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى
وللعين : أذرى من دموعك أو دعى

فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقومين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ! أقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة . فأمسك معبد ، حتى إذا سكتت الجوارى اندفع يغنى الصوت الأول حتى فرغ منه . فصاح الجوارى : أحسنت والله يا رجل فأعده . فقال : لا والله ولا كرامة . ثم اندفع يغنى الثانى . فقلن لسيدهن : ويحك ! هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعتن سوء رده عليكن وأنا خائف مثلكن

منه ، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرن حتى نداريه . ثم غنى معبد
الصوت الثالث فزلزل عليهم الأرض . فوثب الرجل فخرج إليه
وقبل رأسه وقال : يا سيدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك .
قال : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغى لك أن تتثبت
ولا تسرع إلىَّ بسوء العشرة وجفاء القول. فقال له : قد أخطأت
وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلىَّ وتختلط بى .
فقال أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل :
ممن أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين
أخذه جواريك ؟ فقال أخذنه من جارية كانت لى ابتاعها رجل
من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت من أبى عباد معبد
وعنى بتخريجها فكانت تحل منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر
الله عز وجل بها ، وبقى هؤلاء الجوارى وهن من تعليمها ، فأنا
إلى الآن أتعصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعاً ، وأفضل صنعته
على كل صنعة . فقال له معبد : أفتعرفنى ؟ قال : لا . فصك معبد
بيده صلعته ثم قال : فأنا والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز
ووافيت البصرة ،نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز والله لاقصرت
فى جواريك هؤلاء ولأجعلن لك فى كل واحدة منهن خلفاً من
الماضية . فأكب الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها
ويقولون كتمتنا نفسك حتى جفوناك فى المخاطبة وأسأنا عشرتك

وأنت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه ، وخلع عليه عدة خلع ، وأعطاه فى وقته ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بمثلها ، وانحدر معه إلى الأهواز ، فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذنه عنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

وإذا كنا نضفى على معبد حلة المعلم المربى ، فلقد كان خليقاً بوصف العالم الفنان الذى يحمل فى نفسه من الخلق السليم ما يجعله أهلا لهذه القمة الأدبية . فالعالم طالب علم من المهد إلى اللحد ، فهو يعطى ويأخذ ، ويعلم ويتعلم ، ويفيد ويستفيد ، دون أن يرى على نفسه غضاضة أو على مقامه هوانا ، حين يطوف بالأقاليم ويتنقل من مكان إلى آخر ليأخذ من مدرسة التجارب ما يضيفه إلى مدرسته ، ويروى عن زملائه وأنداده أحسن ماعندهم وخير مالديهم ، ويبادلهم سحراً بسحر ، وغناءً بغناء ، ويقيم بينهم الأيام والليالى حتى يعتصر شجرتهم ، ويحصّل ثمرتهم ، ويعود غير مجحود الفضل ولا مجهول المنزلة .

ولمعبد فى مثل هذا أساليب يجلّى عنها فى عبارة كريمة فيقول : غنيت فأعجبنى غنائى وأعجب الناس وذهب لى به صيت وذكر ، فقلت لآتين مكة فلأسمعن من المغنين بها ولأغنينّهم ولأتعرفن إليهم ، فابتعت حماراً ، فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعت حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل فى بيت فلان ، فجئت

إلى منزله بالغلس (١) ، فقرعت الباب ، فقال من هذا ؟ فقلت أنظر عفاك الله . فدنا وهو يسبح ويستعيذ ، كأنه يخاف ففتح فقال من أنت عافاك الله ؟ فقلت رجل من أهل المدينة . قال فما حاجتك ؟ قلت أنا رجل اشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئاً ، وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك ، وقد أحببت أن تنزلنى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فإنه لا مئونة عليك ولا عليهم منى . فلوى شيئاً ثم قال انزل على بركة الله . فنقلت متاعى فنزلت فى جانب حجرته . ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد ، حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا من هذا الرجل ؟ قال رجل من أهل المدينة خفيف يشتهى الغناء ويطرب له ، ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وسمروا وغنوا ، فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى ، حتى أقمنا أياماً وأخذت من غنائهم — وهم لا يدرون — أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج إنى فديتك أمسك علىَّ صوتك :

قل لهند وتربها	قبل شحط (٢) النوى غدا
إن تجودى فطالما	بت ليلى مسهَّدا

قال أو تحسن شيئاً . قلت تنظر (٣) وعسى أن أصنع شيئاً ، واندفعت فغنيته . فصاح وصاحوا وقالوا أحسنت قاتلك الله . قلت

(١) الغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .
(٢) الشحط البعد . (٣) تنظر تأن .

فأمسك على صوت كذا ، فأمسكوه فغنيته فازدادوا عجباً وصياحاً .
فما تركت واحداً منهم إلا غنيته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها .
فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرفوا بى [1] لأنت أحسن بأداء
غنائنا عنا منا ، قلت فأمسكوا علىَّ ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا
من غنائى . فامسكوا علىَّ فغنيت صوتاً وآخر فوثبوا إلىَّ وقالوا
نحلف بالله إن لك لصيتاً واسماً وذكراً ، وإن لك فيما ههنا لسهماً
عظيما فمن أنت ؟ قلت معبد . فقبلوا رأسى وقالوا لفقت علينا وكنا
نتهاون بك ولا نعدك شيئاً وأنت أنت . فأقمت عندهم شهراً آخذ
منهم ويأخذون منى .

وكان معبد سمح الطباع كريم السجايا ، رحيب النفس ، وهذا
هو الذى بلغ به الشهرة الطائرة والصيت البعيد فيما كان له من فن
رفيع بطانته الأخلاق وحاشيته الشمائل الرقيقة ، ومعازفه مجموعة
المكارم والفضائل التى بوأته منادمة الملوك ، يستدعيه الخليفة على
البريد ، ويستشرف إليه البلد البعيد ، وينيله الحظوة والزلفى
فلا يعود إلى وطنه إلا وهو ملء بالثراء ، غنى بموفور العطاء .
وكم نادم والى المدينة وغناه . وما زال يعلو به الجد حتى أصبح
ريحانة الغناء فى دولة بنى أمية ونديم الخليفة الوليد بن يزيد .

اشتاق الوليد إليه يوماً فوجه البريد إلى المدينة فأتى به . وأمر

(١) هرف به مدح حتى جاوز القدر فى الثناء والإطراء .

الوليد ببركة قد هيئت له فملئت ماء ورد خلط بمسك وزعفران . وأتى بمعبد فأمر به فأجلسه والبركة بينهما ، وبينهما ستر قد أرخى ، فقال له غنني يا معبد :

لهفى على فتية ذل الزمان لهم فما أصابهم إلا بما شاءوا
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

فغناه إياه . فرفع الوليد الستر ، ورفع ملاءة مطيبة كانت عليه وقذف نفسه فى البركة فغاص فيها ثم خرج فاستقبله الجوارى بثياب غير الثياب الأولى . ثم شرب وسقى معبدا . ثم قال غننى يا معبد :

يا ربع مالك لا تجيب متيما قد عاد نحوك زائراً ومسلما
جاءتك كل سحـــابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبسما
لو كنت تدرى من دعاك أجبته وبكيت من حرق عليه إذن دما

فغناه فدعا له بخمسة عشر ألف دينار فصبها بين يديه ، ثم قال : انصرف إلى أهلك واكتم ما رأيت .

وما زال معبد بين غدوة وروحة إلى قصر الخليفة حتى بلغ منه الكبر وضعف صوته وأدركه الإعياء ، فنقله الخليفة إلى قصره وأشرف على تمريضه . فلما فاضت روحه شيعه الخليفة مع أخيه والجنازة بينهما فى تكريم وتوديع مؤثر من القصر إلى مثوى القبر .

وقد شاء القدر أن يضيف إلى مواساة الخليفة رثاء الفن ودموعه حين قامت سلامة القس بحق الفنان على الفنان فاشتركت

بقلبها الحزين ودموعها الهامية ونواحها البليغ فى تأبين علم الغناء وسراجه المشرق فى دولة بنى أمية .

ولندع المجال لابنه كردم يصف لنا ذلك كله بلغته وعبارته الموجزة قال : مات أبى وهو فى عسكر الوليد بن يزيد وأنا معه ، فنظرت حين أخرج نعشه إلى سلامة القس وقد أضرب الناس عنه ينظرون إليها وهى آخذة بعمود السرير وهى تبكى أبى وتقول :

قد لعمرى بت ليلى	كأخى الداء الوجيع
ونجىّ الهم منى	بات أدنى من ضجيعى
كلما أبصرت ربعاً	خالياً فاضت دموعى
قد خلا من سيد كا	ن لنا غير مضيع
لا تلمنا إن خشعنا	أو هممنا بخشوع

قال كردم وكان يزيد أمر أبى أن يعلمها هذا الصوت فعلمها إياه فندبته به يومئذ . ولقد رأيت الوليد بن يزيد والغمر أخاه متجردين فى قميصين ورداءين يمشيان بين يدى سريره حتى أخرج من دارالوليد لأنه تولىأمره وأخرجه من داره إلىموضع قبره .

***

كان معبد عظيم الاعتداد بنعمة الله عليه فى فنه . وكان يعتقد أن أداء ألحانه ليس من الأمور الهينات ، ولا من اليسر بحيث تخلو من التراكيب التى تحتاج إلى الدقة والعناية . وفى هذا يقول :

« لقد صنعت ألحاناً ، لا يقدر شبعان ممتلىء ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها . ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر المتكىء أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً (١) ولا القاعد حتى يقوم » .

ولعمرى لم تكذب عليه نفسه ولم يخطئه حظه ، فقد تقدم إلى مسابقة فنية فى دار ابن صفوان بمكة ، ولكن بعد فوات الموعد ومنع الحاجب إياه من الدخول ، فما كان ذلك ليمنعه عن أن يرفع عقيرته بالغناء ولو من خلف الدار ما دام قد منع من أن يأتى البيوت من أبوابها ، فدخل صوته الدار بلا استئذان ، وعرف أنه معبد فخرجت الجائزة إلى من لم يدخل إليها .

أما طريقته فى وضع ألحانه فقد أجاب سائليه عنها بقوله : « أرتجل قعودى وأوقع بالقضيب على رحلى وأترنم عليه بالشعر حتى يستوى لى الصوت » .

شخص معبد مرة إلى مكة واشتد عليه الحر والعطش فى الطريق فانتهى إلى خباء فيه رجل أسود وإذا بجرة ماء قد بردت فمال إليها ، وقال للأسود اسقنى من الماء يا هذا . فقال لا . فقال له أتأذن لى فى الكن ساعة ؟ فقال لا . فأناخ معبد ناقته ولجأ إلى ظلها فاستتر به وأخذ يترنم بصوته (القصر فالنخل فالجماء بينهما . . .) فما سمع الأسود ذلك حتى وثب إليه واحتمله إلى داخل الخباء ، وسقاه حتى ارتوى ، وأقام عنده إلى وقت الرواح . ولما أراد

---

(١) استوفز فى قعدته : انتصب فيها .

الرحيل قال له الأسود بأبي أنت وأمي الحر شديد ولا آمن عليك فأذن لي أن أحمل معك قربة من ماء على عنقي وأسعى بها معك فكلما عطشت سقيتك صحناً وغنيتني صوتاً . فقال معبد ذاك لك . وما فارقه حتى بلغ المنزل ، هذا يسقي وذاك يغني .

فانظر إلى معبد كيف جعل من الموسيقى سحابة رحمة ، تحيي موات القلب الكنود ، وتدريد البخيل الشحيح فتجعله سمحاً كريماً ، وتحني رأس الأبي المستعصي وتجعله عبداً سقاء يسقي المطرب ماء ليسقيه المطرب غناء . ولكن أي الشرابين كان أعذب وأبقى !! إن معبداً لم يسق الأسود وحده في طرق الصحراء بل سقى مدنية العصر الأموي في صحراء الحياة التي ختم قصته فيها عام ١٢٥ هـ (٧٤٣م) .

* * *

لقد انطوى ديوان معبد في عالم الغناء فتغنى بذكره أمثال البحتري وأبي تمام من الشعراء . وقد خلف « المعبديات » تراثاً لتلاميذه وفي طليعتهم ابن عائشة ومالك وسلامة القس وحبابة ويونس الكاتب وسياط .

ولئن كانت تلك الألحان الساحرة لم تستطع أصداؤها أن تعيش على الدهر فقد بقي اسم صاحبها ليكون مضرب الأمثال ، وحديثاً للعصور والأجيال .

حنين الحيرى

هو أبو كعب بن بلوع الملقب بالحيرى نسبة إلى الحيرة عاصمة العراق العربى فى العصر الجاهلى . وهو مسيحى مختلف فى أصله ، فمن قائل إنه عبادى من تميم . ومن قائل إنه من بنى الحرث ابن كعب . ويقول ثالث إنه ينتمى إلى أسرة من بقية من طسم وجديس نزلت فى بنى الحرث بن كعب فانتمت إليهم ونسبت لهم .

وكان حنين هذا شاعراً ومغنياً من فحول المغنين . وله صنعة مأثورة مشهود له فيها . وكان مسكنه الحيرة ، يكرى جمالا إلى الشام وسواها . ومما يذكر من غنائه مارواه إسحق الموصلى من أن حنيناً غنى هشاماً بن عبدالملك وهو سائر إلى الحج :

صاح هل أبصرت بالخبـ ـتين من أسماء نارا
موهِنا شبت لعينيـ ـك ولم توقد نهارا
كتلالى البرق فى المز ن إذا البرق استطارا
أذكرتنى الوصل من سعـ ـدى وأياماً قصارا

وقد قيل لحنين أنت تغنى منذ خمسين سنة ما تركت لكريم مالاً ولا داراً ولا عقاراً إلا أتيت عليه . فقال : بأبى أنتم ، إنما هى أنفاسى أقسّمها بين الناس أفتلوموننى أن أغلى بها الثمن !! .

وهو لعمرى جواب طريف يليق بفنان ويجدر بموسيقار ، ويصلح أن يكون تعبيراً لمغن يشعر بقيمة نفسه فيقدرها قدرها . وكثيراً ما يستكثر الناس على الفنان ما ينال من تقدير وما يحوز من ثراء ، وقد نسى هؤلاء أن المغنى لا يمنحهم حنجرته ، ولا يهبهم صوته فحسب ، وإنما يقسّم عليهم أنفاس العمر وومضات الحياة ، فإذا أسدوا إليه شيئاً من المادة فهو ضئيل أعطى فى جليل ، ويسير منح فى كثير ، ونقود هى وإن عظمت فما أهون نسبتها إلى ما يبذل الفنان من الكفاح فى إخراج ثمرة فنية مقتطفة من شجرة وجوده وعبقريته . وحين نقول هذا إنما نعنى الفنان الأصيل المنتج الذى يكد القريحة ، ويحصّل التراث ، ويستجمع الأساليب ، ويحسن الموازنة والمقارنة فيعرض على الناس متعاً روحية خالدة .

كان حنين فى حداثة سنة يحمل الفواكه والأزهار بالحيرة . وكأنما عكست عليه حلاوتها وعطرها ، فهو بارع التحية ، حلو الدعابة ، جم الظرف ، وضىء المحيا . فيه جاذبية ورشاقة جعلته محبباً إلى مياسير أهل الكوفة ، وبخاصة أصحاب القيان والمطربين . وكانت حياته معهم المدرسة التى تلقن فيها دروس الغناء والتدريب على الأداء . فكان يستمع إلى الغناء ، ويلتهمه ، وتفنى نفسه فيه . وكان السماع يستغرق نواحى نفسه ، ويسيطر على جميع مشاعره فلا يكاد يرد على مُسَلم ولا يتجاوب مع متكلم ما دام على تلك

الحال ، حتى حفظ أصواتاً وألحاناً ، فأخذ يلقيها على الناس . وكان بفطرته موهوباً حسن الصوت ، فظهرت مزية الغناء فيه على بقية مزاياه الأخرى. وقد رحل إلى عمر بن داود الوادى ثم إلى حكم الوادى فحفظ عنهما الكثير حتى أصبح من أعلام هذه الصناعة المعدودين وأقطابها المرموقين. وقد أسعده الطالع فلم يكن بالعراق من يساميه ، فتفرد بالنبوغ ، فكان واحد عصره وبلبل إقليمه .

ويروى التاريخ من طرائف حنين ما يدلنا على ظاهرة علمية فنية فى وقت واحد ، وذلك أن الغناء السليم الرفيع فى العواصم والمدن الكبرى كان يقابله فى بعض البيئات والأوساط من لا يدين له بالتقديم والتكريم ، ومن لا يفهمه إذا سمعه ولا يدرك محاسنه فى قليل ولا كثير ، وإنما يلتمس الطرب عند المهرجين وخفاف المؤونة ممن تعنيهم الرقصة التافهة والجولة القريبة المدى . والتاريخ يحمد الله معنا على أن هذا الوباء من الضعف الفنى بحيث لم تكن تنصره الكثرة الغالبة فى تلك المدنيات العربية التى نعتز بتقدمها وسمو الأذواق فيها وتقديرها للجيد العميق الرفيع من الأغانى ذات الفكرة الصائبة واللحن المصور والأداء المعبر . ولا يضيرنا بعد ذلك أمثال فتيان فى حمص يحدثنا عنهم حنين فيقول :

« خرجت إلى حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً ، فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون فقيل لى عليك بالحمامات

فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا . فجئت إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت وأخبرتهم أنى غريب . ثم خرجوا وخرجت معهم . فذهبوا بى إلى منزل أحدهم . فلما قعدنا أتينا بالطعام فأكلنا وأتينا بالشراب فشربنا . فقلت لهم هل لكم فى مغن يغنيكم ؟ قالوا ومن لنا بذلك ؟ قلت أنا لكم له ، هاتوا عوداً . فأوتيت به فابتدأت فى هنيات أبى عباد معبد فكأنما غنيت للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولا سروا به . فلقد ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه . فأخذت فى غناء الغريض فإذا هو عندهم كلاشىء . وغنيت خفائف ابن سريج وأهزاج حكيم والأغانى التى لى . واجتهدت فى أن يفهموا ، فلم يتحرك من القوم أحد وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا . فقلت فى نفسى : أرانى سأفتضح اليوم بأبى منبه فضيحة لم يفتضح أحد قط مثلها . فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو منبه . وإذا هو شيخ عليه خفان أحمران كأنه جمّال ، فوثبوا جميعاً عليه وقالوا : يا أبا منبه أبطأت علينا : وقدموا له طعاماً وشراباً ، وخنست [1] أنا حتى صرت كلاشىء خوفاً من أبى منبه . فأخذ العود ثم اندفع يغنى :

طرب البحر فاعبرى يا سفينة ‏ ‏ ‏ ‏ لا تشقّى على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقون ، ويهللون ويطربون . ثم أخذ فى نحو هذا الغناء (السخيف) ، فقلت فى نفسى : أنتم هنا ، لئن أصبحت

(١) خنس : تأخر

سالماً لا أمسيت فى هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلى على ناقتى ورحلت متوجهاً إلى الحيرة وقلت :

ليت شعرى متى تخب بى النا قة بين السدير والصنين
محقباً ركوة وخبز رقاق وبقولا وقطعة من نون [1]
لست أبغى زاداً سواها من الشا م وحسبى علالة تكفينى
فإذا أبت سالماً قلت سحقاً وبعاداً لمعشر فارقونى »

وهناك أقصوصة تنطوى على دلالة لها أهميتها ، وذلك أن ثمت غناء يعفو الله عنه ـ على حد تعبير عمر رضى الله عنه ـ حين يعيش فى الجماعة ويقتبس من روحها ويهدف إلى مثلها العليا ويترنم بغاياتها المنشودة ، فيبعث فى النفوس حرارة الثقة والإيمان ويحمى فضيلتها وكرامتها ، أو يثير فيها وطنية وأريحية أو نخوة فى الدفاع عن الحمى والذود عن الذمار ... وغناء لا يعفو الله عنه ، وذلك حين يسفّ إلى دنيّات الأمور ، وإثارة دواعى الغرائز ، والحض على ما لا يليق ، مما كان وجوده سبباً فى ظهور آراء تهدد فن الموسيقى والغناء بين الفينة والأخرى فى بعض الأقطار أو بعض العصور الإسلامية .

وقد أودعت الطبيعة فى الموسيقى من المقدرة على تصويرها وتصورها وتحليلها مالو عرف الفنانون طريق الإفادة منه لأمكنهم أن يجعلوا من هذا الفن الرفيع أداة إصلاح قوى ومصباح توجيه وتهذيب فى أممهم وشعوبهم .

---

(١) النون نوع من السمك

أما هذه الأقصوصة فهى ما ذكر ابن كناسة من أن خالداً ابن عبدالملك القسرى حرم الغناء بالعراق فى أيامه . ثم أذن للناس يوماً فى الدخول عليه . فدخل إليه حنين ومعه عود تحت ثيابه فقال : أصلح الله الأمير ، كانت لى صناعة أعود بها على عيالى فحرمها الأمير فأضر ذلك بى وبهم . فقال الأمير : وما صناعتك ؟ فكشف حنين عن عود وقال : هذا . فقال له خالد : غن . فحرك أوتاره وغنى :

أيها الشامت المعيّر بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور [1]
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير

فبكى خالد وقال : قد أذنت لك وحدك خاصة ، فلا تجالسن سفيهاً ولا معربداً . فكان إذا دعى قال : أفيكم سفيه أو معربد ؟ فإذا قيل له « لا » دخل .

وقد بلغ حنين من تفرده بالمرتبة الفنية الفذة ، أن يشهد له إسحق الموصلى وأن يرى فيه الشمس الساطعة فى سماء الحيرة ، تختفى عند ظهورها النجوم ، فلم يكن بها غير حنين أما من عداه فلا شىء ، وليس فى أسمائهم ما يصلح أن يقارن باسمه .

---

(١) المبرأ : يعنى المبرأ من المصائب ، والموفور هو الذى لم يذهب من ماله ولا من حاله شىء .

ويحدثنا المؤرخون أن ابن سريج قدم الحيرة فى ولاية بشر بن مروان للكوفة ومعه ثلثمائة دينار . فأتى بها منزل حنين وقال له أنا رجل من أهل الحجاز ، من أهل مكة ، بلغنى طيب الحيرة وجودة ما فيها وحسن غنائك فى هذا الشعر :

حنتنى حانيات الدهر حتى كأنى خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآنى ولست مقيداً أنى بقيد

فخرجت بهذه الدنانير لأنفقها معك وعندك ، ونتحاشر حتى تنفد ، وأنصرف إلى منزلى . فسأله عن اسمه ونسبه فغيرهما وانتمى إلى بنى مخزوم . فأخذ حنين المال منه وقال موفر مالك عليك ، ولك عندنا كل ما يحتاج إليه مثلك ما نشطت للمقام عندنا ، فإذا دعتك نفسك إلى بلدك جهزناك إليهم ورددنا عليك مالك . وأسكنه داراً كان ينفرد فيها . فمكث عنده شهرين لا يعلم حنين ولا أحد من أهله أنه يغنى . ففى ذات يوم صائف انصرف حنين من دار بشر بن مروان مع قيام الظهيرة فصار إلى باب الدار التى كان أنزل ابن سريج فيها فوجده مغلقاً ، فارتاب بذلك ودق الباب ، فلم يفتح له ، ولم يجبه أحد . فصار إلى منازل الحرم ، فلم يجد فيها ابنته ولا جواريها ، ورأى ما بين الدار التى فيها الحرم ودار ابن سريج مفتوحاً . فانتضى سيفه ودخل الدار ليقتل ابنته . فلما دخلها رأى ابنته وجواريها ، وقوفاً على باب السرداب وهنّ يومئن إليه

بالسكوت وتخفيف الوطء . فلم يلتفت إلى إشارتهن لما تداخله ، إلى أن سمع ترنم ابن سريج بهذا الصوت :

وتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم
إن تغدفى [1] دونى القناع فإننى طب بأخذ الفارس المستلئم

فألقى حنين السيف من يده وصاح به ، وقد عرفه من غير أن يكون قد رآه ولكن بالنعت والحذق : أبا يحيى جعلت فداءك ، أتيتنا بثلثمائة دينار لتنفقها عندنا فى الحيرة فوحق المسيح لا خرجت منها إلا ومعك ثلثمائة دينار وثلثمائة دينار وثلثمائة دينار سوى ما جئت به معك . ثم دخل إليه فعانقه ورحب به ولقيه بخلاف ما كان يلقاه به ، وسأله عن هذا الصوت فأخبره أنه صاغه فى ذلك الوقت . فسار معه إلى بشر بن مروان فوصله بعشرة آلاف درهم أول مرة ، ثم وصله بعد ذلك بمثلها . فلما أراد الخروج رد عليه حنين ماله ، وجهزه ، ووصله بمقدار نفقته التى أنفقها من مكة إلى الحيرة . ورجع ابن سريج إلى أهله ، وقد أخذ جميع من كان فى دار حنين منه هذا الصوت .

وهنا نشهد تبدلا فى حياة حنين ، فلم يعد ذلك الذى يشترى من المغنين صمتهم ، ويقصيهم عن وطنه كما صنع مع ابن محرز ، ولكنه أصبح رجلا قائماً على قدميه واثقاً بنفسه مؤمناً بوجوده

(١) أغدفت المرأة قناعها أرسلته .

الفنى الذى لا يستطاع محوه ولا يخشى عليه خطر من المنافسة . فمع ما لابن سريج من عظيم المكانة وبعد الصيت فإنه لم يعمل على التخلص منه بل ذهب به إلى الأمير ورده بكامل ماله .

ثم هذه الروح الطيبة بين الفنانين التى جعلت ابن سريج يطلب المزيد عند زميله ، ويقوم برحلة يتجشم فيها التنكر والنفقة ليستزيد فى فنه خبرة واطلاعاً مع ما كان فى الحجاز آنئذ من غزارة المادة الغنائية ووفرة أعلام هذه الصناعة بها . وما نلبث أن نرى فى حنين الأستاذ الذى انقلب هو وأسرته تلاميذ لابن سريج فى تلك الأشعار دون ما حقد أو حسد أو استهجان ، بل رواية مصحوبة بالإجلال والتقدير . فبمثل هؤلاء تزدهى العصور وتورق دوحة الفن .

وحين نتحدث عن التواضع فى الفن والتبادل بين أعلامه وأقطابه نرى هذا المظهر يتجلى ، لا بين حنين وابن سريج فحسب ، بل نرى أعلام الحجاز الثلاثة يتشوقون صاحبهم الرابع بالعراق ويعتزون به أخاً على بعد الدار ، بل يرثون لوحدته ونأيه فيستدعونه إليهم ليسمحوا منه ويسمع منهم ، وتأخذ الحجاز عن العراق والعراق عن الحجاز . وهى لعمرى زمالة ساحرة لها من الطرب فى النفس ما للغناء ، وألفة ومودة لها فى القلب من الموقع والإبداع ما للموسيقى نفسها من اللحن والإيقاع .

كل ذلك نراه فى القصة التالية ، وإن كانت نهايتها نهاية حنين

حيث يسدل الستار على حياته فى المنظر الأخير وعلى مسرح فنه الذى عاش فى خدمته أكثر من مائة عام .

كان المغنون فى عصر حنين أربعة نفر ، ثلاثة بالحجاز وحنين وحده بالعراق . والذين بالحجاز ابن سريج والغريض ومعبد ، فكان يبلغهم أن حنيناً قد غنى فى شعر مطلعه :

هلا بكيت على الشباب الذاهب وكففت عن ذم المشيب الآيب

فاجتمعوا فتذاكروا أمر حنين وقالوا ما فى الدنيا أهل صناعة شر منا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لا نزوره ولا نستزيره . فكتبوا إليه ووجهوا له نفقة وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك وأنت أولى بزيارتنا . فشخص إليهم . فلما كان على رحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه . فلم يُر يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . ودخلوا فلما صاروا فى بعض الطريق قال لهم معبد صيروا إلىَّ . فقال له الغريض إن كان لك من الشرف ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطفنا إليك . فقال ما لى فى ذلك شيء . وعدلوا إلى منزل سكينة . فلما دخلوا إليها أذنت للناس إذناً عاماً . فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح . وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا فيها . ثم سألوا حنيناً أن يغنيهم صوته الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الذاهب » فغناهم إياه ، وكان من أحسن الناس صوتاً . فازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوه ،

فسقط الرواق على من تحته ، فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ، إلا حنيناً فقد مات تحت الهدم. فقالت سكينة رضى الله عنها : لقد كدر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة ، كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته .

وكانت وفاته حوالى عام ١٠٠ هـ (٧١٨ م) بعد أن عمّر مائة سنة وسبع سنين .

ابن عائشة

أحد أعلام الموسيقى فى العصر الأموى ، وممن انتهى إليهم الفن أو انتهوا إليه عن فطرة صادقة ورغبة كانت الروح فيها أقوى من المادة والاحتراف .

هو أبو جعفر محمد الملقب بابن عائشة . كان مجهول الأب . فلازم أمه وهو صغير فأخذت تتنقل بين الدور والقصور مزاولة صناعتها كماشطة فكان يُحفَظ له نصيبه معها فيقال ارفعوا هذا لابن عائشة . فغلبت عليه هذه النسبة كما قال هو ذلك عن نفسه للوليد بن يزيد . وادعى ابن عائشة أيضاً أن أباه كان يدعى جعفر فاشتهر بهذه الكنية ، ولكن ذلك لم يثبت فى نسب صريح .

وقد أجاد ابن عائشة فن الغناء وحذقه وبرع فيه ، بعد أن تلقاه عن عَلمين من أكبر أعلام الغناء فى ذلك العصر هما معبد ومالك . وقد اعترف لهما بفضلهما عليه . على أنه كان له طابعه الخاص وشخصيته النفاذة إلى القلوب . وكان صوته فتنة الأسماع وسحر الأرواح . فكلام الرواة عنه يضع أيدينا على عاطفة جياشة وقلب محترق مما يجعلنا أقرب إلى الظن أنه كان رقيق الصوت فى معدنه ، ذواقا

للشعر ، قوى الإدراك للعواطف والأحاسيس التى تنبض بها قصائد الشعراء الغزليين .

قيل إنه لم يكن يحسن الضرب على العود . وعرف بحسن الابتداء حتى بلغ فى ذلك المنزلة التى يضرب به المثل فيها ، فكان يقال لكل من أبدى براعة فى هذا الباب « كأنه ابتداء ابن عائشة » . وقد يدلنا هذا على أن أبا جعفر لم يحتفظ بتحليقه الفنى الرفيع إلى النهاية بنفس الصفة التى كان يظهر عليها فى البداية . وهذا مأخذ ينال الفنان فى الصميم . وإنه لخير للبداية أن تبدو كيفما تكون على أن تعدّ سلماً يرقى إلى نهاية جميلة مرتقبة هى الذروة العالية فى الختام ، من أن تكون البداية غاية فى القوة والسحر والجمال ثم تأخذ فى الضعف حتى تهبط بالفنان إلى ما دون منزلته . على أن هذا إذا كان هو تعبيرنا العصرى ورأينا فى فنان اليوم فإن ذلك لم يفت القدماء أن يدركوه فقد قال يونس الكاتب « ماعرفنا بالمدينة أحسن ابتداء من ابن عائشة إذا غنى ، ولو كان آخر غنائه مثل أوله لقدمناه على ابن سريج » .

على أن ابن عائشة تمتع فى عصره بمكانة أكسبها إياه صوته العذب وغناؤه القوى . ولعل أهل عصره كانوا فى الثقافة الغنائية ذوى مقدرة جعلتهم يتسامون بقدر المغنى ولا يعتبرون حنجرته شيئاً عادياً مكوناً من مجرد لحم ودم وغضاريف وإنما فهموها

على أنها شيء ذو خطر ومعدن نفيس وجوهر قيم تجب له الحرمة والصيانة . والقصة التالية تضع أمامنا هـــذه الحقيقة فى وضوح وجلاء :

رأى ابن أبي عتيق عنق ابن عائشة مخدشاً فسأله من فعل بك هذا ؟ فقال فلان ... فمضى إلى دار فلان هذا . ونزع ثيابه وجلس للرجل على بابه . فلما خرج أخذ بتلابيبه وجعل يضربه ضرباً شديداً والرجل يقول له مالك تضربني وأى شيء صنعت . وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ثم خلاّه وأقبل على من حضر يقول : هذا أراد أن يكسر مزامير داود ، لقد شـــد على عنق ابن عائشة فخنقه وخدش حلقه .

أقام ابن عائشة فى المدينة ، ولو قد أتيحت له مبارحة الحجاز إلى إقامة تدنيه من البلاط الأموى فى مصبحه وممساه لاستطاع أن يكون فى ندماء الخلفاء لما له فوق غنائه من حسن المحاضرة ، وسعة الاطلاع ، والاستيلاء بظرفه على المجلس الذى يحله .

قال صالح بن حسان : لم يكن بالمدينة أحد بعد طويس أعلم من ابن عائشة ولا أظرف مجلساً ولا أكثر طيباً وكان يصلح أن يكون نديم خليفة وسمير ملك .

وحسب ابن عائشة أن تقر له جميلة بعلو الشأن فى منزلته الفنية إذ تقول : « وأنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلح أن تكون » .

يقول المؤرخون إنه كان ذا صلف وكبرياء وبه سوء خلق ، فإن قال له إنسان تغن قال ألمثلى يقال هذا ؟ وإن قيل له أحسنت قال ألمثلى يقال أحسنت ؟ ثم يسكت . فكان قليلا ما ينتفع به .

وهذا الكلام لاينبغى أن يؤخذ على ظاهره ، بل هو نفس الدليل على تمكن الفن من نفس ابن عائشة ، وعلى أنه كان لا يعبأ بالمؤثرات ، ولا يخضع فنه للأوامر تلقى إليه فيندفع إلى تلبيتها عند الطلب. ولكن كانت له مشيئة الفنان وإرادة الشاعر الذى لاسلطان لغير شعوره وإحساسه على موسيقاه وألحانه [1] .

وقد يعد هذا سوء خلق فى مقياس العرف وينبغى ألا يكون . غير أنه حين يصدر من فنان يجب أن يوضع فى مقياس غير أقيسة الطبيعة . وحسب مثل هؤلاء الفنانين مايلاقونه من جزاء وتبعات . وعلى التاريخ أن يكون أرفق بهم وأكرم .

ومع هذا فإن ابن عائشة كان لايجد محيصا من تلبية النداء والإقبال على الغناء إذا وجد نفسه على حافة بئر سيلقى فى غيابتها إن أظهر التدلل والإباء .

---

(١) ولعل بعض المعاصرين لايغيب عن ذاكرتهم أن أحد مشاهير المغنين فى مصر فى مستهل القرن العشرين كان يفر بنفسه من الغناء فى ليالى الأفراح التى ارتبط مع أصحابها ويمضى ليوقظ أحد أصدقائه من نومه فيغنى له حتى الصباح تاركا الجماهير تنتظره ولكن هيهات أن يعود .

حدث مرة أن مضى سعيد بن العاص إلى بئر وخرج ابن عائشة فيمن خرج من الناس إليها . وبينا هم كذلك إذ طلع الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب وخلفه غلامان أسودان كأنهما من الشياطين . فقال لهما امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذى عليه ابن عائشة . ففعلا ذلك . ثم ناداه الحسن كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال بخير فداك أبى وأمى . فقال الحسن أنظر إلى جنبك . فنظر ، فإذا العبدان . فقال الحسن أتعرفهما ؟ قال نعم . قال لئن لم تغننى مائة صوت لآمرتهما بطرحك فى البئر ، وإن لم يفعلا لأقطعن أيديهما . فاندفع ابن عائشة يغنى . وكان أول ما ابتدأ به صوتاً له هو :

ألا لله درك من فتى قوم إذا رهبوا
وقالوا من فتى للحرب يرقبنا ويرتقب
فكنت فتاهم فيها إذا تدعى لها تثب

ثم لم يسكت حتى غنى مائة صوت . وكان آخر ما غنى :

قل للمنازل بالظهران قد حانا
أن تنطقى فتبينى القول تبيانا
قالت ومن أنت قل لى قلت ذو شغف
هجت له من دواعى الحب أحزانا

وقد قيل فى وصف هذا اليوم ما قيل من أنه قد احتشدت له جماهير الناس على غير سابقة موعد ولا انتظار حفل وأنهم كانوا

يهرعون إليه من المدينة فما سمعوا أكثر أصواتاً ولا أبدع غناءً مما أتيح لهم فى هذا اليوم ، دون أن يشترك مع المغنى عازف ولا مردد .

وهل صحيح أن ابن عائشة غنى طيلة هذا اليوم ، ونقل أهل المدينة من بيوتهم إلى تلك البئر استجابة لذلك الإكراه والقسر والقهر ؟ . .

ما أظن أن الضغط يخلق فناً ، أو ينشّط الفنان للإبداع ، وإنما كان الأمر دعابة فى ثوب إنذار . فما كان للحسن بن الحسن بن على أن يتعمد إلقاء رجل فى البئر لأنه لم يغن ، وما تنبغى له هذه السلطة . ولكنه المرح البرىء ، وإظهار الرغبة فى الاستماع إلى الفنان على صورة من صور التهديد المصطنع الذى يحمل فى ثناياه تقديراً لفن ابن عائشة وتمسكا بسماعه .

وهنا قصة تدل مع إيجازها وبساطتها على الكثير والكثير من مقدرة ابن عائشة فى غنائه الذى استقبله الناس فى هالة من السحر والإعجاز . وناهيك بفنان يصل أمره إلى امتلاك ألباب الوفود فى موسم الحج حين لا يستطيع شىء أن يغلب هذه النفوس على زهدها وتقشفها وهى فى لباس الإحرام بين التلبية والتهليل ، فإذا بها فى مثل لمح البصر تؤخذ بغناء ترسل معه القلوب قيادها وتمد له الإبل أعناقها .

قالوا إن ابن عائشة كان قائما بالموسم مستغرقا فى تفكير عميق فمرّ به أحد أصحابه وسأله مايقيمك فى هذا المكان ؟ قال أفكر فى شأن رجل لو تكلم لحبس الناس جميعا ههنا فلن يذهب أحد ولن يجيء . فقال له صاحبه ومن يكون ذلك الرجل ؟ قال أنا . ثم اندفع يغنى فجلس الناس واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكاد الاضطراب أن يفسد على الناس شئونهم . فبلغ أمره هشام ابن عبد الملك فدعاه وقال له ياعدو الله أردت أن تفتن الناس . فأضرب ابن عائشة عن الغناء ، وكان تيّاها يدرك المدى البعيدالذى وصل إليه فنه . فقال له هشام ترفق فى تيهك . فقال ابن عائشة حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياهاً . فضحك هشام منه وتركه حراً يصدح بالغناء حيث يشاء .

وكان ابن عائشة من أولئك الذين لايسرعون إلى بذل مالديهم من الفن بمجرد إبداء الرغبات أو الإلحاح فى المطالبة ، وإنما كان يستدرج إليه استدراجا ، ويتملق فى ذلك تملقا فى غير تصريح . وقد ثبت أن هذا من أخلاق عظماء الفنون فى عصور مختلفة . فهم كالملوك لايتبذلون ، وهم كالسحاب المملوء يأتى متأخراً بطيئاً ، فإذا ما فاض غمر السهول والأنجاد . فكان من سجية ابن عائشة ألا يلبى كل طالب ولا ينزل عند رغبة كل راغب . وإنما كان يثار للغناء إثارة ، وتستخرج دقائق وجدانه ودفائن حنايا أشجانه

بشعر جذاب أو غناء مؤثر . فلا يقال له غن كما يؤمر مغن رخيص .
ولا يقال له أحسنت كما يقال لمأجور بسيط ، وإلا غضب وثار .
فإذا أحسن الأديب التصرف ونجح فى التقرب إلى نفس الفنان
سمع منه كل بديع طريف . وكانت هذه طريقة الناس مع ابن عائشة
حين عرفوا الوسيلة إليه .

قال يونس الكاتب كنا يوما متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من
قريش ، فبينا نحن على حال إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام
من بنى ليث ، وهو متوكئ على يده . فلما رأى جماعتنا وسمعنى أغنى
جاءنا فسلم ، وجلس إلينا وتحدث معنا . وكانت جماعة تعرف تيهه
وتدلله وتسرعه إلى الغضب إذا سئل أن يغنى . فأقبل بعضهم على
بعض يتحدثون بأحاديث كثيّر وجميل وغيرهما من الشعراء ،
محاولين بذلك أن يطرب فيغنى ، فلم يصيبوا عنده ما كانوا يهدفون
إليه . قال يونس : فقلت لهم لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب
حديثاً عجيباً فإن شئتم حدثتكم إياه . قالوا هات . فقلت حدثنى هذا
الرجل أنه مر بناحية الربذة فإذا صبيان يتغاطسون فى غدير ،
وإذا شاب جميل منهوك الجسم ، عليه أثر العلة ، والنحول فى جسمه
بيّن ، وهو جالس ينظر إليهم . فسلمت عليه فرد علىّ السلام .
وقال من أين قدوم الفتى ؟ قلت من الحى . قال ومتى عهدك به ؟
قلت أمس . قال وأين كان مبيتك ؟ قلت بيت فلان . فألقى بنفسه

على ظهره ، وتنفس الصعداء تنفساً ظننت أنه اخترق حجاب قلبه .
ثم أنشأ يقول :

سق بلداً أمست سليمى تحله ... من المزن ما يروى به ويشيم
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحل به شخص علىّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدىّ وإن شط المزار نعيم

ثم سكن كالمغشى عليه . فصحت بالصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفـاسى تزين بالخشوع
ولى عين أضرّ بها التفانى ... إلى الأجراع مطلقة الدموع
إلى الخلوات يأنس فيك قلبى ... كما أنس الغريب إلى الجميع

فاندفع ابن عائشة فتغنى فى الشعرين جميعاً ، وطرب وأطرب بقية يومه ، ولم يزل يغنينا إلى أن انصرفنا .

وقد تجلى نبوغ ابن عائشة عند ما رفعه تشجيع الخلفاء الأمويين إلى المكانة المرموقة التى تجدر بفنان مثله ، ولا سيما فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، فقد كان له معه فى الغناء صولة وجولة يقدم لنا المسعودى طرفاً منها فى مروج الذهب حين يروى أن ابن عائشة القرشى كان عند الوليد فقال له غنى فغناه :

إنى رأيت صبيحة النحر ... حوراً نفَيْن عزيمة الصبر
مثل الكواكب فى مطالعها ... عنـد العشاء أطفن بالبدر

وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موفوراً من الوزر

فقال له الوليد أحسنت والله بأمير المؤمنين ، أعد بحق عبد شمس ، فأعاد . فقال أحسنت والله ، بحق أمية أعد . فأعاد . فجعل يتخطى الأجداد من أب إلى أب ويأمره بالإعادة حتى بلغ نفسه فقال أعد بحياتي فأعاد . فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه يمطره القبلات ، ثم خلع عليه من ثيابه ، ودعا له بألف دينار فدفعت له . وحمله على دابة وأرسله مكرماً معززاً .

وروى المسعودى أيضاً أن ابن عائشة كان قد غنى بهذا الشعر فى حضرة يزيد بن عبد الملك أبي الوليد فأطربه .

وكانت وفاة ابن عائشة حوالى عام ١٢٥ ﻫ (٧٤٣ م) فى أيام هشام بن عبدالملك ، وقيل فى أيام الوليد . وإن اختلفت الروايات فى موعد وفاته فقد أجمعت على أن سببها هو سقوطه من سطح بعض الدور ، تاركاً وراءه سمعة تطوى مراحل الزمن باسمه الذى تذهب دونه القصور وهو خالد على ممر العصور .

سلامة القس

لعل التاريخ تناول بالحديث حياة الجوارى المغنيات فى العصر الأموى . ولعل حديثه عن سلامة كان أغزر مادة وأوسع بيانا من أحاديثه فى سواها ، ذلك بأنه عندما تناولها بالوصف لم يقدم إلى العصور مغنية فحسب إنما تحدث عن شاعرة ومغنية ونسابة وراوية ومسامرة مفاكهة تستطيع أن تلعب بالقلوب وأن تديرها حيث تشاء ، وتوجها الوجهة التى تختارها وتهواها . يجد عندها العالم علمه ، والشجى طربه ، والباكى دموعه ، والمؤرخ أخباره ، والشاعر قصائده ، والمترنم حداءه وغناءه . عاشت فى المدينة، وهى وإن كانت حاضرة الملك بمنأى عنها غير أنها هى المدينة وكفى : دار المحدثين ، ومجتمع العلماء ، ومهوى أفئدة المسلمين من أقطار المعمورة . وهؤلاء إذا جاءوا المدينة جاءوها ومعهم مواهبهم وثقافاتهم ومعارف أممهم . . . وهكذا أتيح لسلامة أن تجد جميع أنواع الفاكهة فى بستان واحد ، وقد نهلت خير ما فيه . ولم تدع مزية من المزايا إلا كان لها منها حظ وافر ونصيب أوفر .

كانت سلامة مولاة لسهيل بن عبد الرحمن ، ثم تملكها يزيد ابن عبد الملك فى خلافة سليمان وعاشت بعده . ولئن كان اسمها يبدو فى مصاف الإماء والجوارى فلن يقدح ذلك فى قيمتها ولن ينحط بها عن قدرها ، فقد اعتز بها من كانت له اعتزازه بالخرائد من كرائمه . وإنك لترى فى الأموال المبذولة فى سبيلها ، وفى الجماهير القائمة لتوديعها ، وفى الزينات والجواهر التى تتنافس بها الأيدى فى تجميلها ما يدلك على أن سلامة إنما كانت مضنوناً بها وبشخصيتها، فهى بين الإماء اسما ولكنها بين أعز الحرائر كرامة وقدرا.

وقد اقترن باسم سلامة فى الشهرة والمكانة جارية أخرى هى حبابة نشأتا معاً بالمدينة ، وتشابهتا عزفاً وغناء ودماثة خلق ورقة طبع . وقد جمعت بينهما الأقدار فى قصر الخليفة الأموى ، إحداهما عن يمينه والأخرى عن يساره . إلا أن حبابة على ما نقله إلينا الرواة كانت تستمد من جمال صورتها مؤثراً تضفيه على غنائها بينما امتازت سلامة بأصالة فنها وقدرتها على الإبداع والابتكار وتفهم الشعر وقرضه بما أحلها المكانة التى لا تدانيها فيها حبابة .

وكانت لسلامة أخت تدعى «ريا» وهى على شاكلتها غناء وثقافة وإن لم تبلغ منزلتها وذيوع اسمها .

وقد صادف سلامة التوفيق وواتتها الأقدار فمهدت لها السبيل إلى دراسة فنية غنية تشرق فيها أسماء أعلام ملك بنى أمية فى الغناء .

فقد تتلمذت فى المدينة على جميلة ومعبد وابن عائشة فاعتصرت كل هذه المواهب وأضافتها إلى فطرتها وإلى علمها الكثير .

وفى القصة التالية نرى فى سلامة رسول السلام ، ومنقذة الفن وأسرته :

لما أقبل عثمان بن حيان المرّى واليآ على المدينة أفهمه بعض المتزمتين أن الأمر لن يستقيم له إلا باستبعاد الفساد وإخراج المغنين من المدينة . فأمر أهل الغناء بالجلاء وأمهلهم ثلاثة أيام للخروج . وكان رجل من أهل الفضل والصلاح هو ابن أبى عتيق غائباً عن المدينة فلما حضرها أفهمته سلامة الخبر فقصد الوالى وأظهر له استحسان ماصنع من إخراج أهل الغناء والرثاء . ثم قال له ولكن ماتقول فى امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تكره على ذلك ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير ؟ فقال الوالى إنى أدعها لك ولكلامك . فقال ابن أبى عتيق ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر إليها فإن رأيت أن مثلها ينبغى أن يترك تركتها . فقال نعم . فجاءه بها وقال لها اجعلى معك سبحة وتخشعى ففعلت . فلما دخلت على عثمان حدثته وإذا هى من أعلم الناس ، فأعجب بها . وحدثته عن آبائه وأمورهم ففكه لذلك . فقال لها ابن أبى عتيق اقرأى للأمير . فقرأت له . فقال لها إحدى له . لحدت ، فكثر تعجبه . فقال ابن أبى عتيق للوالى كيف لو سمعتها

فى صناعتها ! ! فلم يزل ينزله شيئاً فشيئاً حتى أمرها بالغناء فغنت .
فقام عثمان من مجلسه فقعد بين يديها ثم قال : لا والله ما مثل هذه
يخرج . قال ابن أبى عتيق : لا يدعك الناس ، ويقولون إنك
أقررت سلامة وأخرجت غيرها . فقال الأمير : دعوهم
جميعاً . فتركوهم .

هذا هو سحر الفن ، استطاع أن يثبت أقدام أصحابه
وينقذهم من تشريد كان يتهددهم ، لولا حيلة ابن أبى عتيق
وبراعة سلامة .

وسلامة هذه هى التى فتنت العابد وتدله فى هواها الزاهد ،
فقد استمع إليها القس وهو من هو فى تبتله وورعه ، فما كاد يرن
فى سمعه صدى صوتها الساحر حتى خفق قلبه ، وما كاد يراها حتى
ذهل لبه . لقد جره إلى سماعها مولاها وهو مستمسك بورعه
متردد . ثم تلاقيا وتحدث كل منهما إلى صاحبه بما تكنّ له خواطره
وتنطوى عليه مشاعره من أحاسيس متأججة وهوى متبادل .
وكيفما كان هذا الشعور بينهما فقد كان حباً عفيفاً تصونه نبالة
القصد وسمو العاطفة . ولقد عاد القس إلى نسكه ولكن تباريح
صبابته لازمته وعاودته فأنطقته بالكثير والكثير . من ذلك :

سلاّمُ هل لى منكمْ ناصر   أم هل لقلبى عنكمُ زاجر
قد سمع الناس بوجدى بكم   فمنهم اللائم والعاذر

ولما قدم يزيد بن عبدالملك الحجاز قبل توليته الخلافة رأى سلامة فراقه أن يشتريها وأمرها أن تغنيه فكان أول شعر غنته بين يديه مما نظمه القس فى التشبب بها ، وهو قوله :

إن التى طرقتك بين ركائب   تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة   إن الرفيق له عليك زمام
قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها   فاعجب لما تأتى به الأيام

ولما طرب يزيد لما سمعه منها ضمها إلى مواليه . فغنته من شعر القس فيها قوله :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر
وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها
يطير إليهـــا قلبه حين ينظر

ولما أكثرت على يزيد من أغانى القس فى وصفها والحنين إليها سألها عنه وعنها فأنبأته بما كان بينهما فأعجب بغرامهما ورق لحال القس وبراءة حبه .

ولما أقبل رسل اليزيد لنقلها من المدينة إلى الشام وقد بُذل فى شرائها عشرون ألف دينار أراد مواليها تكريماً لها وللأمير أن يمهلوها عن الرحيل أياماً لتجهزها فيها بما يليق بها من حلى وثياب وطيب وزينة . فقالت الرسل هذا كله معنا لا حاجة بنا إلى شىء

منه . وأمروها بالرحيل حتى نزلت سقاية سليمان بن عبدالملك وشيعها الخلق من أهل المدينة . فلما بلغوا السقاية قالت للرسل قوم كانوا يغشوننى لا بد لى من وداعهم والسلام عليهم . فأذن للناس عليها فانقضوا حتى ملأوا رحبة القصر وما وراء ذلك . فوقفت بينهم ومعها العود فغنتهم :

فارقونى وقد علمت يقيناً ... مالمن ذاق ميتة من إياب
إن أهل الخضاب قد تركونى ... مولعاً موزعاً بأهل الخضاب

فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها فلم يكن غير باك .

وهذا من سلامة وفاء أى وفاء . وما كان أحرى مثلها بالزهو والافتخار وركوب الصلف والاختيال وهى ماضية إلى قصر وإمارة وأبهة ملك ، وأن تنسى كل شئ ، لولا نفس عالية أخذت من كرامة الوفاء بحظ عظيم ، فغنت وجعلت غناءها بكاءً وبكاءها غناءً .

ولما اعتلى الأمير الأموى يزيد بن عبدالملك عرش الخلافة تقاسمت كل من سلامة وحبابة قلبه وتنازعتا حبه وكان لكل منهما عنده الحظوة والمكانة ، وإن كان قلبه إلى حبابة أميل . إلا أن حبابة عاجلتها المنية فماتت عام ١٠٥ هـ (٧٢٤م) بعد ثلاثة أعوام من

خلافة يزيد وأصابه حزن لم يزل به حتى قضى نحبه . ولم يعش بعدها سوى خمسة عشر يوما .

أما سلامة فقد عاشت بعد يزيد ، ولكنه عيش لازمها فيه وفاؤها . وقد رثته بما أبكى القلوب وأسال الدموع وفتن الأسماع ، قالت :

ياصاحب القبر الغريب	بالشام من طرف الكثيب
بالشام بين صفائح	صم ترصف بالجنوب
لما سمعت أنينه	وبكاءه عند المغيب
أقبلت أطلب طبه	والداء يعضل بالطبيب

ومن هذا أيضاً يتبين لنا مقدرة سلامة على إجادة فن المراثى والنواح إجادتها لبقية ألوان الغناء . وقد أسلفنا الإشارة إلى هذا النوع من الغناء الذى كان شائعاً متداولا ، ومحبوباً بين عشائر الحجاز وقبائل العرب .

وكذلك شاء القدر أن تكون خاتمة يزيد وفاءً لحبابة ، وخاتمة سلامة وفاءً ليزيد فكانت فى ذلك أوفى الجميع .

مَالِكُ بْنُ أَبِي السَّمْح

أحد أعلام الغناء الأفذاذ فى ملك بنى أمية الذى بلغ أوج حدود المدنية فى الشرق والغرب . ولعلنا نجد فى مالك هذا من دروس الأخلاق وعظاتها ومزايا العبقرية ومقوماتها أكثر مما نجد فى سواه . سنجد فيه الفقير المتعفف ، والمكافح الصبور ، والصريح العنيف ، والبار الوديع ، والفنان المعتز بكرامته ، والتلميذ البار بأستاذه ولو أدى ذلك البر إلى إفناء شخصيته والتنازل عنها فى مرضاة معلمه ومربيه . على أنه مهما حاول هو أن يبذل ما يبذل من ذات نفسه فإن لهذه النفس حقها فى البقاء ومكانتها فى الخلود

هو مالك بن جابر بن ثعلبة الطائى قد فرت به أمه مع اخوته الأيتام على أثر كارثة قذفت بهم من الجبلين التماساً لضرورة الحياة فى المدينة .

ولم ير الصبي بابا للرزق إلا أن يطلبه استجداءً . ولم يجد أوفى مكسباً ولا أربح صفقة من لزوم باب حاكم المدينة حمزة بن عبد الله ابن الزبير .

وفى تلك الآونة كان معبد مغنى الأمير وبلبل قصره ، انقطع

للغناء له ملء ليله ونهاره . وهنا نرى الصبى المعدم مالكا بن أبى السمح يستيقظ فيه وعيه الموسيقى ، وتتنبه موهبته على سحر النغم الشجى فينقلب من متسول إلى تلميذ ، ومن طالب خبز إلى طالب فن ..

ها هو ذا ينسى مجاعته ومسغبة أمه وأخوته ، ويقطع بياض نهاره لا يلم بشىء من حاجته الملحّة وفاقته المريرة ، ولا يمر بأبواب المدينة ومزاراتها ليسأل الناس ، فقد ربطه النغم بسلسلة مسحورة على باب الأمير لا سبيل له إلى الفكاك منها ، حتى ينصرف مع الليل إلى أمه خاوى الوفاض فتوسعه شتما وضرباً . أما هو فلا عليه من ذلك فليتألم الجسد ما شاء أن يتألم ما دامت الروح ترفل فى أثواب فضفاضة من نعمة الفن وجمـــاله . فقد ترنم بألحان معبد وحذقها دَوراً دَوراً فى مواضع صيحاته وتجاوبه ونبراته ، دون أن يحفظ الشعر . وقد يكون ذلك لبداوته البعيدة عن متناول هذه الأشعار . وقد يكون مرجع هذا أنه كان بالباب ومعبد داخل القصر حيث يكون استيعاب أصوات اللحن أيسر من تناول ألفاظ الغناء . وقد يرجع السبب أيضاً إلى فقدان وضوح الألفاظ حيث يسيطر الغناء بموسيقاه على مخارج الحروف الأصلية . وكيفما كانت هذه الأسباب كلها أو بعضها فقد دلت الواقعة على أن الأدوار كان لها ربط معين ولحن ثابت ، وعلى أنه هو أيضاً كان متين الوعى ، قوى الذاكرة ، موهوباً فى موسيقيته ، مضيئاً فى مستقبله

المرجو له حيث لاتنجذب النفوس إلا إلى أشباهها وما يتصل بمواهبها . وناهيك بصبي أعرابى ينسى نفسه الحائرة وأمه الغريبة وأخوته الجياع ليستجيب إلى طموحه الروحى الذى يناجيه فى أغانى معبد .

وكان حمزة يراه كلما خرج من قصره أو عاد إليه ، فاسترعى نظره أن يرى غلاماً أعرابياً يلازم باب قصره . فلو أنه كان صاحب حاجة لانقضت ، ولكنه يأبى إلا تلك الملازمة . فأراد الأمير أن يتعرف لها سبباً ، فاستدعاه ، وقال له من أنت ؟ قال غلام من طىء قد ألجأتنا المحنة إليكم ومعى أم لى وأخوة . وبيّن له أن غناء معبد هو الذى حمله على ملازمة بابه . فسأله عما يحفظه منه . قال أعرف ألحانه كلها ، ولا أعرف الشعر . فقال حمزة إن كنت صادقاً إنك لفهم . وأمر معبد بالغناء ثم أشار إلى الغلام أن يعيد ما سمع فأدى نغمه بغير شعر ، وعلى أسلوب معاصريه ، فقد استوعب مداته ولياته وعطفاته ونبراته وتعليقاته ، دون أن يفوته من ذلك شىء .

فطلب الأمير إلى معبد ، أن يتخذه تلميذه وراويته ويتعهد تخريجه . ولعل معبداً قد خشى أن تتجدد فى هذا الغلام قصة الغريض مع أستاذه ابن سريج حيث بدأ بتعليمه فكان له منه شر منافس وألد خصم ، ينازعه الفن والمجد والشهرة . فتردد معبد

بادىء الأمر . ولكن الأمير أقنعه وأرضاه وقال له من الخير لك أن تعلمه فتصبح محاسنه منسوبة إليك وإلا عدل إلى غيرك فكانت محاسنه منسوبة إليه . ففطن معبد إلى هذه الحقيقة ، وتقبل الغلام قبولا حسناً .

وتحول الأمير إلى مالك يقول له : كيف وجدت ملازمتك لبابنا ؟ وهنا نجد صراحة الفنان ، أو صراحة العربى الكريم على نفسه ، بل صراحة الفرد من الأمة القوية المجيدة الذى يحمل بين جنبيه طابع أمته حيث يقول الحق غير هيـــاب ، وفى وجه أى إنسان ولو كان هو الأمير نفسه . فبماذا أجاب ؟

قال مالك : أرأيت لو قلت فيك من الباطل غير الذى أنت له مستحق أكنت ترضى بذلك ؟ قال لا . قال كذلك لا يسرك أن تحمد بما لم تفعل . قال حمزة نعم . فقال مالك والله ما شبعت على بابك شبعة قط ولا انقلبت منه إلى أهلى بخير .

فأمر له ولأسرته بمنزل وراتب وكسوة وخدم . وأذن له أن يجالسه وأن يطارح معبداً الغناء ، حتى ارتفع اسمه وعلا نجمه .

وخرج مالك ذات يوم فسمع امرأة تنوح على قتيل ببعض أبيات فحفظ الشعر وصنع له لحنين ، نحا فى أحدهما طريقة معبد أما الثانى فقد تأثر فيه بنواح تلك المرأة ورققه وخلع عليه حلة طريفة من فنه . ثم مضى إلى الأمير وعرض عليه اللحنين باديا بأولهما على

أسلوب معبد فاستحسنه ، وكأنه قد رأى فيه التلميذ الناجح فى تقليد أستاذه . فلما أسمعه اللحن الثانى بلغ طرب حمزة مبلغاً جعله يلقى عليه حلة فاخرة من ثيابه . وهنا يدخل معبد ويرى حلة الأمير تتلألأ بجواهرها اللامعة على تلميذه فيتنكر لهذا المشهد ويرى فيه مالم يكن يدور بحسبانه . فلم يمهله الأمير بل أمر الغلام أن يغنيه . وهكذا بدأ مالك تلك البداية السابقة فألقى اللحن الجارى على أسلوب معبد فثارت ثائرته وقال لقد كرهت أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غنائى ويدعيه لنفسه . فقال له الأمير لا تعجل واسمع غناءً صنعه ليس من شأنك ولا من غنائك . فغنى مالك الصوت الآخر فأطرق معبد . فلما رأى الأمير منه ذلك أراد مواساته وعتابه ، ونصحه بألا يضيق ذرعاً بالغلام وقال له « والله لو انفرد بهذا لضاهاك ثم يتزايد على الأيام وكلما كبر وزاد شخت أنت ونقصت فلأن يكون منسوباً إليك أجمل » . وما كان لمعبد إلا أن يذعن مجيباً بأن قد صدق الأمير . وترضاه حمزة بخلعة وجائزة .

وهنا تتجلى أمامنا فضيلة ثانية للفنان الناشئ الفتى هى فضيلة الاعتراف والتقدير للأكبر الأسن وللأستاذ الأسبق والمعلم الأول . فإن مالكا لم يكد يلمح فى أستاذه معبد ضيقاً وازوراراً حتى نهض وقبّل رأسه وقال له « والله لا أغنى لنفسى شيئاً أبداً مادمتَ حيا ، وإن غلبتنى نفسى فغنيت فى شعر استحسنته لا نسبته إلا إليك فطب نفساً وارض عنى » .

فقال له معبد أو تفعل هذا وتفى به ؟ قال مالك أى والله وأزيد .
وكان مالك بعد ذلك عند وعـــده وعهده فإذا غنى لحناً جميلا واستحسنه الناس وسألوه عنه قال : هذا لحن لمعبد ما غنيت لنفسى شيئاً قط .

وهكذا يضيف مالك إلى فضائله السابقة فضيلة الوفاء بالعهد ورعاية حرمة أستاذه .

أما منزلته فى الغناء فقد بلغ منها الذروة الرفيعة ، وكاد يتقدم القافلة . حدثوا أن أمير المؤمنين الوليد بن يزيد تبرم يوماً بعَلَمى الغناء فى عصره معبد وابن عائشة فقال للأول لقد آذتنى ولولتك ، وللثانى قد آذانى استهلالك ، فانظرا لى رجلا يكون مذهبه وسطاً بين مذهبيكما ، فأشارا عليه باستدعاء مالك بن أبى السمح فاستقدمه مع سائر مغنى الحجاز المشهورين . ولم يكتب لمالك النجاح فى الجولة الفنية الأولى فقدهاب الخليفة ومقامه وهو الأعرابى البعيد عن قصور دمشق وحضارتها . ولما التمس الإذن عليه مرة أخرى غناه شعراً لم يكن فى مدح الوليد بل فى مدح مالك نفسه . أرأيت مثل هذا اعتزازاً من الفنان بقيمته وشعوراً بشخصيته !! فبدل أن يغنى فى وصف أمير المؤمنين غنى متفـاخراً بقوله :

لا عيش إلا بمالك بن أبى الـ   ـسمح فلا تلحنى ولا تلم
أبيض كالبدر أو كما يلمع الـ   ـبارق فى حالك من الظلم

من ليس يعصيك إن رشدت ولا يهتك حق الإسلام والحرم
يصيب من لذة الكريم ولا يجهل آى الترخيص فى اللمم
يارب ليل لنا كحاشية الـ ـبرد ويوم كذاك لم يدم
نعمت فيه ومالك بن أبى الـ ـسمح الكريم الأخلاق والشيم

فنسى الوليد كل شئ إلا الطرب ، ونهض واعتنق المغنى قائماً وأجزل له العطية عند انصرافه .

كان مالك من أعلام الطبقة الأولى فى الغناء حتى كان إسحق ابن ابراهيم الموصلى كثيراً ما يقول : نوابغ الغناء فيما مضى أربعة مكيان هما ابن محرز وابن سريج ومدنيان هما معبد ومالك .

ولقد كان وفاؤه لمعبد ونسبة كل ألحانه إليه يعرضه للتهمة فى فنه وتأليفه أو أن ينتحل ألحان غيره لنفسه . وقد قام إسحق الموصلى لتاريخ هذا الفنان بتفنيد هذه المزاعم حين قال : غناء مالك كله مذهب واحد لا تباين فيه ولو كان كما يقول الناس لاختلف غناؤه .

وقد عمر مالك حتى بلغ الثمانين ، ووافته المنية عام ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) فى أول عهد بنى العباس .

أعلام عصر الدولة العباسية

(١٣٢هـ/٧٥٠م – ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

إبراهيم الموصلى

هو ابراهيم بن ميمون ، أو الفتى الموصلى . وهذه النسبة أطلقت عليه على سبيل الشهرة والتغليب . وإنما كانت حياته بالموصل حياة مغترب نازح فرّ من أهله وذويه ، ومن تزمت البيئة وقسوتها ، ملتمساً فى الفضاء الرحب الفسيح هوايته الموسيقية . فهو كوفى المولد . ولعل بيته الفارسى قد نزح من بلاد العجم إلى هذه المدن العربية عند بداية الفتح الإسلامى أو مابعده بقليل .

ونحن نرى أن هذا النجم العالمى اللامع فى سماء الموسيقى قد استقبلته الأحداث والكوارث المضنية منذ طفولته الباكرة . فها هى صدمة اليتم الأليم تستنزل الدموع على خده الباسم ولما يتجاوز الثالثة من سنه . وقد كفله بعد موت أبيه آل خزيمة ابن خازم . وأقام مع أمه وأخواله حتى ترعرع .

كان إبراهيم ينتمى إلى شرف بيت مجيد من بيوتات فارس ، فلما أحب الغناء وتطلعت إليه نفسه لقى حرباً ضروساً من أهله . ولما أوذى فى سبيل الفن لم يجد مناصاً من الرحيل عن البيت والقبيل إلى الحياة بالموصل ، وهى حياة مضطربة لا تجد فيها وجهاً

من وجوه الراحة . ولا يبدو لك أنه أصاب بها الدراسة المنظمة والبغية المنشودة ولكنه على كل حال وجد الحياة الحرة ، ووجد شيئاً من الغناء والطرب عند الصعاليك الذين كانوا يعلنون الحرب على القوافل ثم يأخذون منها طوعاً أو كرها ما يعيشون به عيشاً هو المرح والنشوة والغناء ، غير خاضعين فى شىء للتقاليد والأوضاع . وأفاد إبراهيم من معاشرة هؤلاء ، فقد يكون فيهم مثله ممن ضاقت عليه بلاده وصادرته بيئته فى تعلم الغناء ، فالتمس وجه الحيلة فى التمتع بحريته مع أولئك المتصعلكين .

رأى إبراهيم فى نفسه أن الموهبة آخذة فى النمو والازدهار ، وأنه قد تفوق أولئك المغنين فى الموصل ، وألا بد له من طلب المزيد ، فهذا القدر من الموسيقى ليس بالذى يشبع رغبة طامحة بعيدة المدى . فبدأ يغترب ، ويتنقل ، وتترامى به المدن والأنحاء ، حتى انتهى به المطاف إلى الرى ، وهى مدينة تشغل من التاريخ العباسى على وجه خاص جانباً غير قليل فى حضارتها ومدنيتها وعلومها وسياسة الحكومة فيها انقساما والتئاما مع الخلافة . فلقى بها إبراهيم صفوة من الموسيقيين والمغنين من عرب وفرس ، ومن ثم أخذ الغناء بنوعيه حتى مهر فيهما وبرع . وطالت إقامته فتزوج من دوشار ثم شاهك التى أنجب منها إسحق وبقية ولده .

وكان إبراهيم إذا لم يجد الشعر السليم التمسه فى تأليفه هو ثم لحنه . فكان المؤلف والملحن والمؤدى . ومن ذلك ما قاله فى دوشار :

دوشار يا سيدتى يا غايتى ومنيتى

وياسرورى من جميع الناس ردّى سنتى

وليس لنا أن نمر بهذا مرور العجلة دون أن ننوه بأن عملية التكديس والتكويم والحشد هذه ليست من الأوضاع السليمة إلا فى الوقت الذى يكون الفن فيه ساذجاً بسيطاً وغير ناضج فى أية ناحية من نواحيه . وقراءة هذا البيت نفسه تقدم لك الدليل على ضعفه .

وبدأ نجم ابراهيم يلمع فى الأفق ، ويتلقفه العلية والأشراف ثم الأمراء . فاستخلصه الأمير محمد بن سليمان . وأمر المهدى بعد ذلك بإشخاصه إليه ببغداد .

وقد عاتبه المهدى على الشراب وحبسه فكانت فرصة سانحة أجاد فيها القراءة والكتابة . ولكن ذلك لم يجده شيئاً إذ عاد إلى الشراب ومنادمة موسى وهارون ابنى المهدى رغم منعه إياه من الدخول عليهما ، وقد أمر بضربه وقيده وحبسه . ثم خاف المهدى على حياة ابراهيم فأطلقه بعد أن استحلفه وأخذ عليه المواثيق ألا يعود إلى الدخول على ولديه .

ثم مات المهدى ، وكأنما قد توارى معه إلى القبر العهد الأول من حياة إبراهيم ، ذلك العهد الملىء بالشؤم والتعاسة والأكدار ، عهد اليتم والغربة والتشرد والاغتراب والضرب والقيد والحبس ، ليرى عهداً سعيداً فى مجالسة الأمراء ومنادمة الخلفاء .

كان عهد الهادى بداية لسعادة ابراهيم . ولكنها بداية كاملة لم تسبقها مقدمات ولم تجر على سنة التدرج . بل نثر الخليفة عليه النعم حتى كاد يغرق فى لجتها ، وحسبك من هذا أنه فى يوم واحد أجازه بمائة وخمسين ألف دينار .

وكان الناس قبل إبراهيم يعلمون جواريهم الغناء على قدر لياقتهن واستعدادهن ، وكان ذلك مقصوراً على السود وأشباههن . وقد رفع ابراهيم قيمة هذه المدرسة فكان أول من علم الجوارى والقيان البيض هذا الفن فجمع لهن بين الجمال من طرفيه : حسن المنظر وحسن الشدو فى النغم . وبذلك أعلى مكانة الموسيقى بقدر ما رفع من شأن القيان .

انقلب ابراهيم الفنان إلى متّجر ماهر دون أن تتأثر موهبته . بل لعل هذه المتاجرة وتلك الأرباح مما شجعه على الاستزادة والابتكار ، وهو مع ذلك شحيح ضنين لا يزيده الكسب والثراء إلا رغبة فيهما وحرصاً على المزيد منهما . يشترى القينة بالثمن البخس فيضيف إليها من بارع الغناء ما يجعلها جديرة بالثمن الربيح .

وحدثوا أن ضيعة إلى جواره أعجبته ، ولديه من المال ما يشترى ضياعاً ، ولكنه سخّر الفن للحصول على ثمنها، فأرسل تلميذه مخارقا وقد لقنه لحناً فى مدح الوزير يحيي بن خالد البرمكى ليلقنه بدوره إحدى جواريه . وقد سرُ يحيي بما سمع وأرسل إلى ابراهيم مائة ألف درهم ثمن الضيعة . ولكن ابراهيم أبى إلا أن يستمسك بالمال ويبحث عن ثمن الضيعة من جديد . فكرر القصة بعينها مرتين فى لحنين قدم أحدهما للفضل بن يحيي والثانى لأخيه جعفر . وحصل ابراهيم على ستمائة ألف درهم لنفسه ، ولتلميذه مخارق على ستين ألفاً . ولم يشتر ابراهيم الضيعة ضناً منه بالمال . ولولا أن يحيي بن خالد قام بالإنقاذ وحل المشكلة بشراء الضيعة وإرسال صكها إلى ابراهيم ليتملكها ويريح نفسه والناس معه لضاعت بقية أموال الدولة فى ضيعة ابراهيم .

وكان ابراهيم على هذا يضع الغث والسمين من الألحان ، وينشئ الغالى والرخيص منها ، فهو تاجر لا تستوى عنده السلع . ويمكن القول بأن كل من ينشئ ليبيع ويربح مستهدف لفقد الإتقان والإجادة فى كثير من حالاته ، ولن يكون إنتاجه على درجة واحدة .

قال إسحق الموصلى ابن ابراهيم لابنه حماد : « صنع جدك تسعمائة صوت ، فأما ثلثمائة منها فإنه تقدم فيها الناس جميعاً ، وأما

ثلثمائة فشاركوه وشاركهم فيها ، وأما الثلثمائة الباقية فلهو ولعب » .
وكان إسحق يحاول إبعادنسبة هذه الأصوات الأخيرة إلى والده ضناً بمقامه الفنى مكتفياً بأن ينسب إليه تلحين ستمائة صوت فحسب.

كان ابراهيم كما قلنا يعلم الحسان من القيان هذا الفن ليعلو بقيمة الغناء فى طبقة هؤلاء المقربات إلى كبار الأسر . وأقبل مرة على ابنه اسحق رجل من تلك الطبقة الممتازة يريد تعلم الغناء ، فأبى اسحق لأنه شك فى استعداده وقدرته ، فانتهره ابراهيم وأوهم الرجل أنه على ضد ما يقول إسحق ، ولما خلا بولده إسحق قال: « ياأحمق ماعليك أن يخزى الله مائة ألف من أمثاله ، هؤلاء أغنياء وملوك يعيرونا بالغناء فدعهم يسمعوا مثل هذا الرجل ليظهر فضلنا » .

استدرك إسحق فى مجلس الرشيد على مخارق خطأ وقع منه فى تقسيم غنائى فأعلن ذلك، وكان ابراهيم بن المهدى حاضراً فأنكر أن يكون ثمت خطأ قد وقع فى الأداء . فاستحضر الرشيد ابراهيم الموصلى عليلا فجئ به محمولا على محفة ليكون حكماً . فلما أعاد مخارق الغناء حكم ابراهيم بما حكم به إسحق . واستكتبهما الرشيد رقعتين بتسجيل موضع الخطأ فكان قولهما واحداً . وفى هذا ما يدل على أن أرباب الهواية الموسيقية مهما بلغوا من الدقة والمهارة والمعرفة فليس لهم أن يبلغوا درجة المحترفين المتخصصين

الذين وقفوا جهودهم على فنهم ، مصدر حياتهم ومادة وجودهم .
ومن ناحية أخرى تدل هذه الحادثة على مبلغ الدقة الفنية ، وأن الألحان قد بلغت من النضوج مستوى رفيعاً من التنظيم والتنسيق والتحديد حتى ليُدرك الخطأ فى موضع واحد من ابراهيم وإسحق فيتحد فيه قولهما ورأيهما .

وقد لا يتحدان فيقع الخلف وتقوم الخصومة الفنية بينهما، فيناقض الابن أباه ، ولكنهما مع ذلك يتحاكمان إلى الفن والعقل والذوق .

هذا إسحق يحدثنا أن أباه لحن أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة فعاب صنعة أبيه فيها . وكان معقولا أن ينتهر إبراهيم ولده إسحق فيقف الأمر عند هذا . ولكن حرية الرأى الفنى كانت من النضوج بحيث دفعت ابراهيم إلى الصبر ، فتحدّى ولده بخير ماعنده من الألحان إلى جانب هذه المقطوعة التى لم يرقه لحنها . وتراضيا على التحاكم إلى أول مارٍ بهما ، وكان طريقهما الصحراء . فأقبل عليهما رجل من النبط[1] يحتطب الشوك على دابته ، فاحتكما إليه ، وأسمعه كل منهما لحنه ، فكان الفوز لإبراهيم .

أما أبيات عمر فهى :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لايستبد
زعموها سألت جارتها   ذات يوم وتعرّت تبترد

---

(١) النبط : واد بناحية المدينة .

أكما ينعتنى تبصرننى عمركن الله أم لا يقتصد

فتضاحكن وقد قلن لها حسن فى كل عين من تود

حسداً حمّلنه من أجلها وقديماً كان فى الناس الحسد

ولعل هذه الأبيات على قصرها ، وقلتها ، تشف عن نواة القصة فى الشعر العربى . ونرى فيها ابراهيم ملحناً مسرحياً ، وإن كان فى صورة يلابسها الإيجاز والاختصار .. ألا إنها قصة شاعر يتحدث عن حبيبته وهى تسأل جاراتها عن مقدار صدق الشاعر فيما وصفها به من الحسن .

أما أغنية إسحق ففى هذين البيتين :

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذى أرد ت وإن كنت لاعبا

وأروع من هذا وذاك أن يبلغ النضج الأدبى والفنى هذا المستوى من الشعر المتخير والفكرة المنتقاة ، وأن يكون النقد فيه ميسوراً ومقدوراً لحطاب أو حمّال يستطيع أن يحكم حكما مرضيا بين أعظم فنانين فى أزهى عصور الدول الإسلامية .

وكان ابراهيم يحسن الإفلات ويجيد الحيلة حين يضيق عليه الشرك ، أو حين يريد الكشف عن حقيقة فنية يجليها على ما ينبغى لها :

غنى ابن جامع ثلاثة ألحان أمام الرشيد تباعاً ، وادعى أنها من تراث الأقدمين . ولما سئل ابراهيم عنها قال لا أعرفها ، وكان

ذلك خذلاناً له . فوجّه ابن الرف ، أحد كبار المغنين ، فى اليوم التالى إلى ابن جامع يتظاهر بتهنئته ويجتهد فى أخذ تلك الألحان عنه . فنجحت الحيلة وحفظها عنه ابراهيم . وبكر إلى الرشيد وأظهر أمامه أنه كان يعرفها من قبل وإنما تظاهر بالجهل بها تحشما واحتراما لميل الرشيد إلى ابن جامع ورغبته فى مناصرته . ثم غناها صوتاً صوتا . فأقسم ابن جامع بأن ابراهيم لا يمكن أن تكون له سابقة علم بها لأنها من صنعته ولم يخرجها لأحد . فكان ذلك هو الانتصار لإبراهيم لأنه ما كان يريد غير الوصول إلى هذه الحقيقة بين يدى الرشيد وهى نفى التقصير عنه بنفى كونها من التراث القديم الذى لا ينبغى لمثله أن يجهله .

على أن هذين العبقريين ابراهيم وابن جامع بلغا من المقدرة وسعة الإدراك وحدة الذهن ما تعد رواياته من الإعجاز . ولكن الغرابة يهون أمرها من مثلهما إن كان لهما مثل :

زار ابن جامع يوما إبراهيم فأخرج إليه ثلاثين جارية فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين . فقال ابن جامع : فى الأوتار وتر غير مستوٍ . فأشار إبراهيم لجارية من بين الجوارى وقال لها : شدّى مثناك[1] . فشدته الجارية فاستوى . فعجب من حضر لفطنة ابن جامع لوتر غير مستوٍ فى مائة وعشرين وتراً ، ثم ازداد عجبهم من فطنة ابراهيم للوتر بعينه .

---

(١) المثنى الوتر الثانى من العود .

وكان إبراهيم رجلاصريح التعبير جريئاً . ومن الناس من يفعل الخير ويسلك سبيل الفضيلة فيحوط نفسه بالكثير من الدعاوى، بينما يصنع ابراهيم ذلك ثم لا يرى بأساً أن يصارحك بأنه صنع ما صنع خوفا لا تعففا .

ومن حقنا أن نسأل ابراهيم عن الحالة النفسية التى يستوحى بها ألحانه . وها نحن نراه فى حالة نعرفها عن أفذاذ العباقرة، يفرغون أنفسهم من شواغل الحياة ويصبحون فى حالة استغراق وتوجه فنى محض، فإذا بهم يأتون بالعجب العجاب . سأله الرشيد يوما كيف يصنع إذا أراد أن يصوغ الألحان فقال : «ياأمير المؤمنين أخرج الهم من فكرى وأمثل الطرب بين عينىّ فتنفتح لى مسالك الألحان فأسلكها بدليل الإيقاع فأرجع ظافراً بما أريد» .

وقد أراد إبراهيم أن يكون له شيطان يعلمه ويلهمه . وما دام لأولئك الشعراء فى الجاهلية شياطين، وما دامت الجن فى الغيران (١) والكهوف النائية تلهم القصائد والمعلقات، فليكن لإبراهيم واحد من أولئك . فالشعر والغناء متلازمان منذ قديم الزمن .

لقد خلا يوما بحرمه وجواريه . وأمر خدمه وغلمانه بأن يغلقوا عليه الأبواب فلا يأذنوا لأحد . وبينما هو كذلك أقبل

---

(١) المفرد غار .

عليه رجل وسيم تظاهر بالخبرة وراح يمتحن إبراهيم حتى استنفد ما عنده من فن ومن صبر. ثم أخذ هو العود فكاد ينطقه. ثم غنى أبياتاً وأبياتاً حتى ظن إبراهيم أن جدران المنزل وأبوابه تتجاوب معه من حسن غنائه. ثم قال له: هذا هو الغناء الماخورى فتعلمه أنت وجواريك. واختفى عنه ذلك الشيطان الذى زعم إبراهيم أنه إبليس اقتحم عليه داره والأبواب مغلقة، حتى ليقول «لقد هتف لى من بعض جوانب البيت أن لا بأس عليك يا أبا إسحق، أنا إبليس كنت جليسك ونديمك اليوم».

ويبدو لنا أنه كان يحاول التفوق على أنداده عند الرشيد بمثل هذه المبتكرات والمستحدثات. وما دام ابن جامع قد استباح أن يصطنع ألحاناً ويعزوها إلى القدماء فلمَ لا يطارحه إبراهيم غناءً يعزوه إلى الشياطين الذين هم أقدم من أصحاب ابن جامع وأقدر من أساتذته. وإنما يحمل المغنين على مثل هذا ما كان للرواية من قيمة عالية فى ذلك العصر، ولهذا يقول الأصفهانى: لعل إبراهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق [1] بها.

ولقد كان من الخير لإبراهيم ألا يصطحب الشياطين ليستعين بهم وينسب إليهم ما حبته به الطبيعة من فن ساحر، كان ينتزع به الخلفاء والأمراء من وقارهم وهيبتهم:

---

(١) نفقت السلعة: كثر طلابها.

كان إبراهيم بحضرة الرشيد يوماً فى صفوة من الفنانين فعزف زلزل بالعود ، وزمر برصوم بالناى، وغنى إبراهيم. فطرب هارون حتى وثب من مكانه وقال : يا آدم لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسرك . ثم استعاد هدوءه فجلس وقال استغفر الله .

وكان لإبراهيم ما لكثيرين من الفنانين من الدواعى العاطفية التى تثير أشجانه فتجعله شاعراً ملحناً . وقد هام بجارية تعرف بذات الخال كانت من أجمل النساء وأكملهن . وكان لشعره وغنائه فيها الأثر الكبير فى شهرتها [1] .

أما آخر لحن صاغه فى آخر شعر قاله فهو ذاك :

مل والله طبيبى عن مقاساة الذى بى
سوف أنحى عن قريب لعـــــدو وحبيب

قال ذلك حين طال عليه المرض وانقطع عن خدمة الخليفة . ولكن كان حسبه أن يعوده الرشيد فى لحظاته الأخيرة . وقد سأله كيف أنت يا إبراهيم ؟ فقال أنا والله يامولاى كما قال الشاعر :

سقيم مل منه أقربوه وأسلمه المداوى والحميم

فقال الرشيد إنا لله ، وخرج، فلم يبتعد حتى سمع الناعية عليه . ومات إبراهيم سنة ثمانية وثمانين ومائة هجرية (٨٠٦ م) .

* * *

كان إبراهيم نابغة عصره لا ينافسه على مكانته الفنية فى العصر العباسى سوى ولده إسحق .

---

(١) راجع ترجمة ذات الخال فى هذا الكتاب .

وفيما قاله محمد بن الحسن عنه : كان لكل واحد من المغنين مذهب فى الخفيف والثقيل فكان معبد ينفرد بالثقيل وابن سريج بالرمل وحكم الوادى بالهزج ولم يكن فى المغنين أحد يتصرف فى كل مذهب من الأغانى إلا إبراهيم الموصلى .

وقد جاءت حياة إبراهيم مصداقاً لنبوءة يونس الكاتب فقد أدركه إبراهيم وهو فى شيخوخته فعرض عليه غناءه فقال : إن عشت كنت مغنى دهرك .

وكان إبراهيم وابنه إسحق من أنصار القديم والمتعصبين لطرائق معبد وأسلوب المدرسة القديمة فى الغناء . وطالما بذلا الجهود فى الدفاع عن مذهبهما ، بحضرة الرشيد لمقاومة المدرسة الجديدة التى يتزعمها ابن جامع ، ويؤيدها إبراهيم بن المهدى أخو الخليفة بفنه ونفوذه .

وأما ثروته المالية فقد بلغ بها الملايين ، وقد أحصاها ابنه اسحق بأربع وعشرين مليون درهم ، حازها من هبات الخلفاء والأمراء والوزراء ، ومن ثمن القيان وأجور تعليم الجوارى . ولأول مرة فى تاريخ التربية والتعليم الموسيقى عند العرب نرى مدرسة نسوية تلميذاتها ثمانون جارية بينهن بعوث من أصدقائه الذين وكلوا إليه تعليمهن ، فكن باكورة الثمرات لأول مدرسة موسيقية فى الأسلام .

زلزل

فى نهاية القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع ، وفى قمة العصر الذهبي من ملك بنى العباس ومدنيتهم التى بسطت جناحيها على أعظم امبراطورية إسلامية ، ظهر منصور زلزل الضارب — أي العازف فى لغتنا — من سواد أهل الكوفة . وقد تسنم غارب الشهرة الموسيقية فى العزف حتى كان أشهر من وقع بالعود فى دولة بنى العباس . وتمتع بمكانة فنية قلما أتيحت لغيره ، وبقى اسمه لامعاً إلى زمن طويل . وزلزل حين نقدمه يبدو لنا فى لون آخر غير أولئك الأعلام الذين تحدثنا عنهم فى هذا الكتاب ، فهو موسيقى عازف عالم مبتكر . وكان عزفه بعضاً من علمه . واقترن اسمه بأسماء بعض المقامات والنغمات ، فكأنما أصبح اسمه بحثاً وعلماً .

وقد اختلف علماء زمانه فى موضع عفق نغمة السيكاه على العود ، وكانوا يسمونها « الوسطى » فعرفوا لها موضعين أطلقوا على أحدهما « الوسطى القديمة » وعلى الثانى « وسطى الفرس » . فلما جاء زلزل استحدث موضعا جديداً لاستخراج هذا الصوت

يتوسط الموضحين المتقدمين وعرف « بوسطى زلزل » فيما بعد [1]

ولم يقف ابتكاره عند تحقيق نغمات السلم الموسيقى والدقة البارعة فى أدائها بل امتدت بحوثه البعيدة المدى إلى تحسين صناعة العود نفسها . قال إسحق الموصلى : إن زلزلا أول من أحدث العيدان الشبابيط[2] وكانت قديماً من عمل عيدان الفرس فجاءت عجباً من العجب.

وناهيك برجل يبلغ من المكانة أن يكون أستاذ اسحق فى العزف . فإذا كان هذا هو التلميذ فيما ارتقى إليه من شأو بعيد فكيف بمعلمه ! ! وقد تعصب له إسحق وفضله بحضرة الواثق على ملاحظ الذى كانت له الرياسة على جميع العازفين الحاذقين . وقد أثبت زلزل أنه حرى بهذا التفضيل جدير بذلك التقديم .

غضب الرشيد يوماً على زلزل ، وكان قدراً مقدوراً أن يتجرع زلزل من الكأس المريرة التى يستهدف لها كل عبقرى يريد القـــدر به أن يكون شيئاً غير عادى . وقد دفعت به غضبة الرشيد إلى السجن وبقى فيه مدة غير قصيرة ... ومن أولى بإنقاذ الفنان من الفنان ؟

هكذا صنع ابراهيم الموصلى حين قام الرشيد فى بعض شأنه وإذا بابراهيم يغنى فى شعر قاله فى حبس زلزل وهو :

---

(١) وتقدر وسطى زلزل بنسبة $\frac{٢٢}{٢٧}$ من مطلق الوتر .

(٢) نسبة إلى « الشبوط » بتشديد الشين وتشديد الباء وهو سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين المس صغير الرأس .

هل دهرنا بك راجع يازلزل أيام يبغينا العدو المبطل
أيام أنت من المكاره آمن والخير متسع علينا مقبل
يا بؤس من فقد الإمام وقربه ماذا به من ذلة لو يعقل
مازلت بعدك فى الهموم مردداً أبكى بأربعة كأنى مثكل

ودخل الرشيد وهو فى ذلك فجلس فى مجلسه ثم قال : يا إبراهيم أى شىء كنت تقول ؟ فقال خيراً ياسيدى . قال هاته . فتلكأ إبراهيم فغضب الرشيد وقال : هاته فلا مكروه عليك . فرد الغناء . فقال له أتحب أن تراه ؟ فقال إبراهيم : وهل ينشر أهل القبور ؟ فقال الرشيد : هاتوا زلزلاً . فجاءوا به وقد ابيض رأسه ولحيته . فسرّ به ابراهيم . وأمر الرشيد زلزلاً فجلس يضرب وأمر إبراهيم فغنى وضرب عليه فزلزلا الدنيا . وأمر الرشيد باطلاق سراح زلزل وأسنى جائزته ورضى عنه وصرفه إلى منزله .

أرأيت أروع من هذا ؟ . . فنان ينقذ فناناً بعد عشر سنين أونحوها . وإذا بنا نرى زلزلاً لم تنسه الحوادث والليالى السوداء والسنون المتعاقبة براعة العزف وحذق الضرب . ونرى بعد ذلك الفن يعيد للمغنى والعازف مكانتهما ويجزل فى عطائهما ومكافأتهما . وكم للفن من ثمار وثمار لو تعاون الفنانون فى مودة وإخاء !!

وقضى زلزل نحبه عام ١٧٥ هـ (٧٩١ م) . وكان له جارية قد رباها وعلمها الضرب والغناء ، حتى حذقتهما وبرعت فيهما ، وكان

يصونها من أن يسمعها أحد . فلما مات بلغ أسحق الموصلى أنها تعرض فى ميراثه للبيع فسار إليها فغنّت :

أقفر من أوتاره العود فالعود للأوتار معمود
وأوحش المزمار من صوته فما له بعدك تغريد
من للمزامير وعيدانها وعامر اللذات مفقود

فأبكت عين إسحق وأوجعت قلبه . فارتد إلى الرشيد وحدثه بحديثها فأمر بإحضارها وقال لها : غنى الصوت الذى حدثنى إسحق عنه . فغنته وهى تبكى فاغرورقت عين الرشيد وقال لها : أتحبين أن أشتريك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لقد عرضت علىّ ما يقصر عنه الأمل ، ولكن ليس من الوفاء أن يملكنى أحد بعد سيدى فينتفع بى . فازداد الرشيد رقة عليها وقال : غنى صوتاً آخر . فغنت :

العين تظهر كتمانى وتبديه والقلب يكتم ما ضمنته فيه
فكيف ينكتم المكتوب بينهما والعين تظهره والقلب يخفيه

فأمر بأن تبتاع وتعتق . ولم يزل يجرى النفقة عليها إلى أن ماتت .

هذه هى قصة الفن الوفى . لقد كان زلزل إذن يخفى كنزاً من الفن والجمال والسحر يضن به على كل أذن أن تسمعه وعلى كل عين أن تراه ، ولكن القدر نكبه مرة أخرى فحبسه عن متعة قلبه وقرة

عينه بالموت . فهل نكب زلزل فى الوفاء نكبته فى الحياة ..؟ وماذا تستطيع جارية مملوكة موروثة فى تركة أن تصنع إذا شاءت الوفاء؟..
لقد كان القدر رحيما ، وكريما فى هذه الرحمة بذلك الفقيد فلم تفجع روحه فى عالمها الأبدى بيد تمتلك من كانت فى حياته مهجة قلبه .

وهكذا استطاعت جارية مملوكة أن تحتفظ بوفائها للفنان الراحل أمام خليفة بيده مفاتيح السعادة الماثلة التى تبهر النفوس وتخلب الألباب ، فقالت قولتها تلك ، وبقيت على الأمانة والوفاء كما بقيت ذكرى زلزل فى سفر الخلود والبقاء .

يحيى المكى

لم يمر بنا من قبل ولن يمر بنا فى هذا الكتاب مثل شخصية يحيى المكى فهى غرابة وتعقيد وتنافر . ومع هذا فهو شخصية تعد غاية فى فصاحة الفن وبلاغته . والأدباء كثيراً ما يمرون فى روايات الشعر والنثر على شخصيات مثل هذه فيرون فيها مجالا خصباً للتحدث والنقد كما صنعوا مع حماد [1] الراوية ، وقلما عثروا بين الغناء على مثل يحيى المكى . فهو حماد الموسيقى وراويتها الذى لعب بالأجيال وسير ركب التاريخ كما شاء وشاء له الهوى .

اجتاز هذا الراوية الفنان دولا وعصوراً ، وشاهد انقلابات وانتقالات ، ورأى كيف شالت نعامة ملك بنى أمية وتقلص ظلهم من دمشق ، وارتفع علم المدنية الإسلامية فى بغداد بعدها . وساير هذه القافلة فى أزهى عصور بنى العباس وشطر كبير من بداية اضمحلالها . وعاش يحيى قرابة مائة وعشرين عاماً كانت كلها أعوام جد وعمل ونشاط ، وتطور دائب مستمر ،

---

(١) شخص يضرب به المثل لكثرة ما رواه من الشعر.

يلاحق بعضه بعضاً ، ومواكب فنية من أعلام الموسيقى والغناء ، ومدارس منشأة من الموالى والقيان .

كل هذه المناظر تمر بيحيى ويشاهدها فى تعاقب السنين التى ملت من طول بقائه وهو صامد للمناظر ثابت أمام المشاهد بين مر الغدوات وكر العشايا . وتجمّع فى رأسه إنتاج مائة عام أو تزيد . وقد واتاه الحظ بأن التدوين الموسيقى لم يكن قد استكمل عناصر بقائه ومقدماته . كما أن الغناء بوصفه غذاءً روحياً شهياً لم يكن ليجتذب عناية الناس بأمره من نواحيه العلمية الدقيقة ذات البحث الجاف والفن المعقد ، إنما الذى كان يعنيهم من الأمر ناحية الطرب والجمال فى الشعر والغناء معاً . وإذا كان تدوين الشعر ميسوراً وأكثر إمكاناً فى الرواية والقراءة فشأن الغناء غير ذلك .

لهذا أمكن ليحيى أن يتحكم بعمره الطويل وحياته المسهبة الممتدة فينسب الأغانى إلى أصحابها أو إلى غير أصحابها . وقد وجد مسوغاً جديداً هو أن الناس يحبون أن يتذوقوا طعم الفاكهة الغابرة وأن يتعرفوا كيف كانت الأذواق وكيف كان غناء أولئك الأبطال الذين تلمع أسماؤهم ولا يعرف غناؤهم من المتقدمين فى العصر الأموى . وما دام أهل الأدب فى ناحيتهم يذكرون أمثال كثيّر وجميل وعمر بن أبى ربيعة ثم يأتون بأشعارهم مع حوادثهم وتواريخهم فلماذا يذكر معبد والغريض وجميلة وابن سريج وأمثالهم

دون أن يعرف غناؤهم الذى هو لباب قصتهم فى الحياة ؟ فليكن يحيي المكى إذن هو جعبة التاريخ وسجل أغانى أولئك الأعلام الذين انقضت عليهم عشرات الأعوام ، وتباعد بهم العهد وأصبح الشوق إلى فنهم يساور كل نفس بعد ما بلغت شهرتهم عنان السماء .

راح يحيي ينقل ما سمع فى أمانة تارة وفى خلط تارة أخرى . ويغلب الظن أنه حتى فى خلطه هذا جدير بالتخليد لأنه على الأقل كان ضرباً من التقليد . فلكى يصدق الناس روايته عن معبد مثلا عليه أن يصوغ نفسه على صورة معبد ، وأن يتقن أسلوبه حتى يكون ما ينتحله له بعد ذلك نوعاً من الحكاية على أسلوب المروى عنه . وبذلك لاتكون تقولاته ورواياته كاملة التزييف والاختلاق فى نظر الفن ، وإن كانت كذلك فى نظر التاريخ . ولا أقل من أن انتحاله هذا يعطى للسامع لوناً مفصحاً وصورة واضحة عما يرويه أو عمن يروى عنه . وليس ذلك بالعمل الضئيل .

أما نسبه فهو يحيي بن مرزوق مولى بنى أمية . وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بنى العباس خوفاً من أن يجتنبوه ، فإذا سئل عن ولائه انتمى إلى قريش . ويكنى يحيي أبا عثمان .

قدم مع الحجازيين الذين وفدوا إلى المهدى فى أول خلافته . وكان يغنى مرتجلا ، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين فيوقع بقضيب على دواة . وكان ابن جامع وإبراهيم الموصلى وفليح يفزعون

إليه فى الغناء القديم ويأخذونه عنه ويسابق بعضهم بعضاً بما يأخذه منه ، فإذا خرجت لهم الجوائز أخذوا منها ووفروا نصيبه . وله صنعة عجيبة نادرة متقدمة ، وكتاب فى الأغانى ونسبها وأخبارها يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت ، وهو سفر كبير جليل إلا أنه كان كالمهمل عند الرواة لكثرة تخليطه فى رواياته ، لذلك كان العمل على كتاب ابنه أحمد الذى صحح كثيراً مما أفسده أبوه وحقق ما نسبه من الأغانى إلى صانعه .

وكان إسحق الموصلى يقدم يحيى المكى تقديماً كثيراً ويصله ويقول : ليس يخلو يحيى فيما يرويه من الغناء الذى لا يعرفه أحد من أحد أمرين إما أن يكون محقاً كما يقول فقد علم ما جهلتم أو يكون من صنعته وقد نحله المتقدمين فهو أفضل وأوضح لتقدمه. وكان يقول أيضاً : لولا ما أفسد به يحيى المكى نفسه من تخليط روايته الغناء على المتقدمين وإضافته إليهم ما ليس لهم وقلة ثباته على ما يحكيه من ذلك لما تقدمه أحد .

وقال محمد بن الحسن الكاتب : كان يحيى يخلط فى نسب الغناء تخليطاً كثيراً ، وهو يصنع الصوت بعد الصوت يتشبه فيه بالغريض أو بمعبد تارة وبابن سريج أو بابن محرز تارة أخرى ويجتهد فى إحكامه وإتقانه حتى يشتبه على سامعه فإذا حضر مجالس الخلفاء غناه على أحسن صنعة ، مما لا يعرفه أحد . فإذا سئل عن ذلك قال أخذته

عن فلان وأخذه فلان عن يونس أو عن نظرائه من رواة الأوائل فلا يشك فى قوله ولا يثبت لمباراته أو يقوم لمعارضته أحد . ودأب على ذلك حتى نشأ إسحق الموصلى فضبط الغناء وأخذه من مظانه ودونه وكشف عوار يحي فى منحولاته وبيّنها للناس .

قال إسحق يوماً الرشيد : أتحب يا أميرالمؤمنين أن أظهر لك كذب يحي فيما ينسبه من الغناء ؟ قال نعم . قال اعطنى أى شعر شئت حتى أصنع فيه لحنا واسألنى بحضرة يحي عن نسبته فإنى سأنسبه إلى رجل لا أصل له ، واسأل يحي عنه إذا غنيته فإنه لا يمتنع من أن يدعى معرفته . فأعطاه الرشيد شعراً فصنع فيه لحناً ولما حضر يحي غناه إسحق. فقال الرشيد لمن هذا اللحن يا إسحق؟ فقال إسحق لغناديس المدينى يا أمير المؤمنين . فأقبل الرشيد على يحي وسأله : أكنت لقيت غناديس المدينى يا أبا عثمان ؟ فقال يحي نعم لقيته وأخذت عنه صوتين . ثم غنى صوتاً وقال هذا أحدهما . فلما خرج يحي أقسم إسحق أن الله ما خلق أحداً اسمه غناديس وأنه وضع ذلك الاسم فى وقته لينكشف الأمر .

غنى يحي المكى صوتا فسئل عنه فقال هذا لمالك ، ثم غنى لحناً لمالك فسئل عن صانعه فقال هذا لى . فقال له إسحق الموصلى وكان حاضراً : قلت ماذا فديتك ؟ وتضاحك به ، وغنى الصوت ،

وذكر اسم صاحبه فخجل يحي . ثم غنى بعد ساعة فى الثقيل الأول لحناً فسئل عنه فنسبه إلى الغريض فقال له إسحق : يا أبا عثمان ليس هذا من نمط الغريض ولا من طريقته فى الغناء ولو شئت لأخذت ما لك وتركت للغريض ماله ولم تتعب . فاستحيا يحي ولم ينتفع بنفسه بقية يومه . فلما انصرف بعث إلى إسحق بألطاف كثيرة وكتب إليه يعاتبه ويستكف شره ويقول له : لست أنا من أقرانك فتضادنى ، ولا أنا ممن يتصدى لمباغضتك ومباراتك ، ولأنت إلى أن أفيدك وأعطيك ما تعلم أنك لاتجده عند غيرى فتسمو به على أكفائك أحوج منك إلى أن تباغضنى فأعطى غيرك سلاحاً إذا حمله عليك لم تقم له ، وأنت أولى وما تختار . فعرف إسحق صدق يحي وكتب إليه يعتذر ورد الألطاف التى حملها إليه وحلف لايعارضه بعدها ، وشرط عليه الوفاء بما وعده به من الفوائد ، فوفى له بها وأخذ منه ماأراد من غناء المتقدمين . وكان يحي بعد ذلك إذا سئل عن غناء فى حضرة إسحق صدق فيه وإذا غاب إسحق خلط فيما يسأل عنه .

وقال احمد بن سعيد : إن الاختلاف الواقع فى كتب الأغانى إلى الآن من بقايا تخليط يحي .

وسئل أحمد بن يحي المكى عن صنعة أبيه فقال الذى صح عندى منها ألف وثلثمائة صوت ، منها مائة وسبعون صوتاً غلب فيها على الناس جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر .

ومهما يكن القول فى يحي فقد طبقت شهرته الأوساط الفنية والآفاق الغنائية فى زمنه الطويل . فليكن راوية أو مؤلفاً أو مغنياً فحسبه أن يتتلمذ له نجوم ذلك العصر وفى مقدمتهم ابن جامع وابراهيم الموصلى وفليح . بل بحسبه أن يهادنه إسحق ليزداد من علمه وليأمن عداوته . وحسب يحي من الدنيا أن يدع تراثاً فنياً يضم الألوف من مروياته ومؤلفاته ، وأن يحظى بمجالس الخلفاء من المهدى إلى الرشيد إلى المعتمد ، ثم يترك الدنيا بعد مائة وعشرين عاما قويم العقل صحيح السمع والبصر .

ذاتُ الخال

فتاة خلوب تستهوى الأرواح وتعبث بالقلوب ، وفى مقدمتها قلب أستاذها ومعلمها إبراهيم الموصلى . لقد ذهبت إليه تتعلم الغناء فكانت أغنية معلمها وحيرة أستاذها . أرسل فيها شعره وغناءه ، وشهرها بل شهر معها نخاسها أبا الخطاب المسمى بقرين من موالى العباسة شقيقة الرشيد وكان يتجر بالجوارى المولدات والإماء الفنانات . قال إبراهيم فى ذات الخال :

إليك أشكو أبا الخطاب جارية غريرة بفؤادى اليوم قد لعبت
وأنت قيّمها فانظر لعاشقها ياليتها قربت منى وما بعدت

ويبدو لنا أن إبراهيم قد اشترى ذات الخال هذه وسعد بها سعادة قصيرة ، فقد جنى عليه شعره فيها وتشبيهه بها حيث وصل غزله فى محاسنها إلى سمع الرشيد فاشتراها وأغلى فيها القدر ولم يضن على ثمنها بسبعين ألف درهم . إلا أنه وقد احتازها فى قصره لم يجد فيها شفاء صدره فقد اعتقد أنها ليست خالصة له . وكيف يستخلص لنفسه ويستصفى لأنسه من تغزل فيها إبراهيم ، وقد يكون غير إبراهيم قد أحبها أو أحبته !!

أمام هذا القلق الثائر لم يكن صعباً على الرشيد أن ينزل عنها هبة لحمويه الوصيف . وما أن غربت الشمس عليها خارج قصره حتى أجنَّه الليل فازدحمت عليه الخواطر والهموم من أجلها . لقد اشتاق إليها وإلى عذب غنائها ، فأخذ يتساءل : كيف سمحت نفسى بأن يضيع هذا الكنز الثمين من يدى!! لقد ألقيت بها طوعاً وتنازلت عنها اختياراً ووهبتها هبة رخيصة كأنما ضاقت بها نفسى ذرعاً !! أهكذا تثور بى الغيرة فأنتزع من يدى خاتماً لؤلؤيا كان متعة ناظرى وأنس روحى !!

وفى ساعة من ساعات الصفاء قال الرشيد لحمويه الوصيف : ماصنعت الأقدار بذات الخال عندك ؟ قال حمويه : إنها قرة العين ومتعة السمع والبصر . قال الرشيد : ويلك ياحمويه وهبناك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك ؟ أجاب حمويه : يا أمير المؤمنين مر فيها بأمرك . قال الرشيد : نحن عندك غداً ..

وفى أصيل اليوم التالى وقد انحدرت الشمس إلى مغربها مرسلة تلك الأشعة الذهبية التى يلهو بها الناس فينسون فراق الشمس وهى خلف رداء الشفق أقبل الرشيد إلى بيت حمويه ليرى ذات الخال ، فإذا بها فوق خياله... لقد رآها تميس فى عقود من الجوهر، وتخطر فى حلى وحلل تربو قيمتها على اثنى عشر ألف دينار . وهنا يثوب الرشيد إلى رشده فينسى ما كان يتصباه من الجمال وما هو مشوق

إليه من الاستمتاع بسماع ذات الخال . فقد رأى الرشيد عقوداً وجواهر لا قبل للوصيف بها ، وما كان له أن يشتريها إلا حين يكون ثمنها غير حلال . .

ها هو ذا الرشيد ينظر إلى الوصيف شذراً ويحملق فى وجهه غاضباً : ويلك يا حمويه ، من أين لك هذا ، وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك منى هذا القدر ؟

لقد كانت الجواهر مستأجرة لاستقبال الخليفة على حال تليق بعظمة مقامه . ولم يكن الوصيف قد اشتراها . كما أنه لم يتوقع أن أمير المؤمنين سائله ومعرض به لخطر داهم أقل ما فيه عقاب على سرقة أو غصب . ولكنه كشف القناع عن المتاع فإذا به قد استأجره إلى حين . وكانت مكافأة الأمانة وجزاء الصدق أن أصبح المستأجَر ملكاً حيث دفع أمير المؤمنين قيمة الجواهر وأهداها إلى ذات الخال .

ثم يلوح لنا بعد ذلك أن تلك الفنانة الموهوبة للوصيف قد آن لها أن تسترد وترتجع . ولابد ثمت تعويض يرضى عنه حمويه . وقد تكفلت له به ذات الخال نفسها حين طلبت إلى الرشيد أن يوليه الحرب والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ذلك ، وكتب له وثيقة به وشرط على ولى العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم فى حياته .

وحفل قصر الرشيد بعد ذلك بذات الخال وكانت لها فيه ليال باسمة كإشراق الربيع . فهى إحدى ثلاث استولين على قلب الرشيد ، كان لهن معه ألوان من الدعابة والحوار والتجنى والتدلل. أما أولئك الثلاث فهن : سحر ، وضياء ، وخنث ذات الخال . وقد جاء فيهن قول نسب إلى الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهنّ فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

لقد عاشت ذات الخال فى أعظم قصور الشرق وفى رعاية أجلّ ملوكه شأناً وأعظمهم قدراً ، وهى أشبه بالنسيم الحالم والطير المدلل . وأصبحت وقد استردها الرشيد شاعرة بمكانتها ، تغار وتغضب وتثور وترضى .

ها هو ذا الرشيد يعدها أن يسمر على سماع صوتها ، فإذا بحظ إحدى الجوارى يقطع عليها الطريق فينتزعه منها قبل أن يصل إليها ، ويقنع الرشيد بمسامرة غيرها . ولكن ذات الخال قد أدركها الغضب ، واتقدت نيران الغيرة فى صدرها . وماذا هى صانعة بالرشيد إذا أرادت أن تثأر لحظ ليلتها !! إنها القينة الضعيفة وهو أمير المؤمنين صاحب السطوة والسلطان . إنها لا تستطيع أن تمتد إلى نفسه بفعل أو قول يشفى غيظها إلا أن تجعل جمالها

موضع الانتقام والعقاب . لقد قامت بنزع الخال وهو كنزها الذى طالما خلبت به الألباب، وجمالها الذى تألقت به بين الأتراب، فلقد كانت أنضر الحسان وجهاً ولها خال على خدها لم ير الناس أحسن منه فى موضعه . فما أن علم بذلك الرشيد حتى نسى ما كان فيه من الأسمار بما طالعه من الأكدار . لقد جنت على قلبه قبل أن تجنى على وجهها ، وسطت على حبه قبل أن تسطو على حسنها . وكأنما اقتطعت بذلك شريحة من قلبه حين مدت المقراض إلى الخال فمحت به آية الجمال . وما لبث الرشيد أن ترك ما هو فيه وأقبل عليها . وكان ليلتئذ بحاجة إلى دواء يخفف بعض ما أصاب قلبه الجريح ، ولم يكن ذلك غير شعر الغناء أو غناء الشعر فهو قيثارة الروح التى ترفه عن المحزون وتصور الآلام فتخفف الشجون . سأل الرشيد : من بالباب من الشعراء؟ فقيل له عباس بن الأحنف . فأدخل عليه فرسم له الرشيد هذا المعنى فنظمه كلاماً ، ثم صوره إبراهيم الموصلى أنغاماً :

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة   وملت إلى من لا يغيره حال
فإن كان قطع الخال لما تعطفت   على غيرها نفسى فقد ظلم الخال

هذا هو الفن الساهر فى العصر الزاهر . كان الفن مستيقظاً إلى جانب يقظة الدولة وسعادتها ، فما تألم الرشيد حتى كان الشعر والغناء خير دواء .

ومضت ذات الخال تسعد ليالى الخليفة بصوتها العذب الحنون وروحها المرحة الجميلة ، وتضيف إلى أفراحه وأبهة ملكه نعيما روحياً من عذوبة موسيقاها وبراعة لحنها . واشتد إعجاب الرشيد بها إلى حد أنه يعرض غناءها على إمام الغناء فى عصره إسحق الموصلى . ففى إحدى الليالى دعى بها الخليفة وأدناها وأمرها أن تأخذ سبيلها إلى سحر الفن ، فأنشدت فى وصف الروميات على سبيل الإغراب والإطراف بملاحتهن :

جئن من الروم وقاليقلا [1] يرفلن فى المرط ولين الملا

وكأنى بها تصف السبايا اللواتى يقبلن مع أبطال الحروب وعليهن زينة بلادهن ومدنية شعوبهن .

ولكن ماذنب هذ االشاعر المسكين ، الذى جىء به ليصور نفس الرشيد للرشيد وليترجم عن مشاعره ، فإذا به ينقلب صباً والهاً بها هو الآخر ، ويصبح فى عداد محبيها المأخوذين بسحرها المتشبيين فى مفاتنها !!

لقد كانت ذات الخال تحمل تياراً كهربائياً ، فى درجة أخاذة، يصعق جمالها من رآها بعينه أو اخترق ألحانها شغاف قلبه ، حتى لكأنه يردد مع عباس بن الأحنف ما أنشده فيها ، بما غناه له إبراهيم . وقد جاء فى البيت الأخير من أبياته بتقسيم عذب ملىء بالإبداع والإمتاع :

(١) لعل الشاعر يقصد مدينة قليقلة .

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى

عُشير الذى ألقى فيلتئم الشّعب

إذا رضيت لم يهنني ذلك الرضا

لعلمى به أن سوف يتبعه عتب

وأبكى إذا أذنبت خوف صدودها

وأسألها مرضاتها ولها الذنب

وصالكمُ هجر وحبكمُ قلىً

وعطفكم صد وسلمكم حرب

ولئن استهدف ابن الأحنف وغيره للوقوع فى شرك جمالها وسحر دلالها وبديع غنائها فذلك شأن كل شاعر أو كل مغن اتصلت حباله بحبالها . فإذا رآها المغنى كانت أغنيته ، وإذا رآها الشاعر كانت قصيده ، وماهى إلا نظرة وابتسامة حتى يقع المأخوذ فيقول عنها مع القائل :

جزى الله خيراً من كلفت بحبه ... وليس به إلا المموَّه من حبي

وقالوا قلوب العاشقين رقيقة ... فما بال ذات الخال قاسية القلب

وقالوا لها هذا محبك معرضاً ... فقالت أرى إعراضه أيسر الخطب

فما هو إلا نظرة بتبسم ... فتنشب رجلاه ويسقط للجنب

بذل

كانت بذل من أولئك الجوارى الساحرات اللائى امتلأ بهن هذا العصر الذهبي من عصور الإسلام ، إن لم يكن هو أزهى عصوره وأنضر عهوده ، وهو عصر بنى العباس الأول . وأنت تسمع أحاديث أولئك الجوارى فتطرب لطرائف أخبارهن وما نقلت الآثار التاريخية عنهن . وأنت تجد فى كل واحدة منهن مزية لاتجدها عند الأخرى . فكأنك إذ تمر بتاريخ أولئك الحسان إنما تطوف بروضة فيحاء ، فى كل دوحة منها فاكهة امتازت بها عن سواها من الدوحات والأشجار . فماذا عند « بذل » مما يستهوى القارىء والمطلع ، ومما هو عبرة المبتدى والمنتهى ؟ . . . إنه شىء هام إلى الغاية..أعنى الرواية والحفظ. فمن لايحفظ عن غيره لا يُحفظ عنه ، ومن لايعرف ماعند الناس فهو خليق بألا يعرف الناس عنه شيئاً . فالرواية هى أساس كل محصول على فنى . وما ضعف إنتاج العصور المتأخرة إلا بفقدان الاهتمام بالنقل والحفظ .

وإننا لنعجب حين يقال لنا إن المتنبى أو غيره كان يحفظ عشرات الألوف من الأراجيز وأبيات القصيد ، لأننا نجد أنفسنا

قاصرين عن هذا المدى ، نفرّ من النصوص والمحفوظات بالغة
ما بلغت من القلة واليسر ! ! ولو أننا كنا قد أخذنا أنفسنا بشيء
من هذا التراث لهان علينا أن نصدق أن « بذل » حفظت ثلاثين
ألف صوت . ولعل مما يقرّب هذا إلى الذهن ويجعله أمراً مقطوع
التسليم به أن علماء الحديث قد اصطلحوا على أسماء خاصة لجماعة
الحفاظ وجعلوهم طبقات ومراتب لكل من يحفظ نصاباً خاصاً ،
لعشرة آلاف إلى مائة ألف من الأحاديث ذات المتن والأسانيد .
وهذا شائع معروف عند علمائهم . وإن كتاب أبي الفرج
الأصبهاني موسوعة الأدب والغناء العربي يقع في أكثر من عشرين
مجلداً وهو من رواية رجل واحد ومن إنتاج حفظه وجمعه .

هكذا كانت بذل راوية عجيبة . وهي في الأغاني والأصوات
كحماد الرواية في الأدب العربي . ولئن احتفظ التاريخ بمرويات
حماد فلقد ضن علينا بمأثورات بذل لأن موسيقى تلك العصور
قامت على التلقين لا على التدوين ، مع أن بذل لم تقتصر على
ما حفظت ولقنت ، بل لقد ألفت كتاباً في الأغاني المنسوبة إلى
أصحابها ، بلغت فيه اثنى عشر ألف صوت .

وكانت تجمع بين الغناء والعزف ، وبلغت في ذلك منزلة
كانت تطارح فيها كبار المغنين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم .
فهي تعارض إسحق الموصلي، وتناهض ابراهيم بن المهدي، وحسبك
بهما من زعيمين لأكبر مدرستين في ذلك العهد .

وكانت بذل مع ما تجمع من الغناء والعزف والنقل والرواية جميلة وسيمة خفيفة الروح لها جمال ساحر وعاطفة تسمو بها إلى حياة راقيـــة فى ظل الخلافة وأمرائها . اشتراها جعفر ابن موسى الهادى ثم سطا عليه محمد الأمين وانتزعها منه انتزاعا كما تنتزع القطرة السائغة من فم شاربها وهو ظمآن . وأرسل إليه على كره منه عشرين ألف ألف درهم ثمناً لها . وناهيك به من ثمن يدل على ما بلغته هذه الجارية من نفس مشتريها ، وقد رأى فيها الكنز الذى تهون فى سبيله جميع الأموال . وما زالت عند الأمين مدة خلافته بعد أبيه حتى قتل . وقد خلف لها تركة من الجواهر كانت تعيش بما تبيع منها عيش يسر ورخاء ، حتى قضت أيامها ولا تزال لديها منها بقية وافرة .

تتلمذت بذل على دحمان ، وفليح ، وابن جامع ، وابراهيم الموصلى ، ومن فى طبقتهم من أعلام هذه الصناعة فى ذلك العصر . وبلغت منزلة فنية حيرت فيها الأقطاب المقدمين ، وناظرتهم وتركتهم فى حيرة من أمرها ...

قال المؤرخون إن إبراهيم بن المهدى كان يعظمها ويتعصب لها فيتودد إليها . ثم تغير عليها إعجابا بما بلغه من مكانة فى الغناء ، ظناً منه أنه قد أصبح عنها فى غنى . فسارت إليه لتعلمه درساً فى التواضع لعظمة الفن وجلاله ، وطلبت عوداً وغنت أمامه

— كما يقولون — فى طريقة واحدة وإيقاع واحد وإصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً، ثم وضعت العود وانصرفت . ولم تعد إلى داره بعد ذلك حتى ألحّ عليها فى الرجاء والتودد إليها والاعتراف بفضلها .

وحدث أن إسحق — وتلك شنشنته وخليقته — خالفها فى نسبة صوت غنته بحضرة المأمون . فأمهلته ساعة . ثم غنت ثلاثة ألحان من الثقيل الثـــانى واحداً بعد واحد وسألت إسحق عن مصدرها . فلم يجد طريقاً إلى الجواب . فقالت للمأمون : يا أمير المؤمنين هى والله لأبيه أخذتها من فيه فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره !! فاشتد ذلك على إسحق ورؤى ذلك على وجهه . وهو خليق هذه المرة بتلك اللطمة فطالما أثار الجدل فى مجلس الخلفاء حول المغنين والمغنيات ونسبة الأصوات فحوّل مجالس الطرب إلى حلقة بيزنطية أو سفسطة فنية كان يمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه الحال .

وليس أحد ينكر علم إسحق ، إلا أن إعجاب العلماء بأنفسهم أحيانا ومحاولتهم التفرد بالعظمة والانتصار على حساب انتقاص قدر غيرهم، هذا العمل من شأنه أن ينزل بأقدارهم بدلا من أن يعلو بها . فلو أن أهل العلم أضافوا إلى علمهم سماحة الخلق والتحلى بالتواضع

وتشجيع من هم أقل منهم تجربة وتحصيلا ، لأضافوا إلى علمهم فضلا يزين العلم ويجلوه .

على أن إسحق كان يطرب لسماع بذل حتى لقد روى ابنه حماد قال : غنت بذل يوماً بين يدى أبي :

إن تريني ناحل البدن   فلطول الهم والحزن
كان ما أخشى بواحدتى   ليته والله لم يكن

فطرب أبي والله طرباً شديداً . . .

وكانت بذل عزيزة ، كريمة النفس ، وفيّة لماضيها وكرامتها . فلم تقبل أن تقترن بكبار القواد والعظماء الذين تقدموا إلى خطبتها . وكانت محتفظة بكل ما للفنان العالم من ذاتية وقدر . وحسبك أن تثير فى على بن هشام على سمو مكانته عاطفة يغلى مرجلها بهذه الأبيات :

تغيرتِ بعدى والزمان مغير
وخست بعهدى والملوك تخيس
وأظهرت لى هجراً وأخفيت بغضة
وقربت وعداً واللسان عبوس
ومما شجانى أننى يوم زرتكم
حجبت وأعدائى إليك جلوس

وفى دون ذا ما يستدل به الفتى
على الغدر من أحبابه ويقيس
كفرتُ بدين الحب إن زرت بابكم
وتلك يمين ما علمت غموس
فإن ذهبت نفسى عليكم تشوقاً
فقد ذهبت للعاشقين نفوس

لقد كانت هذه الفنانة مثال البذل والسخاء ، بل مثال النبل والوفاء . وتركت من صفاتها لحناً تاريخياً إذا ذهبت ألحانها من التاريخ .

عُلَيّة بنتُ المهدى

كثيرون من المغنين والمغنيات نقلوا الفن الغنائى تراثاً انحدرت به الدماء من آباء وأمهات وذوى قربى . وقد لاحظنا ذلك كثيراً فى معاصرينا . وها نحن نجده فى « عُليــة » بنت المهدى ، فأمها مكنونة المغنية ، جارية أمّ ولد . ولعلها كانت فى شبيبتها أنضر جوارى المدينة وجهاً وأسمحهن منظراً . وقد اشتراها المهدى فى حياة أبيه بمائة ألف درهم . ولقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال، وشغف بها ، وغلبت على نفسه حتى اشتعلت الغيرة فى قلب الخيزران فراحت تقول : ما ملك المهدى امرأة أغلظ علىّ منها . وقد أخفى المهدى أمرها حتى وفاة المنصور فولدت له « عُلية » .

وقد نشأت « علية » أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة، فمن خلافة الأب والجد إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبت زهرة يانعة مدللة بين مقاصير الذهب واللؤلؤ وبسط الحرير والديباج . وثقّفت بما هو جدير بأمثالها من نيّرات الخلافة والملك . تقول الشعر الجميل، وتصوغ لحناً أجمل منه ، وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاحة طبع وإيناس روح وجمال دعابة . وكانت

لسعة جبينها أول من اتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها . وقد تأنقت فى ذلك إلى حد قلدها فيه كثيرات غيرها .

وقد جمعت «علية» بين شخصية الفنانة البارعة وصفات المتعبدة المصلية . فما تكاد تنال نصيبها من الغناء حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن والصلاة وقراءة الكتب . وإنك لتعجب إذا علمت أن هذه الموعظة الجميـــلة القصيرة قد صدرت عن هذه الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرّم الله شيئاً إلا وقد جعل منه عوضاً ، فبأى شىء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته». وكان إيمانها بطهارة تاريخها ينطقها بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : « لاغفر الله لى فاحشة ارتكبتها قط » .

ولعلنا نجد من شعرها ما قد يخالف ذلك ، إلا أن أشعارها تلك لم تكن إلا ضرباً من عبث الشعراء . وقد نجد فى أتقاهم وأبعـــدهم عن الشبهات وصفاً للخمر يعجز عن مثله النشاوى والندمان . وكما قالت هى عن نفسها : « ولا أقول فى شعرى إلا عبثاً » .

وقد اطلعنا على الكثير من أنباء أخيها إبراهيم ومكانته التى سامى بها إسحق وأباه إبراهيم ، وما كان له من براعة فى الخلق والابتداع والإنشاء والغناء حتى كاد يصبح مدرسة مستقلة ، وها نحن أولاء نرى المؤرخين يقدمون «علية» على أخيها فيقولون :

« ما اجتمع في الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناءً من ابراهيم ابن المهدى وأخته علية ، وكانت تقدم عليه » .

وإنما كانت غلبة إبراهيم عليها فى الشهرة لأنه أكثر ظهوراً فى المجالس والمناظرات ، وهو يستطيع التنقل فى حرية وانطلاق . بينما هى محصنة لا تغنى إلا حين يطلب إليها الخليفة ، وهى كثيرة التعبد ، غنية عن الشهرة والذيوع ، وليست بحاجة إلى أن يسمعها الناس أو يعرفوا عنها تلك المكانة فى الغناء .

ولها شعر انتحلت فيه اسم « طل » واتخذته موضعاً لغزلها . فمن هو طل هذا ؟ ... لست أرى إلا أن يكون هذا الاسم ضرباً من رفاهية هذه الشاعرة . فهى تتلاعب بهذا الاسم ، وتصحّفه وتغير فيه ما شاءت . وهو اسم مكون من حرفين لا يكلف كبير عناء فى النطق به مع ما فيه من موسيقى اللفظ . . . فلم يكن «طل» هذا سوى واحد من ألوف الأسماء التى امتلأت بها دواوين الشعراء قديماً وحديثاً ، كأسماء سعاد وزينب وسلمى وغيرهن ممن استهل الشعراء بهن القصائد وعمّروا بأسمائهن الدواوين والمعلقات ! !

ومن قول « علية » فى طل المزعوم وقد صحّفت اسمه فى البيت الأول :

أيا سروة البستان طال تشوقى
فهل لى إلى « ظل » لديك سبيل

متى يلتقى من ليس يقضى خروجه
وليس لمن يهوى إليه دخول

عسى الله أن نرتاح من كربة لنا
فيلقى اغتباطا خلة وخليـــل

ومنه أيضاً :

سلم على ذاك الغـــزال   الأغيد الحسن الدلال
سلم عليـــه وقل له   يا « غل » الباب الرجال
خليت جسمى ضاحيا   وسكنت فى « ظل » الحجال
وبلغت منى غاية   لم أدر فيها ما احتيال

وهذا مؤتمر موسيقى ينعقد اجتماعه بحضرة الخليفة المعتصم وقد تألف من أكابر المغنين أمثال مخارق وعلويه و محمد بن الحرث وعقيد ، فتغنى عقيد :

نام عذالى ولم أنم   واشتفى الواشون من سقمى
وإذا ما قلت بى ألم   شك من أهواه فى ألمى

فطرب المعتصم لشعر رقيق وغناء أرق ، فقال لمن الشعر والغناء ؟ وحق له أن يسأل . فسكتوا ولم يجدوا سهلاً عليهم أن ينسبوه إلى عمة أبيه . فتسرع محمد بن اسماعيل بن موسى المهدى

وقال إنه لعلية . ثم ما لبث أن أدرك خطأه حيث أسرع إلى إظهار ما حاولوا إخفاءه وهم به عالمون . ولكن الخليفة يسّر عليه الخطب وقال له : « لاترع يا محمد فإن نصيبك فيها مثل نصيبى » .

ولعل فضل « علية » على الفن وأهله كان من ناحية القيمة التى سمت إليها ألحانها وعلا فيها اقتدارها. ولكن شيئاً أجدى من ذلك كله على الموسيقى وأعلامها هو أن « علية » أضفت من مكانتها على هذه العشيرة ، وأسبغت عليها من جلال قدرها أكثر مما أسبغت من جمال اقتدارها . فهذا هو «البنّان» يغنى لحناً بديعاً من خفيف الرمل فى حضرة المعتصم فيبتسم أحد أقطاب الفن ممن شهدوا ذلك المجلس ، فيسأله المعتصم عن بواعث ابتسامه ومصدر تعجبه ، فيجيب أن سببه هو اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : فى قائله وملحنه ومستمعه ، أما قائله فالرشيد وأما ملحنه فعلية بنت المهدى وأما مستمعه فأنت يا أمير المومنين . ولم يكن اللحن فى جملته سوى هذين البيتين :

يابنة المنزل بالبرْك	وربة السلطان والملك
تحرّجى بالله من قتلنا	لسنا من الديلم والترك

ونحن لا نستطيع أن نتجاوب مع هذين البيتين فيما يكون بهما من جمال وروعة لأننا لا نلم كثيراً بأحاسيس ذلك العصر نحو الترك والديلم ، وإنما يعنينا هذا التوافق العجيب والانسجام الذى

جرى به القدر صدفة في حظ هذين البيتين فرفع مقامهما تأليفاً وتلحيناً وسماعاً إلى أرفع أوج وأسمى منزلة .

وهو من ناحية أخرى يضع أيدينا على المستوى الذى ارتفعت إليه الموسيقى فى ذلك العصر الزاهى وتلك الدولة التى هى قمة مجد العروبة والإسلام فى عصورها المتعاقبة .

ثم نعود إلى أمر إسحق الموصلى وحياته الجدلية الصاخبة من المغنين وشأنه معهم . فلقد قبلنا منه أن يطارح أصحاب الغناء ويناضلهم ويحاول التفوق عليهم أو التنقيص من شأنهم حين يتهمهم بالتحريف أو التزيّد فى مروياتهم عن أبيه أو غير أبيه . ولكنه الآن بصدد لون جديد يفوق ماسبقه من ألوان الادعاء والانتحال. فقد غنى لحناً لعلية بحضرة المأمون ، فصادت بالخليفة ذكرياته إلى أنه قد استمع إليه من عمته قبل وفاتها. وسأل إسحق عن ذلك فأدرك فى الحال أن قد أسقط فى يده فراح ينتحل اللحن وأنه هو الذى صنعه لها أيام الرشيد . وجرى فى ذلك على قصص لا يستقيم أوله مع آخره فى منطق التاريخ والوقائع . فقد ادعى أنه عند ما كان يسير بهذا اللحن ليباكر به الرشيد تلقفته رسل « علية » من الطريق وسألته « علية » بادىء ذى بدء عن اللحن الذى وضعه وأنها تريد سماعه وإجازته ، ثم راحت تساومه على شأنه بعد أن تعلمته وأجادت أداءه ومنحته عشرين ألف درهم

وعشرين ثوباً مضاعفة ، وهددته ، وبماذا ؟ . . بالقتل إن هو أظهر أنه صاحبه ، إذ أصبح هذا اللحن منذ اليوم من تأليفها ومن صناعتها. ثم يذكر أنه قبل ذلك على مضض وانتظر بها وباللحن حتى قضت نحبها . وما كان هذا القصص بما فيه من ادعاء ظاهر وتكلف واضح لتخفى وقائعه على مثل المأمون فى حصافته وذكائه ودقته فأنب إسحق على إفشـــاء سر ونقض عهد والخيانة فى شىء تسلم ثمنه لو صحت القصة .

وليسمح لنا إسحق ، غير مجحود الفضل ، أن نسمعه من خلال سجف القرون والأحقاب أن المروءة قد خجلت من قضية أجحف فيها بحق « علية » فى وقت لاتستطيع فيه الدفاع عن نفسها ولا فنها . وعلى التاريخ أن يحتفظ بالحق لعُلية مادام المدعى قد قعد عن التصريح والإعلان عما يعتقده فى حياتها .

أما البيتان المتنازع على ملكية لحنهما فهما :

سقيا لأرض إذا مانمت نبهنى　　بعد الهدوّ بها قرع النواقيس
كأن سوسنها فى كل شارقة　　على الميادين أذناب الطواويس

ولقد كانت « علية » فى جنة وارفة الظلال من غنائها العذب ، فبقدر ماكانت أختاً لإبراهيم فى النسب فلقد كانت شقيقته الفنية التى تستمرىء معه ذلك الغذاء الشهى من معانى الشعر الملحن . فإذا فاضت كأسها الرويّة سقت من رحيقها عشيرتها وأسرتها ، وقدمت

فى كرمها مع الطعام والشراب ألحانها محمولة فى أكواب من حناجر جواريها الحسان ، كما صنعت ذلك فى مجلس ضم أخويها الرشيد والمنصور حتى إذا سمعا وطربا كتبت إليهما فى رقة تحييهما وتقول لهما :

« لقد صنعتُ ياسيديّ أختكما هذا اللحن اليوم ، وألقيتُه على الجوارى واصطبحت فبعثتُ لكما به وبعثتُ من شرابى إليكما ومن قيناتى وأحذق جواريّ لتغنيكما ، هنأ كما الله وسركما وأطاب عيشكما وعيشى بكما » .

ولعلها وهى بارة بأهلها ، كريمة بفنها وفيضها ، كانت أغزر براً ، وأندى كرماً ، وأوفى عطفاً ، وأنبل معنى ، حين رأت أم جعفر زوج الرشيد وهى والهة حيرى شاردة البال ، فإن ثمت جارية قد استأثرت بقلب الرشيد وشغلت منه يوما نسى فيه كل شىء سواها إذ كانت غاية فى الجمال وبدعة فى الكمال ، وكان من حولها حشد من الجوارى . وإذ ذاك استنجدت أم جعفر بعلية فكانت خير مواسٍ لها فى محنتها النفسية وقالت فى شجاعة وحزم وثقة بمقدرتها : « لايهولنك هذا فوالله لأردنه إليك » . ثم صنعت شعراً ، وصاغت للشعر لحناً ، ووضعت له منهجاً خاصاً من الأداء لم ير مثله الرشيد ولم يسمع بمثله الخلفاء فى قصـــور دمشق ولا بغداد . فجمعت جواريها وجوارى أم جعفر وبقية جوارى

القصر من المغنيات ، فى أجمل الثياب وأبهى الحلى وأثمن الجواهر وأبدع المناظر . وما هى إلا ساعة حتى فوجئ الخليفة بعد صلاة العصر بموكب لم يعرفه ومشهد لم يألفه ... عدد لا يحصى من الجوارى المغنيات يطالعنه وفى طليعتهن « علية » من جانب و « أم جعفر » من جانب آخر يرددن جميعاً فى صوت واحد من شعر « علية » وتلحينها :

منفصل عنى وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعى اليوم فمن نويت بعدى أن تصل

فملك الطرب عنان الرشيد ، وأقبل كالمعتذر إلى أم جعفر وعلية ، وأخذ يكلل جبين هذا اليوم بنثر العطايا . وكأنه شاء أن يدفع ثمناً لهذا السرور وأن ينسى بمنظر الجود والكرم وحشة أم جعفر .

والعبرة فى هذا أن «علية» قد انتهى برها إلى ما يفوق النهاية ، وهى فيه مؤلفة الشعر ، وواضعة اللحن ، ومعلمة الفرقة ، ورئيستها .

وكل هذه الظواهر تدلنا على أن « علية » قضت أكثر حياتها والفن متعة روحها وغذاء قلبها ، تذيعه فى وسطها الملئ بالنعمة والبهجة . ولعل مما شجعها على رسالتها تلك وتنسيق حياتها فيها أنها لم تكن اللؤلؤة اليتيمة فى عقد من الخرز بل كانت جوهرة بين جواهر وفنانة بين فنانين . فلندع عُريب المغنية تروى لنا هذه القصة

فتنقلنا بالخيال لحظة سعيدة نرى فيها صورة مصغرة هى إحدى ألوف الصور من الجو الفنى الذى كان يحيط بها. قالت عريب: «أحسن يوم رأيته وأطيبه، يوم اجتمعت فيه مع ابراهيم بن المهدى عند أخته علية (وهى تغنى) وأخوها يعقوب يزمر عليها:

تحبب فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وغنى ابراهيم فى صنعته وزمر عليه يعقوب:

يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت
نفسى بحبك إلا الهمّ والحزنُ
لم ينسينك سرور لا ولا حزن
وكيف لا كيف يُنسى وجهك الحسن
ولا خلا منك قلبى لا ولا جسدى
كلى بكلك مشغول ومرتهن
نور تولد من شمس ومن قمر
حتى تكامل منه الروح والبدن

فما سمعت مثل ما سمعته منهما قط، وأعلم أنى لن أسمع مثله أبداً».

ولقد ابتدعت «علية» ألحاناً تفوق الحصر والعد، وما دامت هى فنانة نفسها وقصرها فليس يعنيها فى شئ أن يحفظ الناس عنها أو يعدّوا مصنفاتها. وما كانت «علية» كأولئك المحترفات اللائى

يغشين المجالس فيُحفظ عنهن ما أنشأن وما ألفن ، ولكنها كانت تلحن خلف الحجاب المصون دون أن تعنى بما يروَى عنها . ولذا فنحن لا نشك فى أن ألحاناً كثيرة من صنعتها قد ضاعت ، وذلك لم يحل دون التحدث عن عدد الأصوات التى نسبت إليها . وقد تحاور فى شأنها عريب وخشف الواضحية ودار الحوار بينهما حتى قدّرا ما صنعته من الألحان بنيف وسبعين صوتاً . وأخيراً نرى خشف تطالعنا برواية صوت جديد عنها ، ولكن أين ومتى ؟ فى عالم الأحلام والرؤَى بعـــد موت « علية » لا فى عالم اليقظة فى حياتها . وهذه هى الأبيات التى نسب إليها شعرها وتلحينها :

بُنِيَ الحبُ على الجور فلو	أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن فى حكم الهوى	عاشق يحسن تأليف الحجج
وقليل الحب صرفاً خالصاً	لك خير من كثير قد مزج

وحسب فنها شرفاً أن يحاكى ويقلد بعد وفاتها . وهذا من ناحية البحث العلمى يدلنا على أن « علية » كانت فى فنها ذات طابع خاص وأسلوب معين وطريقة محدودة واضحة يمكن انتهاجها والسير عليها وحكاية صداها والنقر على وترها .

على أن هذه الأبيات وسواها من أبيات أخر لم تكن روايتها فى عالم الأحلام والأوهام، على ماروته خشف، بل فى عالم اليقظة وفى دنيا الحياة . ولعل خشف لم تعلم أن الرشيد استيقظ يوما على غير

عادته وقصد منزل ابراهيم الموصلى قرب السحَر فاستمع عنده إلى جاريتين غنته إحداهما هذه الأبيات عينها التى مطلعها «بنى الحب..» فسألها الرشيد لمن الشعر والغناء فقالت لستى . قال ومن ستك ؟ فأجابت على استحياء إنها «علية» بنت المهدى . وسمع من الثانية لحناً آخر فى أبيات ، شعرها وغناؤها لعلية أيضاً . فأسرع الرشيد إلى أخته واستعاد منها هذه الألحان فأعادتها بعد تدلل وتجن وإنكار. فقال لها ياسيدتى أعندك كل هذا ولا أعلم ؟ ..

وإذن فقد تبين فى جلاء أن لعلية ألحاناً لم تكن متداولة ولا يدرى بها أقرب الناس إليها ، وأن لها من الألحان أكثر مما عدّ الرواة لها . كما اتضح أنها كانت تبادل ابراهيم الموصلى بدائع الابتكار منه أو منها عن طريق هؤلاء البعثات المؤلفة من جواريها .

وكان من أشعارها وألحانها التى سمعها الرشيد وأعجب بها قولها :

تحبب فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصر فإن حُدثت أن أخا هوى
نجا سالماً فارجُ النجاة من الحب

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا
فأين حلاوات الرسائل والكتب

وقولها :

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه

أقبس إذا شئت من قلبى بمقباس

ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم

إذا نظرت فلم أبصرك فى النـاس

ومما يزيد الأدلة السابقة قوة وبرهانا على فقدان الكثير من ألحانها أن الرشيد أسمع بعض المقربين إليه غناءها من وراء الأبواب ، ثم قال له بعد أن ملك الطرب عنانه إنها « علية » بنت المهدى ووالله لئن لفظت بين يدى أحد باسمها وبلغنى لأقتلنك .

وهل ترى دليلا أوضح وأصدق على غزارة مادتها وسعة ابتكارها وعظيم مقدرتها وسرعة إنجازها من أنها تؤلف الشعر ارتجالاً وترتجل اللحن ابتداعا فتأتى فيهما بالمعجزة !!

هذه هى « علية » وقد زارها أخوها الرشيد وطلب إليها الغناء . فقالت له إننى سأغنى ولكن شعرى وغنائى مما أكرمك به بديهة وارتجالاً . وراحت تغنى هذه الأبيات :

تفديك أختك قد حبوت بنعمة

لسنا نعدّ لها الزمان عديلا

إلا الخلود وذاك قربك سيدى

لا زال قربك والبقاء طويلا

وحمدت ربى فى إجابة دعوتى

فرأيت حمدى عند ذاك قليلا

وقد عاشت «علية» فى صون حجابها على معهود عصرها ، مغنية عازفة شاعرة مبتكرة معلمة متعلمة . وكأنما قد عاشت ناسكة فى صومعة فنها وخلوة عبادتها ، فقد صامت وحجت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الذى إن لم نسمعه فقد سمعنا عنه ما كفى .

وقضت «علية» سنة عشر ومائتين من الهجرة (٨٢٥م) ، ولم تتجاوز الخمسين ربيعاً . . . حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها الرشيد ، وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه . ثم ألح عليها الأمين فى خلافته فتكلفت . وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون عادت أيضاً إلى الغناء على قلة حتى ماتت بين يديه وصلى عليها بنفسه .

وفضلا عن مكانتها الغنائية الرفيعة فأنت ترى أن ما مرّ بك من شعر «علية» يدل على أصالتها فى الأدب وقدرتها فى البيان . ولقد كانت جديرة أن تذكر بين أعلام الشعراء كما ذكرت بين نجوم الغناء .

دنانير

اشتهر هذا الاسم فى تاريخ الغناء ، وزاده شهرة ولمعانا أنه مر بالأفلام المصرية فى لون من الغناء المسرحى . وكان من حق دنانير علينا فى عصر الموسيقى والمسرح أن نذكرها وقد استعير اسمها وشخصيتها فى هذا الجيل حتى أصبح لها وجود معنوى يفيد منه نجوم النهضة الموسيقية الحاضرة .

ودنانير هى المغنية المبدعة ، والمطربة المؤلفة ، والملحنة الملهمة والحافظة الراوية ، والشاعرة المثقفة ، وأخيراً الأبية الوفية . وهى الجامعة فى مزاياها بين جمال وجهها وحسن ظرفها وكمال أدبها . وهذه صفات وحقائق امتازت بها دنانير فأحلتها قصور الوزراء ومجالس الأمراء ، وكادت تلعب بقلب الرشيد لعب سلامة وحبابة بقلب يزيد لولا ما بين العهدين من فوارق وظروف وما بين الخليفتين من اختلاف فى أسلوب الحياة .

كانت دنانير مولاة لرجل بالمدينة . فاشتراها منه يحيى بن خالد البرمكى وما لبث أن أعتقها . وقد تنقلت فى ثقافتها الفنية بين كبار أعلام الفن الغنائى فى العصر العباسى فثقفت أصول الغناء على أستاذتها

« بذل » وتتلمذت لفطاحل المغنين كإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وابن جامع وفليح . وكانت تجيد العزف إجادتها الغناء ، فقد تتلمذت فى العزف بالعود على « زلزل » وهو من هو فى البراعة والابتكار وخلق الأنغام . وانتهى بها الأمر إلى أن يساجلها علمان من أعلام الغناء فى ذلك العصر هما يحي المكى وابن جامع فتغلبهما فى كثير من الأحيان وتحرز قصب السبق فى الميدان .

وألفت دنانير لحناً من ألحانها الساحرة فأعجبت به ، وكثيراً ما يعجب الفنان بآثاره ، وقد يكون محقاً ، وقد يكون ذلك غروراً منه بنفسه أو مجاوزة لما ينبغى . وأبلغت دنانير مولاها يحي خبر هذا اللحن تخشى أن تكون قد بالغت فى تقدير إنتاجها فقال لابراهيم الموصلى أستاذها : إن ابنتك دنانير قد عملت صوتاً وأعجبت به فقلت لها لا يشتد إعجابك حتى تعرضيه على شيخك فامض إليها كى تعرضه عليك . فمضى ابراهيم إليها وإذا الستارة قد نصبت فسلم عليها من وراء الستارة فردت السلام وقالت : ياأبت أعرض عليك صوتاً قد تقدم لا شك إليك خبره ، وقد سمعت الوزير يقول إن الناس يفتنون بغنائهم فيعجبهم منه مالا يعجب غيرهم وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك . فقال ابراهيم هات . فأخذت العود وتغنت بالصوت فأعجب ابراهيم غاية العجب واستخفه الطرب واستعاده طالباً فيه موضعاً يصلحه ويغيّره عليها

لتأخذه عنه فما استطاع إلى ذلك سبيلا . فقال لها أعيديه الثالثة فأعادته فإذا هو كالذهب المصفّى . فقال لها أحسنت يا بنية وأصبت . ثم خرج فلقيه يحي بن خالد فقال كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير ؟ قال إبراهيم أعز الله الوزير والله ما يحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة ، ولقد قلت لها أعيديه فأعادته مرات كل ذلك أريد إعناتها لأجتلب لنفسى مدخلا يؤخذ عنى وينسب إلىّ فلا والله ما وجدته . فقال له يحي والله سررتني وسأسرك . ووجه إليه بمال عظيم .

وهذه القصة على بساطتها تكشف عن القيمة العليا التى بلغتها دنانير ، وقد استكثرها عليها الوزير وحسدها عليها الفنان ، ثم أصبح كل منهما شاهداً بنبوغها ، يتبادلان الحكم لها والثناء عليها . وحسبها أن إبراهيم الموصلى أمير المغنين فى زمانه بلغ من إعجابه بلحنها أن حاول وضع بعض الكسوة والصياغة عليه ليرده إليها منسوباً إليه ولو على سبيل أنه حسّن فيه وأصلح منه ، ولكنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما صنع سوى أن زاد اللحن قيمة والملحن قدراً .

وكانت دنانير تسجل فى ذاكرتها إنتاج إبراهيم الموصلى وتعيد ماتسمعه منه فتحكيه فى أمانة وتؤديه فى صدق وبراعة كأنه تكرار لصوت صاحبه ، حتى قال إبراهيم ليحى البرمكى : متى فقدتنى ودنانير باقية فما فقدتنى .

وغنت بحضرة الرشيد فسحرته بغنائها . وكان لما استولى عليه
من فنونها البارعة ورقة ظرفها وبديع محاسنها أن زاد كلفاً بزيارة
مولاها وبالغ فى الإكثار من هذه الزيارة والإفراط فى الاستماع
إلى دنانير حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك .

وبلغ من مكانة دنانير عند مولاها يحيى أن كان يخرج عنها
كفارة الصوم فى شهر رمضان عن كل يوم ألف دينار . وهذه
المبالغة فى الفدية دليل على ما كان لها من القيمة عنده حيث تبلغ
النفقة عليها فى شهر واحد ثلاثين ألف دينار وهو من الكثرة بما
لا يعرف له نظير ولم نسمع به لغير دنانير . ولم يكن إفطارها
فى رمضان عن استهتار أو تهاون إنما سببه مرض معوى أصيبت
به فجعلها لا تصبر عن تناول الطعام مدة طويلة .

وعلى الرغم من أن يحيى البرمكى أعتقها فقد لازمت البرامكة
وغنت ليالى أفراحهم، فكانت متعة أسماعهم وأرواحهم وأبصارهم،
حتى نسبت إليهم فلقبت بدنانير البرمكية . وظلت فيهم حتى شهدت
نكبتهم التاريخية المشهورة التى نكبهم بها الرشيد .

وبعد هذه الكارثة دعاها الرشيد وأمرها بالغناء فأبت وقالت
يا أمير المؤمنين إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً ، فغضب
الرشيد وأمر بصفعها فصفعت ، وأمرت بالوقوف ، وأكرهت على
أن تمسك بالعود فما كادت تفعل حتى غلب على غنائها البكاء وهى تنوح:

يا دار سلمى بنازح السند　　بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رأيت الديار قد درست　　أيقنت أن النعيم لم يعد

ويظهر أن نغمة الوفاء الصادرة من قلبها الجريح ، فى إبائها ، ثم فى غنائها ، أثارت فى قلب الرشيد عطفاً عليها فأمر بأن تترك وشأنها ، فما جفّ لها دمع حتى لحقت بالبرامكة .

وقد هام بها الشعراء وتغنى بها منهم أبو حفص الشطرنجى حيث يقول فى شعر مطلعه :

هذى دنانير تنسانى فأذكرها　　وكيف تنسى محباً ليس ينساها

ولم يكن شأن دنانير موقوفاً على الطرب والغناء من حيث الأداء بل كان ذلك شأنها أيضاً فى التآليف فقد صنفت كتاباً فى الأغانى دل على مكانتها العلمية وعلى سمو قدرها الفنى . فهى لم تكتف بمثل ما صنعه نظراؤها من التغنى أو العزف والتطريب بل سمت إلى مقام التأليف فجمعت خلاصة مدرسة فنية كبيرة كان أساتذتها أعلام العصر كله ، وإن كنا نأسف لضياع هذا الأثر القيم من حوزة التاريخ .

ولعل الذى سماها دنانير قد أصاب التفاؤل وبلغ فيه المنتهى . فلقد كانت دنانير ثروة وكنزاً ورأس مال لا من الذهب الذاهب الفانى بل من الفن الرفيع الباقى .

متيم الهشامية

نجمة متألقة بين نجوم عصر بنى العباس ، ابتسمت قصتها فى مطلع فجر الحياة ، وما زالت تلك البسمة تعلو حتى صارت ضحكا عالياً وسعادة مشرقة ومجداً عريضاً وغنىً وثراءً ونعيما . ثم تجهمت لها الأقدار فغمرها الشقاء بعد السعادة ، ولازمتها المحنة بقية حياتها . ولكنها محنة الأوفياء الذين يعيشون من فضيلة حفظ العهد بما قد يسرّى عنهم الدمع المسكوب والشجن الأليم .

كانت متيم للُبانة بنت عبد الله بن اسماعيل المواكبي مولى عريب . فاشتراها علىّ بن هشام منها بعشرين ألف درهم — وإليه نسبت فقيل الهشامية — وكانت فى سن مبكرة . وما كان لعلى أن يرتفع بقيمة جارية فى حداثة سنها إلى هـــذا القدر من المال لولا ما كانت تشف عنه مخايلها من دلائل النبوغ والعبقرية . وكان علىّ عامل المأمون على أذربيجان وما يتاخمها . وعلم المأمون أنه يسير فى الرعية سير المغتصب الظالم من أخذه الأموال وقتله الرجال فأمر بقتله .

وكانت متيم أحظى جوارى علىّ عنده ، وأحبهن إليه ، وآثرهن لديه . وهى أم ولده جميعا .

أما هى فكانت من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتعلمت فنون الأدب والغناء . ثم تتلمذت لإسحق الموصلى وأبيه ابراهيم ومن فى طبقتهما من المغنين . وكانت أستاذتها الدائمة « بذل » المغنية ، تخرجت فى الغناء على يدها واعتمدت على ماحفظته عنها . كما أفادت كثيراً من أعلام المغنين الذين كانوا يفدون على مولاها علىّ بن هشام ، وحفظت عنهم كل مبتكر جديد من ساحر العزف وطريف الأغانى .

ولم تكن متيم بارعة الغناء فحسب ، بل ضمت إلى ذلك براعة الحسن والأدب والثقافة والتأليف . أدركها عبد الله بن العباس الربيعى ، وكان من فحول المغنين ، فلما سئل من أحسن من أدركتَ صنعةً ؟ قال : إسحق ثم علويه ثم متيم ثم أنا . فلما بدا عجب السائل من تقديمه متيم على نفسه قال : الحق أحق أن يتبع ، وما أحسنُ أن أصنع كما صنعت متيم فى لحنها :

فلا زلن حسرى ظُلَّعا لِمْ حملنها

إلى بلد ناء قليـــل الأصادق

وإذا كان من القضايا المسلم بها أن كثرة من أهل هذه الصناعة خاصة كثيرو التحامل بعضهم على بعض ، شديدو النفاسة على

ما يصنعون من أصوات وألحان أدركنا ما لشهادة عبد الله
ابن عباس من قيمة وتقدير .

أهدى إلى علىّ بن هشام بِرْذَوْن[1] أشهب قرطاسى[2]. وكان
فى النهاية من الحسن والفراهة . وكان علىّ به معجبا وإسحق
الموصلى يرغب فيه رغبة شديدة ، وعرَّض لعلىّ بطلبه مراراً
فلم يرض أن يعطيه له ، فسار إسحق إلى علىّ يوما بعقب صنعة
متيم « فلا زلن حسرى » فاحتبسه علىّ ، وبعث إلى متيم أن
تجعل صوتها هذا فى صدر غنائها ففعلت ، فأطرب إسحق إطراباً
شديداً . وجعل يسترده فترده وتستوفيه ، ليزيد فى إطرابه
إسحق وهو يُصغى إليها ويتفهم لحنها حتى صح له . ثم قال لعلى :
ما فعل البرذون الأشهب ؟ قال : على ما عهدت من حسنه وفراهته
قال : فاختر الآن منى خلة من اثنتين : إما أن طبت لى نفساً به
وحملتنى عليه ، وإما أن أبيتَ فأدَّعى والله هذا الصوت لى وقد
أخذته ، أفتراك تقول إنه لمتيم وأقول إنه لى ويؤخذ قولك ويترك
قولى ؟ قال : لا والله ما أظن هذا ولا أراه ، ياغلام قُد البرذون
إلى منزل أبى محمد بسرجه ولجامه ، لا بارك الله له فيه .

وإن هذه الدعابة لتحمل فى هزلها الجد كل الجد ، وتنطوى
على شهادة من إسحق الموصلى ومكانته من الموسيقى علومها وفنونها

---

(١) البرذون: الدابة . (٢) القرطاسى : الأبيض الذى لا يخالط بياضه شية .

مكانته ، واعتراف منه وهو علم الغناء فى العصر العباسى لمتيم .
فما كان له أن يقبل نسبة اللحن إليه وادعاءه إياه لنفسه لمجرد رغبته فى البرذون . ولو أنه كان لحناً دون منزلته فى هذا الفن لما قبل أن يدعيه . بل لقد وجد فيه الإعجاز فحفظه ووعاه ، ورأى فى نسبته إليه تشريفاً ، وأن متيم بلغت من النضوج ما يصح معه أن ينسب فنها إليه . ولولا ذلك ما قبل لنفسه أن ينسب اللحن إليه حتى ولو كان معه براذين بغداد جمعاء .

ولا أدل على اعتراف إسحق بقدر هذه الفنانة من قوله لها عندما سمع هذا الصوت الذى تقدم : أنت أنا ، فأنا من ؟ يريد أنها قد بلغت منزلته وساوته .

أرأيت مكانة أسمى من هذه المكانة ؟ ومقاماً فنياً يُتطاول إليه كهذا المقام ؟

وهذا ابراهيم المهدى سمعها تغنى فى مجلس المعتصم :

لزينب طيف تعتريني طوارقه
هدوءاً إذا ما النجم لاحت لواحقُه

فحاول استعادته ، على نحو ماصنع إسحق من قبل ، وكانت هى أحرص على نفسها من أن تلدغ من جحر مرتين فأبت . ولكن ابراهيم ما زال يخالس منها الفرصة حتى سمعها وهى فى منظرة لها مشرفة على الطريق تغنى هذا الصوت على جوارى على بن هشام .

فتقدم إلى المنظرة وهو على دابته فتطاول حتى أخذ الصوت . ثم ضرب المنظرة بمقرعته وقال : قد أخذناه بلا حمدك .

ولقد كان على بن هشام كلفاً بها لا يستطيع صبراً على فراقها أو على طول دلالها . وله فى ذلك قصص تدل على عظيم تقديره لها وتعلقه بها .

فمن لطائف ما حدث له معها أنه كلمها يوماً فأجابته جواباً لم يرضه فدفعها بيده ، فغضبت ونهضت . وتثاقلت عن الخروج إليه . فكتب إليها :

فليت يدى بانت غداة مددتها   إليك ولم ترجع بكفٍ وساعد
فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا   فلست إلى يوم التنادى بعائد

فصنعت فيه لحنا صرع القلب وأذهل اللب . وغنته فكان شفاء النفس وغذاء القلوب والحس .

وعتبتْ عليه مرة فتمادى عتبُها ، وترضاها فلم ترض ، فكتب إليها : الإدلال يدعو إلى الإملال ، ورب هجر دعا إلى صبر . وإنما سُمّى القلب قلباً لتقلبه . ولقد صدق الأحنف حيث يقول :

ما أرانى إلا سأهجر من ليس   يرانى أقوى على الهجران
قد حدا بى إلى الجفاء وفائى   ما أضر الوفاءَ بالإنسان

فخرجت إليه من وقتها ورضيت .

وهنا نقف وقفة قصيرة أمام تلك البيئة التي عاشت بها فناتننا الفاتنة، فهى بيئة الثروة والحكم والنفوذ والقصور والملك العريض. فلمَ لا تنطلق بلبلة كمتيم لتملأ هذه الجنة كلها عبقرية وجمالاً وتغمرها سحراً ودلالاً!! ولمَ لا تتجاوب مع كل لون من ألوان تلك السعادة بألحان تبتدعها وأغان تبتكرها!! وهى أيضاً بيئة ذكاء خارق وفطنة بالغة وفراسة عجيبة. فلنستمع إلى علىّ حيث يحدثنا فيقول:

لما قدمت علىّ جَدتى من خراسان، قالت اعرض جواريك علىّ فعرضتهن عليها. ثم جلسن على سمر وغنتنا متيم وأطالت جدتى الجلوس فلم أنبسط إلى جوارى كما كنت أفعل. فقلت هذين البيتين:

أنبقى على هذا وأنت قريبة ... وقد منع الزوارُ بعض التكلم
سلام عليكم لا سلامِ مودّع ... ولكن سلامِ من حبيب متيم

وكتبتهما فى رقعة ورميت بها إلى متيم فأخذتها، ونهضت إلى الصلاة.. ثم عادت وقد صنعت فيه اللحن الذى يغنى فيه اليوم. فغنت وطرّبت. فقالت جدتى: ما أرانا إلا ثقّلنا عليكم اليوم، وأمرت الجوارى فحملن محفتها. وأمرت بجوائز للجوارى، وساوت بينهن. وأمرت لمتيم بمائة ألف درهم. وهذا ظرف من علىّ، وفطنة من جدته، وعبقرية من متيم.

وكانت متيم شديدة الوفاء لعلى بن هشام. وقد ظلت على وفائها له حتى بعد مماته. وصنعت فيه نوحا أذهل النوائح حتى

قالت « زَيْن » زعيمتهن : رضى الله عنك يا متيم ، كنت علماً فى السرور وأنت علم فى المصائب .

وقد مرت يوما نسوة وهى مستخفية بقصر علىّ بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً لا أنيس عليه ، وقد علاه التراب والغبرة ، وطرحت فى أفنيته المزابل ، وقفت عليه تغنى :

يا منزلا لم تبل أطلاله	حاشا لأطلالك أن تَبْلى
لم أبك أطلالك لكننى	بكيت عيشى فيك إذ ولى
قد كان لى فيك هوىً مرة	غيبه الترب وما هلا
فصرت أبكى جاهداً فقده	عند ادكارى حيثما حلا
فالعيش أولى ما بكاه الفتى	لا بد للمحزون أن يَسْلَى

ثم بكت حتى سقطت من قامتها ، وجعل النسوة يناشدنها ويقلن: اللهَ اللهَ فى نفسك فإنك تؤخذين الآن . وبعد لأى ما ، حملت تتعثر بين امرأتين حتى تجاوزت الموضع .

ودعيت متيم إلى مجلس المعتصم ، وهى فى وقت محنتها ، فأنشدت شعراً محزناً فتشاءم الخليفة ، وطلب أن تبدل غناءها ، فغنت على نحو غنائها الأول حتى ضجر بمكانها . ولم تستطع بعد المرة الرابعة أن تغير نفسها المحزونة المكتئبة لتخلق شيئاً ليس فيها. فقدر الخليفة وفاءها ، ولم يجشمها ما ليس فى طاقتها ، وأذن لها فى الخروج دون أن ينالها بسوء .

ومن العجب أن نرى هواية بعض الأزهار تتجلى فى عباقرة ذلك العصر وفنانيه ، فإن كثيرين منهم كان لهم بألوان وأنواع خاصة من الزهر ميول وكلف ، كما تحدثنا بذلك القصائد التى وصفت لنا الكثير من هذه الزهور . ومن ذلك أن متيم كانت مغرمة بزهر البنفسج ، وقد وجدت فيه راحة القلب وهدوء النفس ، فكان لايفارقها . ومن تتبع زهرة البنفسج وجد لها عشاقاً من أرباب المواهب الفنية ، كأن تلك الزهرة صورة من أذواقهم التى تعيش فى مثل هدوء البنفسج وعطره البديع .

وقد ماتت متيم فى عصر المعتصم ، وأحدثت فراغاً عظيما فى ذلك الجو . ومات وإياها فى وقت متقارب إبراهيم بن المهدى وأستاذتها بذل . ومن الفكاهات التى تلطف حدة الشعور بخسارة ذلك العصر لهم تلك الطرفة التى يرويها المؤرخون :

لما ماتت متيم وإبراهيم بن المهدى وبذل تقدمت إحدى جوارى المعتصم وقالت : يا سيدى ، أظن أن فى الجنة عُرساً فطلبوا هؤلاء إليه . فنهاها المعتصم عن هذا القول وأنكره . فلما كان بعد أيام وقع حريق فى حجرة هذه القائلة ، فاحترق كل ما تملكه . وسمع المعتصم الجلبة فقال ما هذا فأُخبر عنه فدعا بها فقال : ما قصتك ؟ فبكت وقالت ياسيدى احترق كل ما أملكه . فقال لاتجزعى فإن هذا لم يحرق وإنما استعاره أصحاب ذلك العُرس.

فريدتان

لم نتعود أن نضع فى هذا الكتاب ، وربما فى غيره كذلك ، عنوانا أو موضوعاً لعَلمين اثنين معاً فى إطار واحد . وإنما ألجأنا إلى ذلك الآن دفع التشابه والالتباس فى الأسماء ، فكثيراً مايقع الخلط فيما تأتلف فيه الأسماء وتتشابه العناوين والألقاب . ودفع بنا إلى هذا شىء آخر هو أن كلتى الفريدتين قد جمعهما عصر واحد وفن واحد وقصر واحد ، فقد ظهرت كل منهما فى العصر العباسى . ولم يكن الذى وحّد بينهما العصر وحده بل الفن الخالد ، والغناء الساحر ، وأنهما من جوارى الخلفاء . ونحن آخذون فى الحديث عن هاتين الزميلتين فى الاسم والعصر والصناعة والمكانة .

أما فريدة الأولى ، التى ظفرت لتقدمها الزمنى باسم فريدة الكبرى ، فهى من المولدات اللائى نشأن فى الحجاز . وقد امتازت بجمال الصوت من مستهل حياتها . فلما صارت إلى آل الربيع فطنوا إلى موهبتها الصوتية واستعدادها الموسيقى فعهدوا بها إلى من أتقن تعليمها وأكمل ثقافتها الفنية . وارتفع بها شأوها إلى البرامكة فصارت إليهم وسكبت رحيق أغانيها فى قصورهم ، فلما قتل جعفر

ونزلت بهم كارثة القضاء المحتوم لاذت بالفرار . وحاول الرشيد أن يستحضرها إلى قصره فأعياه الطلب . ثم صارت بعد ذلك إلى الأمين ، حتى إذا قتل تزوجت بعده مرتين . وقد أنجبت ولداً كان ثمرة الزوجية الأولى .

وكانت تتخير لغنائها جيد الشعر ومليح القافية . ومن ذلك غناؤها فى قول جميل :

ألا أيهـــا النوام ويحكمو هبوا
نسائلكم هل يقتل الرجلَ الحب
ألا رب ركب قد وقفت مطيهم
عليكِ ولولا أنتِ ما وقف الركب

* * *

أما فريدة الأخرى ، أو الصغرى ، فلقد كانت أقدر الفريدتين وأظهرهما فناً ، وأنضرهما وجهاً ، وأحسنهما صناعة . تعلمت ألوان الغناء ومهرت فيها اختراعاً وابتكاراً . وحسبك من هذا أن يختار لها إسحق الموصلى صوتاً فيما كان يختاره للواثق من مائة صوت مشهورة . وإسحق حين يتخير فإنما يتخير عن عبقرية وعلم وخبرة . وإن اختيار إسحق لحناً لفريدة لمما يدل على أنها بلغت مكانة فنية جعلتها فى صف متيم الهشامية التى فازت هى الأخرى من إسحق بمثل هذا الاختيار .

كانت فريدة مكينة عند الواثق ، مقربة إليه ، حظية لديه ، حتى ما تكاد تذكر إلا مصحوبة بلقب « جارية الواثق » . فهى مغنيته ، ومالكة قلبه . تسكن إليها نفسه ، ويغار عليها حتى من الغيب المجهول والمستقبل الموهوم .

وقد اشتهر فى عصرها ثلاث من المغنيات هن متيم وعريب وشارية . وتناظر فيها وفيهن « ريق » و « خشف الواضحية » فيمن لها قصب السبق بين من سمعتا من المغنيات . فما لبثتا أن استقر أمرهما على تساوى هؤلاء الأربعة وأن لكل فضلها ومكانتها : فمتيم فى الدقة والصناعة ، وعريب فى الغزارة والكثرة ، وشارية وفريدة فى الطيب وإحكام الغناء .

وقد ربيت فريدة مع صاحبة لها تدعى « خِل » فى كفالة عمرو بن بانة ممن حذقوا الغناء . ولما ترعرت فى تعهده الفنى وتقويمه تجلت فيها ثلاث خلال هى خير ما تحمد من أجله جارية تحظى بقلوب الخلفاء والأمراء وهى : نضارة الوجه ، وإشراق الذكاء ، وبراعة الغناء . وهذه الصفات هى التى حملتها على أجنحتها من المحيط الضيق فى ظل عمرو بن بانة إلى الفضاء الرحيب والنعمة الفارهة والظل الممدود فى قصر الواثق .

وقد فازت عند الواثق بما لا يتسع له القــــول من إعزاز وتكريم ، فقد عدت فى ملكه عروس الفن المحببة وفريدة عقده

المتألقة . فكان حلو غنائها يحقق ركنا من سعادته ويتكفل بأوفر قسط من هناءته . وهى مع هذا النعيم كله ، لم تنس زميلتها « خِل » فى مدرسة الفن وفى بيت المربى ، فإن عمرو بن بانة غنى الواثق يوماً هذا البيت :

قلت خلّى فاقبلى معذرتى ما كذا يجزى محبآ من أحب

فقال الواثق له تقدم إلى الستارة فألقه على فريدة . فألقاه عليها . فقالت له : هو خَلِى أو خِل ، كيف ؟ فأدرك عمرو أنها لم ترد هذا الإشكال اللفظى لذاته وإنما أوردته لتذكر اسم صاحبتها « خِل » وتسأل عنها فى لباقة وحذر .

وهى بهذه القصة أطلعتنا على لون من أدب اللياقة فى عرف حياة القصور حيث لاينبغى أن تسأل جارية عن زميلتها فى صراحة بمشهد من أمير المؤمنين .

وهى فى ذات الوقت لايفوتها الوفاء الذى أدته عن طريق التلاعب اللفظى ، وهو نفس الدليل على حدة ذكائها ويقظة عقلها .

قال محمد بن الحرث وهو من الأسرة الموسيقية فى بلاط الواثق :

« كانت لى نوبة فى خدمة الواثق فى كل جمعة إذا حضرت ركبت إلى الدار . فإن نشط إلى السمر أقمت عنده وإن لم ينشط انصرفت . وكان رسمنا أن لايحضر أحد منا إلا فى يوم نوبته . فإنى لفى منزلى فى غير يوم نوبتى إذا رسل الخليفة قدهجموا علىّ وقالوا لى احضر . فقلت ألخير ؟ قالوا خير . فقلت إن هذا يوم لم يحضرنى فيه أمير

المؤمنين قط ولعلكم غلطتم . فقالوا الله المستعان لاتطوّل وبادر فقد أمرنا أن لاندعك تستقر على الأرض . فداخلنى فزع شديد، وخفت أن يكون ساع قد سعى بى ، أو بلية قد حدثت فى رأى الخليفة علىّ . فتقدمت بما أردت ، وركبت حتى وافيت الدار . فذهبت لأدخل على رسمى من حيث كنت أدخل فمنعت . وأخذ بيدى الخدم فأدخلونى إلى ممرات لا أعرفها . فزاد ذلك فى جزعى وغمى . ثم لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب . ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، وإذا الواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر ، عليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة جاريته عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود . فلما رآنى قال جوّدت والله يا محمد ، إلينا إلينا فقبلت الأرض ثم قلت يا أمير المؤمنين خيراً . قال خيراً ما ترى ، أنا طلبت والله ثالثاً يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك فبحياتى بادر فكل شيئاً ، وبادر إلينا . فقلت قد والله يا سيدى أكلت وشربت أيضاً . قال فاجلس . فجلست . وقال هاتوا لمحمد رطلا فى قدح فاحضر إلىّ ذلك . واندفعت فريدة تغنى :

أهابكِ إجلالا وما بكِ قدرة   علىَّ ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليلَ أنها   قلتك ولا أن قل منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر . وجعل الواثق يجاذبها ، وفى خلال ذلك تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا فى خلال غنائها . فمرَّ لنا أحسن ما مرَّ لأحد . فإنا لكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض ، وتفتت عودها . وجرت تعدو وتصيح . وبقيت أنا كالمنزوع الروح ، ولم أشك فى أن عينه وقعت إلىّ وقد نظرت إليها ونظرت إلىَّ . فأطرق ساعة إلى الأرض متحيراً وأطرقت أتوقع ضرب العنق . فإنى لكذلك إذ قال لى يا محمد ، فوثبت . فقال ويحك ، أرأيت أغرب مما تهيأ علينا!! فقلت ياسيدى الساعة والله تخرج روحى فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب ، ألذنب ؟ قال لا والله ولكن فكرت أن جعفراً يقعد هذا المقعد ، ويقعد معها كما هى قاعدة معى ، فلم أطق الصبر ، وخامرنى ما أخرجنى إلى ما رأيت . فسرّى عنى وقلت بل يقتل الله جعفراً ويحيا أمير المؤمنين أبداً . وقبلت الأرض وقلت يا سيدى الله الله ارحمها ومر بردها . فأمر بعض الخدم الوقوف من يجىء بها ، فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفى يدها عود ، وعليها غير الثياب التى كانت عليها . فلما رآها جذبها وعانقها فبكت ، وجعل هو يبكى ، واندفعت أنا فى البكاء . فقالت ما ذنبى يا مولاى وسيدى ، وبأى شىء استوجبت هذا ؟ فأعاد عليها ما قاله لى ، وهو يبكى ، وهى تبكى . فقالت سألتك بالله

يا أمير المؤمنين ، ألا ضربت عنق الساعة وأرحتنى من الفكر فى هذا ، وأرحت قلبك من الهم بى ، وجعلت تبكى ويبكى ، ثم مسحا أعينهما . ورجعت إلى مكانها . وأومأ إلى خدم وقوف بشىء لا أعرفه فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عين وورق ، ورزماً فيها ثياب كثيرة . وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقداً ما رأيت قط مثل جوهر كان فيه ، فألبسها إياه . وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم فجعلت بين يدى ، وخمسة تخوت فيها ثياب . وعدنا إلى أمرنا ، وإلى أحسن مما كنا . فلم نزل كذلك إلى الليل ، ثم تفرقنا . وضرب الدهر ضربه ، وتقلد المتوكل . فوالله إنى لفى منزلى بعد يوم نوبتى إذ هجم علىّ رسل الخليفة ، فما أمهلونى حتى ركبت وصرت إلى الدار . فأدخلت والله الحجرة بعينها وإذا المتوكل فى الموضع الذى كان فيه الواثق على السرير بعينه ، وإلى جانبه فريدة . فلما رآنى قال ويحك أما ترى ما أنا فيه من هذه !! أنا منذ غدوة أطالبها بأن تغنينى فتأبى ذلك . فقلت لها ياسبحان الله أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ! بحياته غنى . فعزفت والله ثم اندفعت تغنى :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ، ثم رمت بنفسها عن السرير ، وجرت تعدو وهى تصيح واسيداه » .

هذه هى القصة التى أردت أن تسير فى مسلكها الطبيعى ، وأن أضعها أمام القارىء بأحرفها وألفاظها ، لأنها تمثل لنا صورة بل عدة صور من حياة الخلفاء بعيدة عن الإخراج والتلوين . فها نحن أولاء نرى قصر الخليفة الذى يضل سالكه وتتشعب مسالكه .. وها نحن نرى محمداً بن الحرث يتفزع ويتخوف برغم أنه من ذوى الوظائف الدائمة فى القصر ، غير بعيد منه ولا غريب عنه .. ونرى أيضاً أولئك الرسل قد أطبقوا شفاههم عن الأمر الذى من أجله دعى ذلك الفنان فى غير وقته ، فلعلهم لا يعرفون شيئاً عن سر دعوته ، بل لعله يمكن القول بأن الطباع العربية السهلة الصريحة البسيطة الواضحة قد تقلص ظلها فمالت إلى التعقيد حين أصبح الدخلاء من الشعوب المسلمة الجديدة يؤثرون على البلاط العباسى ويدخلون على الخلفاء تكاليف « البروتوكول » مما لم يكن يعرف فى عهد بنى مروان ولا فى بساطة الخلفاء الأولين تحت ظلال النخيل فى شبه الجزيرة .. وها نحن أولاء نرى ابن الحرث كذلك يسلك طرقا من القصر لا عهد له بها ، وهو ذو النوبة الأسبوعية الدائمة فى قصر الخليفة ، الأمر الذى لم يكن ينبغى أن يخفى عليه منه شىء ، ولكنه التعقيد الذى أصاب الحياة الجديدة فجعلها ذات حدود ورسوم والتزامات يقف عندها كل ذى منزلة عند الذى قد رسم له .. ثم نرى ابن الحرث هذا يظهر فى القصة ـ وهو راويها ـ

ذا لونين وذا وجهين ، يرضى بكل وجه خليفة يخالف صاحبه . فإذا كان بحضرة الواثق فمن السهل عليه أن يقول « يقتل الله جعفراً ويحيا أمير المؤمنين أبداً » . فإذا كان اليوم لجعفر لم يكن عسيراً عليه أن يقول لفريدة حين امتنعت ، ومتعجباً « سبحان الله أتخالفين سيدك وسيدنا وسيد البشر ، بحياته غنى » .

هذا الضرب المتلون من المنافقين قلما يخلو منه عصر ، وعصرنا متخم مفعم بالكثيرين ممن اتسعت طباعهم اللولبية لهذه المرونة من النفاق والرياء . وليت المنافقين وجدوا من يقول لهم إن التاريخ وراءكم يحصى ، وإنه مظهركم ولو للأجيال القادمة . فإن يكن فى ذلك عبرة فإن العبرة الكبرى فى وفاء امرأة جارية ونفاق رجل حر يغدو ويروح كما يشاء . فما لها لا تسير مع سعادة كل وقت وتستجيب إليها كما فعل ابن الحرث !! وما لها تربط نفسها بالماضى الذى يعوق قدميها عن السير ويعرقل حظها دون المسرات !! ألا إنه الوفاء حملها من بين يدى جعفر المتوكل ، فمضت هائمة على وجهها تندب الواثق قائلة وا سيداه . . . تاركة من خلفها خليفة يتحير ، ومنافقاً يتبلبل ، وتاريخاً يتكلم ...

شارية

نجمة من نجوم العصر الزاهر فى دولة بنى العباس الذى أشرقت عليه الدنيا بكل مدنياتها ، كما أشرق هو على الدنيا بعلومه وفنونه . فبينا ترى ابراهيم وابنه إسحق وأضرابهما يبلغون الذروة فى علوّ فنهم وجلال شأنهم ، إذا بك ترى من الجوارى المولدات من حولن قصور الخلفاء إلى جنات وفراديس بما يطرب السمع ويهز أوتار القلوب ، ومن أولئك شارية . إلا أن شخصية هذه الفنانة تبدو لنا مضطربة كريشة فى مهب الرياح . فهى جارية فى ثوب حرة أو حرة فى ثوب جارية ! ! فقد اختلف المؤرخون فى نسب أبيها ، كما حاولت أمها أن تتّجر بها طفلة فى البيوت الرفيعة ، شأنها فى ذلك شأن الحمقى من آباء الصغار الموهوبين فى فن الغناء ، ومن فى حكمهم ، ممن يتولون أمور الفنانين واستغلالهم فى حداثتهم . ومهما يكن من شىء فقد ذكرت شارية فى الجوارى . فمن قائل إن أباها كان رجلا من بنى ناجية وإنه جحدها فسرى إليها الرق من أمها . ومن قائل إنها سرقت كما يسرق غيرها من بارعات الجمال لتعرض فى السوق على أرباب القصور والبيوتات ، واشترتها

سيدة هاشمية ، فتولت تأديبها وتعليمها الموسيقى والغناء وهو الفن الذى تروج به الجارية وتضيف به جمالاً إلى جمالها . فلما أتمت ثقافتها الفنية اشتراها إبراهيم بن المهدى فكان أستاذها وسيدها ، ثم تحظاها فكانت أثيرة لديه . حفظت عنه غناءه ، فكانت وعاء مادته وخزانة فنه . وبهذا فضلت عريب تلميذة المرادى . فما كان لعريب أن تبلغ ذلك الشأو البعيد الذى يجب أن تبلغه فنانة تتلمذت لإبراهيم ، وقد عنى بتخريجها ، وسكب فى روحها معارفه وحفظه وابتكاره لتملأ عليه قصره نعمة وهناءة وابتهاجا . ولم يعلمها ليتاجر بها فى أسواق البيع والشراء . وناهيك بإبراهيم بن المهدى الذى لم يكن يقف منه على قدم المناظرة سوى إسحق .

وحسبك أن تعلم أن ابن المعتز صنف فى أخبارها وألف فى تاريخها كتاباً يرويه عنه الرواة . وابن المعتز شاعر وخليفة وابن خليفة ، وهو صاحب التشبيهات والتواشيح المروية المحكية . وهو فى ذلك المقام الأدبى وتلك المنزلة من الإمارة والخلافة يخلد بكتابه شارية ، جارية أبيه وأجداده فى عرش الخلافة العباسية . ومن أخبار ذلك الكتاب ما يصور لنا كيف كان الغناء يعلى قيمة صاحبه ويسمو بمكانته . لقد عرضت شارية على إسحق الموصلى فاستكثر على ثمنها ثلثمائة دينار ، ثم كتب لإبراهيم أنه هو الذى يعرف قدر تلك اللؤلؤة فنقد الثمن لبائعتها الهاشمية ،

ثم أمر جواريه أن يتعهدنها سنة كاملة وهو لايراها ، حتى إذا مضى العام وقد حذقت الغناء طلبها أمام إسحق وأسمعه غناءها وقال له : هذه جارية تباع فبكم تأخذها لنفسك ؟ قال إسحق : آخذها بثلاثة آلاف دينار وهى رخيصة . فذكره ابراهيم بها وأنها هى نفس الجارية التى استغلاها بثلثمائة دينار ، وها هو اليوم يقبل أن يعطى فيها على بخله الموروث عشرة أمثال الثمن الأول قابلة للزيادة . وهكذا نرى فى الغناء تلك المعجزة السحرية التى أعلت مكانتها فى نظر من كان يساوم فيها منذ عام واحد .

ولقد لعبت أمها دوراً تآمرت فيه مع بعض خاصة المعتصم لتنتزع ابنتها شارية من كفالة إبراهيم ومِلكه ، وتختطف من قصره زهرة ناضرة طالما أذاعت فى أرجائه العطر والأريج . فادعت أنها قرشية لايصح أن تمتلك ابنتها وتسترق ، وتقدمت إلى المعتصم بهذا لتحمله على أن يضم إليه شارية مبتدئاً من هذا الطريق ، فمتى أبعدها عن ابراهيم أمكن اختطافها فى يسر وسهولة . وكان ابراهيم أدهى من الجميع ، فبادر إلى الإشهاد على عتقها والزواج منها فى كلام طويل وحيل فقهية ليس هـــذا موضوع الخوض فيها . وحسبك أن تعلم أنها بقيت عند ابراهيم جارية فى حقيقتها زوجة فى زعمها ، إلا أن هزيمة المعتصم أمام إبراهيم لم تطل فقد توفى إبراهيم وانكشف أن العتق والزواج لم يكونا إلا ضرباً من

التلاعب ، وتبين أنها كانت لا تزال أمة فاشتراها المعتصم من ميمونة بنت إبراهيم وضمها إلى قصره حتى مات .

وكان إعجاب إبراهيم بها عظيما . ولست أبالغ لو قلت إن حياتها معه كانت تمثل نصف سعادته على ما كان يحوطه من النعمة والثراء والجاه . فهى تغنيه فى القصر منفرداً أو مجتمعاً . فإذا لم يسعه البر وفضاؤه جمعهما النهر وماؤه . فها هى ذى تغنيه وهما فى سفينة وقد توسطا بها دجلة يستظلان شعاع القمر ، ويقطعان رهبة الليل بروعة الغناء ، فيردد الشاطئان معهما ما يتبادلان من عذب الإنشاد ، وقد غنت لحن إسحق :

لقد حثوا الجمال ليهـ ـربوا منا فلم ينلوا [1]

فهاجه غناؤها حتى قال لها : أنت والله أحسن من الغريض وجهاً وغناءً ، فما يؤمننى عليك ! !

فشارية كما أسلفنا تلميذة إبراهيم وقسيمته فى الفن ، وهى جاريته الأثيرة لديه . علمها الغناء وروت نوادر عبقريته . ورواية أخبارهما الغنائية تكشف لنا عما يكابده الفنانون من العناء فى سبيل التعلم أو التعليم . فهذا ابراهيم يبين لأحد جلسائه وقد أطربه لحن تعلمته منه أن السامع يستقبل اللحن مائدة سائغة لا يدرى مدى

---

(١) صوابه لم ينالوا ، وحذف الألف فى ينالوا ضرورة شعرية وتكلف مستكره .

ما كابد أصحابها فى إعدادها ، وأنه أدار على مسمعها هذا اللحن مئات المرات حتى بلغت به منزلة الإجادة والبراعة .

وكانت شارية على ما يظهر من تاريخها مغنية أكثر منها عازفة حيث لم تكن تجيد العزف بالعود حتى أيام المتوكل حين قامت المنافسة الفنية على أشدها بينها وبين عريب فبدأت تعزف وتجيد .

وكما اعتز بها إبراهيم فقد فاخر بها المعتصم وضن على من طلبها منه بسبعين ألف دينار ، فعاتبه فى ذلك سهل بن الأحول قاضى الكتاب فى زمانه ، فأسمعه المعتصم غناءها فقال سهل : لقد سمعت شيئاً ذهب بعقلى . فقال المعتصم له : هذه هى التى عاتبتنى عليها فى ألا أبيعها بسبعين ألف دينار ولا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار .

وما زالت فى حظوة المعتصم وقد تحققت له بها أمنية طالما تمناها منذ كانت عند إبراهيم ، بل منذ غنت فى قصره فى مباراة غنائية تفوقت فيها جوارى إبراهيم وهى فيهن واسطة العقد على جوارى المعتصم . حتى إذا كان عهد الواثق كانت لا تزال النجمة المتألقة والمغنية المقدمة والأستاذة التى يروى عنها الرواة ، ومن بينهم فريدة الواثقية .

وقد امتد بها الأجل حتى عصر المعتمد . وناهيك بمن تعاصر ثمانية من الخلفاء وتشاهد أحداثاً ووقائع وانقلابات يتواصل فيها

المد والجزر وتغير النفوذ واختلاف الأمر وكثرة التشيع ، وهى المسيطرة الأولى ، أو على الأقل فى مقدمة من تزعم الفن ووجه حركته .

وكان الناس فى أمر شارية وعريب على حزبين ، فهذا عربى وذاك شارى . ولا يسمع أحد الحزبين مايسمعه الآخر ، فكانت القطيعة الفنية تفصل بين الحزبين . وكان اسم شارية دائم التألق وشهرتها متصلة الذيوع . وحسبك فى مكانتها أن يستمع إليها مستمع فى قصر المعتز بين المغنيات فيصفها بأن حظ العجب من غنائها أكثر من حظ الطرب .

إبراهيم بن المهدي

هذا هو المثل السائر ، والنموذج الحى ، والشهادة الخالدة لمقام الموسيقى العربية منذ أكثر من ألف عام . فإلى الذين يجهلون تلك المكانة الرفيعة للموسيقى ، وتساور أحلامهم بأن أمرها قاصر على الطبقات الدنيا ، وإلى الذين يتمجدون بما بلغته الموسيقى من المكانة الممتازة ببلاد الغرب فى هذه العصور الحديثة يوم تعاطاها أمراء وذوو أقدار عالية .. إلى هؤلاء وأولئك نقدم إبراهيم بن المهدى وناهيك به من موسيقار يعتلى الذروة بين أهل الفن ويتسنم الغارب بين أهل المجد والشرف. فقد ظل نبراس الغناء بين أربعة من الخلفاء هم والده المهدى وأخوه الرشيد وولدا أخيه الأمين والمأمون . وكأن عهوداً أربعة تجمعت فقدمت عصارة مدنيتها وخلاصة جمالها وأبهتها فكانت هى إبراهيم بن المهدى .

لقد كان علماً من أعلام الدولة العباسية من حيث البيت الشامخ والأسرة الشماء . ولكنه من وجهة الفن دولة وحده ومدرسة

حديثة كان واضع مذهبها ومربي أساتذتها . والعصر العباسي جديد في كل شيء . . في حضارته وعمرانه ، في فقهه ودراساته وفلسفته ، وفيما ترجم عن الفارسية واليونانية من علوم وفنون كان لها أثرها البعيد في كيان الأمة ، وفي كل ما امتد إليه ظل هذه الدولة . . فكيف يتصور متصور ، أن الغناء سيقف دولابه عند الخطوط الأولى التي كان يترسمها المغنون في الجاهلية وصدر الإسلام وبني أمية وبداية عصر العباسيين ؟ لقد أتيح للفلسفة أعلامها ، وللبيان العربي أقطابه ، وللشعر مبدعوه وقائلوه . فما كان أحوج الموسيقى إلى ثورة فنية يحمل علمها رجل غير متكسب بها ، ولا محترف يخشى الناس على صناعته وكسبه . . رجل يكون له من ثروته الواسعة وجاهه العريض وبيته الرفيع رزق يكفيه وعدة تحميه ليخرج بمذهبه للدنيا فناً خالصاً ، وهو فيه غير هياب ولا مرتاب . وقد قدر للموسيقى أن تجد هذا الرجل في إبراهيم ابن المهدي .

هو أصغر إخوة الرشيد ، وكنيته « أبو اسحق » . واسم والدته « شِكلة » مولدة من أصل ديلمي ، وقد سبيت بعد قتل أبيها . ولما حملت إلى الخليفة المنصور أهداها إلى « محياة » أم ولده فتعهدتها بالتربية ، وبعثت بها إلى الطائف ، حيث مهد العروبة الأصيل ، ومحتدها الأثيل ، حين كانت بغداد إذ ذاك ملتقى اللهجات ومزدحم

اللغات من شعوب وأمم لا حصر لها ، تغدو وتروح من حاضرة الخلافة وإليها . ولعل من الخير لأولئك الجوارى الفارسيات أو التركيات وأشباههن أن يرتضعن العروبة من أرض العرب الأولى بين مكة والمدينة والطائف . وهكذا أريد بشكلة أم إبراهيم أن تستعرب فى مهد بنى ثقيف وغيرهم من القبائل العربية العريقة المحتد فى الإعراب والبيان ، حتى إذا تعلمت واستكملت تربيتها أعيدت إلى مولاتها « محياة » فرآها المهدى عندها فأعجبته ولم تضن عليه بها . ورزق منها ابراهيم فى بغداد عام ١٦٢ ﻫ (٧٧٩م) .

ولما بلغ الطفل السادسة توفى عنه والده المهدى ، فشب ونما بين رعاية أخيه الخليفة الرشيد وكفالة أمه وكانت موسيقية بارعة . فاتيح لإبراهيم أن يجمع بين الفن من منبعه والثقافة العالية الخليقة بأبناء الخلفاء والأمراء .

ولما استوى له فنه الغنائى وأشرقت موهبته فى ضوئها الكامل أخذ يغنى ، ولكنه غناء محتبس مستتر . فهو يترفع عن الظهور به ولا يؤديه إلا فى خلوة عند الرشيد والأمين من بعده . ولم يتح له أن يظهر فنه إلا فى خلافة المأمون حين أمّنه هذا الخليفة فأخذ يجهر بالغناء .

وكان إبراهيم عاقلا متديناً أديباً شاعراً راوية للشعر خطيباً قوى العارضة ، عرف بجزالة الرأى والتصرف فى الفقه واللغة وأبواب الأدب والعلوم المختلفة .

وهو أشهر من أنجبهم الخلفـــاء ذكوراً وإناثاً فى الغناء ، وأعمقهم صناعة ، وأتقنهم فناً . وكان بينه وبين إسحق الموصلى عميد محترفى الغناء فى عصره منازعات وجدل فنى . ولكن ذلك كله لم يمنع إسحق من شهادة الحق والإقرار بمنزلة ابراهيم حين قال « ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس رجلا أفضل من إبراهيم بن المهدى » .

كان إبراهيم من أحذق الناس بفنون الموسيقى علما وأداء فى النغم والأوتار والإيقاع ، وأطبعهم فى الغناء ، وأحسنهم صوتا . وكانت منزلته الممتازة فى جمال الصوت وجودته . وقد عد فى طليعة الطبقة الأولى بين أعلام الغناء فى هذا العصر الذهبى . وهو فوق ذلك يجيد العزف بالآلات الوترية والمزامير والدفوف .

ولم يستكن ابراهيم للفن القديم ، فلم يقف عند مخلفات العصور الغابرة ، ولم يشأ أن يحتذى فى صنعته الأمثلة الغنائية الموروثة ، إذ كان يكره التكلف والتعقيد ويدين بوجوب أخذ الفن من أيسر مناهله وأقربها إلى النفس . فكان يحذف نغم الأغانى الكثيرة العمل حذفاً ، ويخففها ليسهل أداؤها . وتلت هذه الخطوة خطوة أخرى هى مزجها بالموسيقى الفارسية ليخرج منها طابعاً خاصاً ولوناً جديدا . فإذا عيب عليه ذلك قال لناقديه « أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ » .

وهو أول من أقدم على إحداث تطور فى الغناء القديم ، وعلم الناس الجرأة على تغييره . وما لبث الجمهور الفنى أن انقسم إلى معسكرين : فريق يؤيد إسحق الموصلى وأصحابه فى مذهبهم من وجوب الاحتفاظ بالقديم وينكرون على من يحدث فيه تطوراً أو تجديداً ، ويقبحون من يفعل ذلك ويعيبون عليه . وفريق يؤيد ابراهيم بن المهدى ويقتدى به ومنهم مخارق ومن وافقه من أعلام الغناء فى الدولة العباسية .

وقد وجد مذهب ابراهيم قبولا لجدته ويسر تناوله على الناس وبعده عن التكلف والتعقيد الذى يثقل على المؤدين ويجشمهم جهوداً صوتية لاقبل لهم بها . ويقول المؤرخون إن هذا التغيير الذى استحدثه ابراهيم بن المهدى قد أطرد وزيدت عليه ألوان بعد ألوان إلى خمسة أجيال متعاقبة فلم يبلغ إلى الناس فى نهاية الدولة العباسية إلا النذر اليسير من الغناء القديم الذى بقى على حقيقته . قالوا وممن أفسد طابع هذا الغناء خاصة بنو حمدون بن اسماعيل وأصلهم فيه مخارق ، وذريات الواثقية وكانت تغير الغناء كما تريد ، وجوارى شارية . وإن هؤلاء كان يعارضهم فى الناحية الأخرى من أنصار القديم عُريب وزمرتها ممن نشأن فى مدارسها وجواريها ، والقاسم بن زرزور وولده ، وآل يحيى بن معاذ ، وآل الربيع وزمرتهم ، ومن جرى مجراهم ممن تمسكوا بالغناء القديم

وعملوا على المحافظة عليه ومناهضة التيار الجارف من أنصار مذهب تخفيف الأغانى وتجديدها .

هذا هو موجز ما يقوله المؤرخون القدماء عن المذهبين . ورأينا أن أحداً لم يفسد الغناء على حد تعبيرهم ، وإنما كان لزاماً أن يحدث هذا التطور الذى تناول الدولة نفسها فتنقل بها بين أيد فارسية وأخرى تركية ، وبين مدنيات ومذاهب سياسية ودينية وعلمية وفلسفية . فما كان للموسيقى وهى مرآة الحياة أن تنفرد بالجمود والركود بينما كل شيء حولها يتطور ويسير . أما كون الغناء القديم لم يبق منه إلا القليل فليس هذا ذنب ابراهيم ومدرسته وأنصارها إنما هو عمل الزمن الذى لايبقى على شيء غير مدون . وقد أصاب مذهب ابراهيم ما أصاب مذهب إسحق ، وذهبت أغانى هؤلاء وأولئك ، لأن الأمر فى الجميع كان قاصراً على النقل والرواية .

ومن مشهور غناء ابراهيم بن المهدى :

طرقتك زائرة فحيِّ خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء جمالها

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة من ربكم ... جبريل بلّغها النبي فقالها

ومن بديع غنائه فى الغزل :

ياغزالاً لى إليه ... شافع من مقلتيه

والذى أجللت خدّيه فقبلت يديه
بأبى وجهك ما أكثر حسادى عليه

وهذا يشف عن سلامة ذوق فى اختيار كلمات الأغانى ومعانى الشعر ونغم القافية . ولاشك أن سهولة هذا الشعر تتجاوب مع سهولة الغناء فى مذهبه .

وكانت صناعته تجرى فى أسلوب من البساطة كما أوضحنا ، فإذا قيل له فى هذا كان جوابه « إنما أصنع تطرباً لا تكسباً ، وأغنى لنفسى لا للناس فأعمل ما أشتهى » .

وكان لإبراهيم هذا أخت تناظره فى حسن الصوت وإجادة الغناء وهى عُليّة بنت المهدى . وقد عرف الناس أمرهما فتجاوبت أصداء الشهرة فى حسن صوتهما حتى كان يقال : « لم ير الناس فى جاهلية ولا إسلام أخاً وأختاً أحسن غناءً من إبراهيم ابن المهدى وأخته علية... » .

وقد نوهنا بما كان بينه وبين إسحق من جدل فنى ، فكان مما خالف فيه إسحق الثقيلان وخفيفهما [1] فإنه سمى الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثانى وخفيفه ، وسمى الثقيل الثانى وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه ، أى العكس بالعكس . وقد جرت بينهما فى ذلك مناظرات ومجادلات ، ومراسلة ومكاتبة ومشافهة ، وحضرهما

(١) هى أنواع من الايقاع .

الناس فلم يكن فيهم من يقضى بالفصل فيما بينهما والحكم لأحدهما على صاحبه ، حتى لقد كتب إسحق مرة لإبراهيم فى ذلك يقول له : والناس بينى وبينك بهائم .

قال عمرو بن بانة « رأيت إسحق الموصلى يناظر إبراهيم ابن المهدى فى الغناء فتكلما بما سمعناه ولم نفهم منه شيئاً فقلت لهما لئن كان ما أنتما فيه من الغناء فما نحن منه لا فى القليل ولا فى الكثير » .

وقد أفنيا عمرهما فى تنازعهما حتى كان يمضى لهما الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما فى تجزئة لحن ومكاتبتهما فى قسمة صوت واحد . وظلا طوال حياتهما وبينهما منازعة فى كثير من أمور فنية لم يفصل بينهما فيها . على أن ما كان بينهما من شدة الجدل والمناظرة لم يمنع إسحق من أن يشهد لإبراهيم فيقول فيه : « ليس فيمن يدعى العلم بالغناء مثل إبراهيم بن المهدى » .

وهكذا تناظرا الفنانان العظيمان ما شاءت لهما مقدرتهما العلمية الدقيقة. ثم نرى إسحق يضفى على إبراهيم هذا الثناء ويعترف بعلمه وفضله وبراعته . خصومة فى الفن واعتراف بالفضل . إن هذا لمنتهى ما ترقى إليه الأمم فى تقدير أفذاذها لحرية الرأى والمناقشة ، على أن يكون هدفها الوصول إلى الحقيقة لا النيل من الأشخاص . وعجيب أن يقع ذلك بين إسحق وإبراهيم فى بيئة قريبة بعصبية القبائل والبيوت والشعوب ، وأعجب منه أن يكون بين أمير هاوٍ وموسيقى محترف .

وكما اشتهر إبراهيم بن المهدى فى صناعة الغناء بحسن الصوت وجودته فقد برع فى القدرة على أداء أغلظ النغمات من ناحية الثقل وأشدها ارتفاعاً من ناحية الحدة . وبلغ اتساع المنطقة الصوتية لمقدرته فى الأداء ثلاث مراتب (أوكتاف) . وهذه موهبة نادرة قد لا يجود بها الزمان على تعاقب عصور وأجيال .

روى يحيى بن المنجم عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن إسحق بن عمر بن بزيغ قال « كنت أضرب على إبراهيم بن المهدى ضرباً فغناه على أربع طبقات : على الطبقة التى كان العود عليها ، وعلى ضعفها (١) ، وعلى أسجاحها (٢) ، وعلى أسجاح الأسجاح » . وقال بعضهم « هذا ما حكى لنا عن أحد غير إبراهيم ، وقد تعاطاه بعض الحذاق فوجده صعباً متعذراً لا يمكن بلوغه إلا بالصوت القوى ، لأن الضعف نفسه لا يمكن بلوغه إلا بصوت قوى دقيق حاد ، فإذا دق الصوت حتى كان فى مكنته أن يبلغ هذه الأضعاف لم يقدر على تأدية الأسجاح فضلاً عن أسجاح الأسجاح » .

وسيرة إبراهيم الفنية فخر للموسيقى العربية ، فقد كان من علمائها الواقفين على دقائقها . وتنهض حياته الفنية حجة للموسيقى العربية من ناحية عدم إهمالها معرفة طرائق تدوين الألحان فى ذلك العصر الذى يعتبر عصراً ذهبياً .

---

(١) أى الجواب . (٢) أى جواب الجواب .

حكى الحسين بن يحيى أبو الجمان أن إسحق الموصلى لما صنع صوته « قل لمن صد عاتباً » اتصل خبره بإبراهيم بن المهدى فكتب عنه فكتب إليه إسحق بشعره ، وإيقاعه ، وبسيطه ، ومجراه ، وإصبعه ، وتجزئته ، وأقسامه ، ومخارج نغمه ، ومواضع مقاطعه ، ومقادير أوزانه . فغناه إبراهيم .

وإبراهيم كما عرفنا مغن بارع لا للحرفة ولا للتكسب ، وإنما هى الفطرة والهواية وإشباع الرغبة الفنية التى ما تكاد تلامس جذوتها حادثة من الحوادث حتى تثور وتستيقظ وتصبح شعلة تضىء ما حولها .

هكذا كان إبراهيم إذا حركته البواعث غنى واشتركت البقية من جسمه مع حنجرته ، وتحول سكونه إلى حركة فى الأداء وطرب فى الغناء . والحادثة التالية هى حوار غنائى يتفرد فيه بالانتصار ويفوز فيه بالجولة الأخيرة .

دعا إبراهيم بن المهدى ذات يوم كل مطرب محسن من المغنين ، وجلس يلاعب أحدهم بالشطرنج . فترنم أحدهم بصوت وهو متكىء ، فلما فرغ منه ترنم به مخارق فأحسن فيه وأطرب الحاضرين ، فأعاده إبراهيم وزاد فى صوته فعفّى على غناء مخارق . فلما فرغ ردده مخارق وغنى فيه بصوته كله وتحفظ فيه ، فكاد الجمع يطير سروراً . فاستوى إبراهيم جالساً ، وكان متكئاً ، فغناه بصوته كله ،

ووفاه نغمه وشذوره ، وكانت كتفاه تهتزان ، وبدنه أجمع يتحرك ، حتى فرغ منه ومخارق شاخص نحوه يرعد وقد امتقع لونه واختلجت أصابعه . وقد خيل للحاضرين أن الإيوان يسير بهم . فلما فرغ ابراهيم من الصوت تقدم إليه مخارق فقبل يده وقال « جعلنى الله فداك أين أنا منك » . ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقية يومه .

وثمت شيء آخر فوق المقدرة الغنائية والعبقرية الصوتية أعنى الأمانة فى الرواية والرفق فى التعليم . فهذه القصة التالية نرى ابراهيم فيها يسأله الخليفة عن لحن أعجبه فينسبه إلى صاحبه دون أن يعزو إلى نفسه شيئاً ، ولو على سبيل التحسين أو الإخراج . ولو فعل ذلك لكانت الفرصة مواتية فلم يكن هذا عهد التدوين ولا عصر التسجيل الذى يحتفظ للقطعة بكيانها تاماً غير منقوص . بل لقد كان الباب مفتوحاً والمجال متسعاً فسيحاً لادعاء التحسين والتغيير والمشاركة على الأقل . ولكنه اكتفى أن يكون أميناً فى النقل . وهذا شرف لا يقدره إلا الأمناء ولا يبلغه الأدعياء . إننا نرى فى هذه القصة أمانة الناقل ثم رقة الفنان وحنان المعلم الرحيم الذى ينظر بعين العطف والبر والتجوز إلى مستوى المتعلم الذى لم يرتفع إلى مستوى الأستاذ المجرب . ولولا هذه الرحمة ما رسبت تلميذة إبراهيم فى الامتحان وحده بل لرسبت إلى الأعماق فى مياه دجلة الطافحة .

قال ابراهيم بن المهدى : كنت يوماً بين يدى الأمين أغنيه :

أقوَتْ منازل بالهضاب   من آل هند والرباب
خطارة بزمامهـــا   وإذا ونت ذلل الركاب
ترمى الحصا بمناسم   صم صلادمة صلاب

فاستحسن اللحن ، وسألنى عن صانعه ، فقلت لابن عائشة . فلم يزل يستمع إليه ، لايتجاوزه . ثم أمر بإحضار صَبيَّة ، كان يتحظاها ، فخرجت إلىّ كأنها لؤلؤة فى يدها العود . فقال : بحياتى ياعم ألقه عليها . فأعدته مراراً ، حتى ظننت أنها قد أخذته فأمرتها أن تغنيه فغنته ، فإذا هو قد استوى لها إلا فى موضع واحد كان فيه صعباً جداً ، فجهدت جهدى أن يقع لها فلم يقع لها البته . ورأى جهدى فى أمرها فأقبل عليها مغضباً وقال : علىّ عهد الله لئن لم تأخذيه بعد ثلاث مرات لآمرن بإلقائك فى دجلة . وكانت دجلة تطفح وبيننا وبينها نحو ذراعين . فتأملتُ القصة وقلت فى نفسى هذه والله داهية . فعدلت عما كنت أغنيه عليه ، وغنيته كما كانت هى تقوله ، وجعلت أردده ، فلما انقضت الثلاث المرات قلت لها هاته الآن فغنته على ما كان وقع لها ، فقلت أحسنتْ يا أمير المؤمنين . فطابت نفسه وسكت .

ولمخارق شهادة أخرى لإبراهيم بن المهدى ، وقد سار فيها على سلم تصاعدى وحددها بدرجات بعضها فوق بعض ، وجعلها

حُكما تناول فيها أشهر المغنين وطبقاتهم فى ذلك العصر ، ولم ينس نفسه من المكانة الثانية بعد إبراهيم . وهى فى جملتها تدل على ما امتاز به ابن المهدى من غناء تفرد فيه بحسن الصوت وعراقة الأصل والمعدن .

سئل مخارق مرة : من أحسن الناس غناءً ؟ قال « كان ابراهيم الموصلى أحسن غناءً من ابن جامع بعشر طبقات ، وأنا أحسن غناءً من إبراهيم الموصلى بعشر طبقات ، وإبراهيم بن المهدى أحسن غناءً منى بعشر طبقات » . ثم قال « أحسن الناس غناءً أحسنهم صوتاً ، وإبراهيم بن المهدى أحسن الجن والإنس والوحش والطير صوتاً ، وحسبكم هذا » .

وقد عاش إبراهيم فيما تدلنا عليه رسائله عيشاً ملؤه الرغد والحياة المطمئنة . فهو صاحب قلم ضليع بقدر ما هو صاحب غناء رفيع . وقد جال فى الدولتين وصال . كما سجلت الآثار الأدبية جملة من رسائله نستطيع أن نستمع فيها إلى صوت عواطفه التى لم تبلغنا إياها ألحانه وغناؤه .

ومات إبراهيم بن المهدى عام ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) .

ابن جامع

هو أبو القاسم اسماعيل بن جامع ، العربي القرشي حسباً و نسباً . ولد بمكة ومات أبوه وهو صبي . ربي تربية فقهية دينية تليق بأمثاله من أبناء البيوتات المجيدة من قريش . ثم تزوجت أمه من سياط المغنى المشهور فنشّأه نشأة موسيقية حتى صار علما من أعلام الغناء والتلحين فى العصر العباسى . وكان وافر التقوى كثير التعبد والصلوات ، يبدو فى أردية الفقهاء وأهل الورع .

وكانت فطرته الغنائية تغلب عليه فى يقظته ، وتقض مضجعه إذا نام فتتسلسل الأنغام والألحان فى عقله الباطن وتتمثل له فى الرؤيا ، فإذا استيقظ كان قد وعاها وحفظها ... وهكذا الفنان يلازمه فنه ولا يبارحه ، يستيقظ به ولا ينام عنه . فهو مستيقظ حتى فى نومه .

تحدثنا جاريته « حولاء » أن ابن جامع مولاها استيقظ يوماً من نومه فتلهف على ولده هشام وناداه ، وطلب أن يقبل على عجل بعوده ليسجل لحنا قبل أن ينساه ، وقد حفظه عن رجل من الجن فى نومه . فجاء ولده مسرعاً وبيده العود . فتغنى ابن جامع رملاً

لم تسمع الجارية أحسن منه ، وكان ابنه يتابعه . أما ألفاظ اللحن فهى :

أمست رسوم الديار غيّرها هوج الرياح الزعازع العصف
وكل حنانة لها زجل مثل حنين الروائم الشغف

وأطلق على هذا اللحن بعد ذلك لحن الجن .

وكان من أحسن ما صنع اللحن الذى غناه تشبباً بحبيبته وكانت سوداء اللون قال :

أشبهك المسكُ وأشبهته قائمة فى لونه قاعدة
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحدة

وقد عاصر ابن جامع ابراهيم الموصلى ، وكان ينازعه المقام الفنى الرفيع البعيد المدى . وقد حكم بينهما برصوم الزامر حكم معاصر فنان ، وهو حكم تصويرى شعرى يضع كلاً منهما فى موضع لا ينتقص فيه فضله . قال حين سئل عنهما : الموصلى بستان تجد فيه الحلو والحامض والطرى الذى لم ينضج فتأكل من هذا وذاك ، وابن جامع زق عسل إن فتحت فمه خرج عسل حلو وإن خرقت جنبه خرج عسل حلو وإن فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيد .

ونمى إلى الخليفة المهدى أن ابن جامع والموصلى يجلسان إلى ولده موسى فى مجلس شراب وغناء ، وكان قد حرم على ولده أمثال هذه المجالس وهو بين فتنتى الشباب والثروة . فاستقدم هذين

المغنين إليه ، وضرب الموصلى ضرباً موجعاً . أما ابن جامع فاسترحم الخليفة فرق له وأطلقه وقال له : قبحك الله أرجل من قريش يغنى !!.. رحم الله المهدى إنه لم يكن يدرى وقتئذ أن ابنه ابراهيم وابنته « علية » سيكونان من مفاخر أعلام الغناء العربى فى العصر كله وأن لهما فى حسن الصوت وجماله مالم يكن لغيرهما ، وإن لم يحترفا الغناء .

وغنى ابن جامع بحضرة الرشيد ، وجاء ابراهيم الموصلى بعد يوم يسأل الوزير جعفر عما كان لمجلسهما من الأثر . فأخبره جعفر أن ابن جامع كان يغنيهما وكان يخرج فى غنائه عن الإيقاع . وكأنما حاول جعفر بهذا أن ينزل بقيمة ابن جامع قليلا لتطيب نفس ابراهيم لما يعرفه بينهما من شديد المنافسة . وهنا تتجلى روح الفن الصادق . بل هنا تستيقظ أريحية ابراهيم ونبله فينسى المنافسة ويذكر شيئاً واحداً هو الحق الذى يعتقده فى زميله الفنان فيجيب جعفر وهو الوزير المطلق اليد النافذ الكلمة بذلك الجواب الحاسم فيقول : أتريد أن تطيب نفسى بمالا تطيب به . لا والله ، ما عطس أو سعل ابن جامع منذ ثلاثين سنة إلا بإيقاع فكيف يخرج اليوم منه !!!

وللمغنين بل وللعباقرة جميعاً على اختلاف مواهبهم وألوان فنونهم حالات تشحذ قرائحهم ، وتجعلهم فيها خيراً منهم فى سواها .

ولعل الحزن كان هو الحالة التى تنبه كوامن العواطف والشجن عند ابن جامع . عرف الرشيد عنه ذلك فأمر أن تنمى فى مجلس لهوه والدة ابن جامع ، وكان له ما أراد . فما كاد ابن جامع يتلقى نعى أمه ، وهو بها بار حفى ، حتى اندفع يغنى مرثية بحزن شديد . فما ملك جميع من كانوا فى المجلس أنفسهم ، وكان الغلمان يضربون برءوسهم الأعمدة والحيطان . وأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار .

وقلما سمعنا أن شاعراً أومغنياً كوفئ عن كل بيت من قصيدة غناها مكافأة خاصة ، كأن كل بيت منها قصر من الفن الخالد جدير وحده بالتقدير والتمجيد . أرسلت زبيدة إلى الرشيد مرة تقول له : ياأمير المؤمنين إنى لم أرك منذ ثلاثة أيام وهذا اليوم الرابع . فأرسل إليها يقول : عندى ابن جامع . فأرسلت تقول : أنت تعلم أنى لا أهنأ بشراب ولا سماع إلا أن تشركنى فيه ، فما عليك أن أشركك فى الذى أنت فيه ؟ فأرسل إليها : إنى سائر إليك الساعة . وسار إليها ومعه ابن جامع ، وجعله فى موضع يُسمع منه ولا يكون حاضراً معهما . ثم أمره أن يغنى فغنى من الثقيل الثانى أبياتاً فى لحن نادر المثال ، فطربت زبيدة طرباً بالغاً وقالت لمسلم خادمها : إدفع إلى ابن جامع لكل بيت مائة ألف درهم . فقال الرشيد : غلبتنا يابنت أبى الفضل وسبقتنا إلى بر ضيفنا .

وكان ابن جامع يتخذ الرقائق والنفائس من الشعر ليضع أجمل الألحان فى أجمل الألفاظ والقوافى . وإنك لتقرأ هذه الأبيات الثلاثة فيشجيك منها نسجها ومعناها قبل أن تعرف شيئا عن لحنها . فإذا كسيت من اللحن حلة مناسبة كانت خليقة بأن يفتخر بها الشاعر الذى نظم والمغنى الذى لحن . وما أروعها إذا كان الغناء لابن جامع :

فلو كان لى قلبان عشت بواحد
وخلفت قلباً فى هواك يعذب
ولكنما أحيا بقلب مروع
فلا العيش يصفو لى ولا الموت يقرب
تعلمتُ أسباب الرضا خوف سخطها
وعلمها حبى لها كيف تغضب

وكان ابن جامع من أولئك العباقرة الذين يلتقطون الجوهرة حيثما وجدت ، لا يبالون من أين ولا ممن ما دامت هى الجوهرة . ومن المغنين من يسمع صوت أحد الباعة المتجولين فيكون له من ذلك مورد فنى . وفيهم من يصغى إلى جماعات الصيادين أو العمال أو الرعاة وطوائف الزراع فيكتسب لفنه لوناً جديداً . وكذلك كان ابن جامع حين استمع إلى جارية سوداء تحمل قربتها فحفظ عنها ، بل اشترى منها اللحن مرتين ، فى يومين متتاليين ، دون أن

يعنيه أنه هو ابن جامع مغنى الخلفاء ، وأنها الجارية التى تحمل قربة السقاء .

كان لابن جامع غرفة باليمن مشرفة على مشرعة فبينا هو مطل ذات يوم منها رأى أمة سوداء على ظهرها قربة ملأتها ووضعتها على المشرعة لتستريح ، وجلست فغنت :

فردّى مصاب القلب أنت قتلته
ولا تبعدى فيما تجشمت كلثما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى
لها عسل منى وتبذل علقما
أبى الله أن أمسى ولا تذكرينى
وعيناى من ذكراك قد ذرفت دما
أبيت فما تنفك لى منك حاجة
رمى الله بالحب الذى كان أظلما

وفى رواية أخرى أنها غنت :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا
فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم
سراعاً ومايغشى لنا النوم أعينا

إذا ما دنا الليل المضر لذى الهوى

جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما

نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

ثم أخذت قربتها لتمضى فاستفز ابن جامع من سحر الصوت مالا قوام له به. فنزل إلى الجارية، وقال لها أعاديه. فقالت أنا عنك فى شغل بخراجى. قال وكم هو؟ قالت درهمان فى كل يوم. قال فهذان درهمان وردّيه علىّ حتى آخذه. فقالت أما الآن فنعم. وجلست فلم تبرح حتى أخذه منها وانصرفت. ولكن أصبح ابن جامع من غد وهو لايذكر منه حرفا، وإذا هو بالسوداء قد طلعت وفعلت كفعلها بالأمس. فلما وضعت القربة تغنت غير الصوت الذى يريد ابن جامع فعدا فى إثرها وقال: يا جارية بحقى عليك ردّى علىّ الصوت فقد ذهبت عنى منه نغمة. فقالت لست أفعل إلا بدرهمين آخرين. فدفعهما إليها وأعادته عليه حتى أخذه ثانية ثم قالت له: إنك تستكثر فيه أربعة دراهم وكأنى بك قد أصبت به أربعة آلاف دينار.

ثم كان ابن جامع عند الرشيد يوماً وهو على سريره فقال: من غنانى فأطربنى فله ألف دينار، وكان أمامه أكياس فى كل كيس ألف دينار فغنى القوم وغنى ابن جامع فلم يطرب الرشيد

حتى دار الغناء إلى ابن جامع ثانية فغنى صوت الجارية السوداء فرمى الرشيد إليه بكيس فيه ألف دينار . ثم قال له أعده فأعاده فرمى إليه بثان . ثم قال أعده فرمى إليه بثالث ، وأمسك . فضحك ابن جامع . فقال الرشيد : ما يضحكك ؟ فقال : لهذا الصوت حديث عجيب يا أمير المؤمنين . فقال وما هو ؟ فحدثه به ، وقص عليه القصة فرمى إليه بكيس رابع وقال : لا تكذبها قولها .

وتوفى ابن جامع حوالى عام ١٨٨ ه (٨٠٣ م) .

مخارق

هو أبو المهنأ مخارق بن يحي بن ناوس الجزار مولى الرشيد. وكان قبل ذلك لعاتكة بنت شهدة وهى مغنية عازفة بلغت فى ذلك مكانة مرموقة، وعنها أخذ فى بداية عهده بهذا الفن. نشأ بالمدينة، وقيل بالكوفة، وكان والده جزاراً مملوكا، فلما ترعرع ولده مخارق أخذ ينادى على سلعة أبيه فنبه إلى حسن صوته بحسن مناداته. واشتراه إبراهيم الموصلى من عاتكة، وأهداه للفضل بن يحي. وانتقل من يده إلى الرشيد وكان قد علم بأمره فقال لإبراهيم: ما خبر ذلك الغلام الذى بلغنى أنك وهبته للفضل؟ فقال إبراهيم إنه يا أمير المؤمنين غلام لم تملك العرب ولا العجم مثله أبداً. فلما استقدمه الخليفة وغنى بين يديه نال إعجابه. وعند ما انتهى إليه أمره أعتقه وكان له ولاؤه. وقد عهد الرشيد بتعليمه الغناء إلى إبراهيم الموصلى فأحسن تعليمه وتخريجه.

وكانت بداية سطوع نجمه أنه كان يغنى قائماً مع الغلمان بين يدى الرشيد دون أن يجلس. وغنى ابن جامع أغنية طرب لها الرشيد فضاق إبراهيم بإقبال الخليفة على ابن جامع فأسرّ مخارق

إلى أستاذه الموصلي بأنه أجاد الأغنية وقال له أعلم الخليفة بذلك فإن أحسنت فإليك ينسب وإن أسأت فإليّ يعود . فادعى إبراهيم للرشيد أن هذا ليس من صنع ابن جامع . وقال إن عبدك مخارقا يغنيه . فنظر إلى مخارق فقال نعم يا أمير المؤمنين . فقال هاته . فغناه وتحفظ فيه فأتى بالعجائب . فطرب الرشيد حتى كاد يطير فرحاً . ولما سأل الخليفة ابن جامع أقسم بين يديه بما يؤكد أن الصوت له وأن مخارقاً لم يسمعه إلا منه الساعة . وسأل الخليفة إبراهيم وتلميذه فلم ينكرا . وإذ ذاك قال الرشيد لمخارق : اجلس إذن مع أصحابك فقد تجاوزت مرتبة من يقوم . ووصله بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضيعة ومنزلا .

ولعل من الطريف أن نذكر أن الكنية المشعرة بالمدح مما يعتز بها أصحابها ، خصوصاً إذا صدرت من أمير المؤمنين ، فهى نطق ملكى جدير بالاعتزاز به كبقية الألقاب والرتب .

غنى مخارق يوماً أمام الرشيد ، فأعجب بغنائه وطرب له ، ولكنه استدعى هرثمة السياف . فسقط قلب مخارق وساوره المقيم المقعد من أمره ، وقد أقبل هرثمة إلى الخليفة يجر سيفه . فقال الخليفة : يا هرثمة ، مخارق الشارى الذى قتلناه بناحية الموصل ما كانت كنيته ؟ فقال : أبو المهنأ . فقال انصرف . فانصرف . ثم أقبل على مخارق وقال : قد كنيتك أبا المهنأ لإحسانك . وأمر له بمائة الف درهم . فانصرف بها وبالكنية .

وما أبلغ وصف الموسيقىَ حين يصدر عن شاعر فهو وصف الفن الصامت بالفن المتكلم . ها هو أبو العتاهية شاعر الحكمة والزهد يقصد إلى الموسيقى ، ويؤم بيت مخارق ملتمساً الغذاء الروحى عنده . إنه جائع الروح ، ظامئ القلب ، فليلتمس شبعه وريه عند هذا المغنى العبقرى .

ذهب أبو العتاهية إلى دار مخارق فقال له : « يا حسان هذا الإقليم ، يا حكيم أرض بابل ، أصبب فى أذنىّ شيئاً يفرح به قلبى وتنعم به نفسى » . فلما غنى مخارق أخذ أبو العتاهية يبكى ثم قال له : « يادواء المجانين لقد رققتَ حتى كدتُ أن أحسوك[1] . فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أُدْماً ، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة » .

وكان لمخارق مذهبه الغنائى الذى يميز شخصيته الفنية ويحدد طابعه الموسيقى . وكان فى مذهبه هذا يأتى بالسحر العجاب ، كما وقع لأبى العتاهية حين غناه مرة أخرى بيتاً من أبياته فى الزهد اشترك فيه عدد من الملحنين كان الفوز فيهم لمخارق .

وكان الواثق شديد الشغف بمخارق حتى أسكنه غرفة فى قصره ، لا يرى منزله غير يوم كل أسبوع . وكان الجوارى يغنين الخليفة مكانه ذلك اليوم . وبينما هو بمنزله فى نوبته الأسبوعية وقد صلى الصبح واستمر فى تسبيحه وعبادته فى صحن داره وإذا بجوارى القصر أقبلن وقلن له إن أمير المؤمنين قد دعا بنا فى هذه

(١) حسا : شرب .

الساعة فأعدنا عليه الصوت الذى طرحته علينا فلم يرضه من أحد منا ، وأمرنا بالمسير إليك لنصححه عليك . فأمر الجميع بالجلوس واستعاد الصوت فلم يعجبه من أحد . ودعا بجاريته « عميم » واستعاده منها فلم يرضه أيضاً . فبدأ يغنيه بنفسه . وهنا يحدثنا ابنه هارون فيقول :

« ... فخرج الوصائف من حُجَر جواريه حتى وقفن حوالى الأسرّة (فى صحن الدار) ودخل غلام من غلمانه وكان يتولى سقاية الماء فهجم على الصحن بدلوه ، وجاءت جارية على كتفها جرة من الجرار المزملات [1] حتى وقفت بالقرب منه ، فسبقتنى عيناى فما كفكفتُ دموعها حتى فاضت . ثم قطع الصوت حين استوفاه فرجع الوصائف الأصاغر سعياً إلى حجرات الجوارى ، وخرج الغلام السقاء يشتد إلى بغله ، ورجعت الجارية حاملة بجرتها المزملة إلى الموضع الذى خرجت منه ، فتبسم أبى وقال ماشأنك ياهارون؟ فقلت يا أبت جعلنى الله فداءك ما ملكتُ عينى ، قال وأبوك أيضاً لم يملك عينه » .

أرأيت كيف تصور لنا هذه الأقصوصة مدى تلك النفوس الطيبة الطاهرة . فهذا مغن فى مقام فنى سما به إلى حد أن الخليفة كاد يغلبه على أهله كل أيام الأسبوع ، وهو فى تلك المكانة لاينسى صلاته وعبادته وتدينه . ثم نرى كيف يؤثر الغناء حتى فى أسرة

---

(١) المزملة: التى يبرد فيها الماء .

المغنى ، وقد كان مفروضاً فيهم أنهم ألفوا منه فنه وأصبح عادياً لهم . ولكن قوة الفن تغلبهم جميعاً فتذهل السقاء عن دلائه والجارية عن جرتها وكل خدم الدار عن أعمالهم . ثم نرى ابنه يبكى . ثم يمتد التأثير إلى المغنى نفسه أيضاً فيبكى لأنه ما كان ليؤثر فى غيره مالم يكن هو متأثراً . وهكذا يبلغ مخارق مكانة لايستغنى عنه فيها الخليفة حتى فى يوم أجازته .

وكان لمخارق شعوره وغرامه الخاص فقد استولت على قلبه جارية لأم جعفر اسمها « نهار » . فلما بلغ ذلك أم جعفر أقصته . فراح يغنى مشبباً بها . وظل كذلك حتى استدعته أم جعفر وغنى بحضرتها ، وكان من ذلك :

أغيب عنك بود ما يغيره نأى المحل ولا صرف من الزمن
قد حسن الله فى عينىّ ما صنعت حتى أرى حسناً ما ليس بالحسن

فغنت « نهار » :

تعتل بالشغل عنا ما تلمّ بنا والشغل للقلب ليس الشغل للبدن

ففهمت أم جعفر أنهما يتجاوبان بهذا الغنـــاء ، فخلعت عليه ووهبت الجارية له .

وتوفى مخارق حوالى عام ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م) . وقد كانت له ألحان أبت أن تموت بموته وأن تدفن معه فى لحده ، كما وقع ذلك لإحدى جوارى المتوكل حين دخل عليها فوجدها تتغنى :

أمن قطر الندى نظمـ ـت ثغرك أم من البرد

وريقك من سلاف الكر م أم من صفوة الشهد
أيا من قد جرى منى كمجرى الروح فى الجسد
ضميرك شاهد فيما أقاسيه من الكمد

وكان الغناء لمخارق فأمرها الخليفة بإلقاء هذا اللحن على الجوارى جميعاً ، فلما أتقنّه أمرهن بألا يغنين سوى هذا اللحن ثلاثة أيام متوالية . وكان هذا بعد وفاة مخارق .

* * *

وإننا لنستخلص من سيرة مخارق الطويلة وأخباره العديدة أنه كان دون إسحق وفوق ابراهيم بن المهدى وعاويه ، وأنه كان ينتمى إلى المدرسة القديمة مدرسة إسحق ووالده . ويلوح لنا من خلال ما قرأنا أنه كان يشرك وجدانه مع ألحانه ويغنى بقلبه قبل صوته وشعوره قبل حنجرته مما كان سببا فى رفع مكانته وإعلاء شأنه.

وإذا كان من المغنين من يعيشون على قديمهم وعلى سمعتهم الماضية ومستهل شبيبتهم ، فإن مخارقا كان يعلو نجمه كلما علت سنه . وكان حلو الصوت مديد النفَس إلى حد أن ينقطع الناى الذى يصاحبه وهو متصل الصوت . وكان يلهى المستمع عن نفسه وعن عمله، حتى لقد يزعمون فيما يروون عنه مايشبه الغرائب ، ومن ذلك أنه استدعى بغنائه الظباء فأغنى الصياد عن القوس .

وامتدت حياة مخارق إلى بداية عهد المتوكل . وكانت وفاته فجاءة إثر طعام تأثر به ، تاركاً للناس تراثاً فنياً وغذاء روحياً لاينضب ولايفنى .

إسحق الموصلى

تعارف الناس على أن يقايسوا فى تعبيرهم أعلام الغناء بمعبد. فهو المشبه به فى كل غناء، واسمه هو المستعـــار عند كل ثناء. ولن نسلب معبداً حقه فيما تمتع به من سمعة طائرة عبر أجيال التاريخ، إلا أن إسحق الموصلى كان جديراً أن ينسى الناس شهرة معبد علم الغناء فى الدولة الأموية بمكانته هو فى الدولة العباسية. وكان يمكن أن يقع ذلك لولا ما للأول من العراقة والقـــدم والشخصية التى أنشأها غير معتمد إلا على إلهـــامه وفطرته وعصاميته.

وليس اسم إسحق بغريب على من يقرؤه فى هذه الترجمة، فقد مرّ به فى أكثر من موضع فى هذا المصنف، وفى مواطن فنية دلت على عبقريته الفذة ومادته الغزيرة.

إسحق بن ابراهيم الموصلى لا يحتاج إلى بيان أكثر عن نسبه وبيئته، فقد ألممنا بذلك فى سيرة أبيه. عدا أنه يختلف عنه الاختلاف كله فى نشأته وأسلوب حياته الأولى. فبينما احتمل ابراهيم عبء المحن والأرزاء... احتمل السجن مظلماً والقيد محكماً

والضرب موجعاً والتشريد متواصلا ، استقبل إسحق وجه الحياة باسماً طلقاً فى أبهة الخلافة وعظمتها . وناهيك بمن يترعرع ويتقلب فى أحضان الملايين من ثراء أبيه العريض ، وقد بلغت الدولة العباسية أوج رقيها ونضجها ، وامتدت حضارتها واتسعت رقعتها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وانفسح مجال الحرية الفكرية وكثرت الترجمة ، وعظمت مادة الأدب ، ونقلت مدنيات الأمم علماً وعملا وفناً وعمراناً .

بين كل هذا نشأ إسحق وهو يرى نفسه الغصن الوارف فى دوحة الموسيقى ، والنابغ المتفرد من سلالة أكبر موسيقى فى دولة بنى العباس ، والذى أدخر له أبوه فوق ثروة المال ثروة الفن التى ضن بها على الصفوة من تلاميذه والحظايا من جواريه طمعاً فى أن يخلفه إسحق على مجالس الخلفاء ، دون منافس يتحداه أوفنان يغالبه . وكان لإبراهيم ما أراد لإسحق فتسنم غارب السؤدد وبلغ أعلى منزلة فى ظل ستة من الخلفاء — من الرشيد حتى المتوكل — وهو الأنيس الجليس والمقدم الممتاز .

أما إسحق فهو أبو محمد كنية ، وأبو صفوان تظرفاً على ما كان يكنّيه الرشيد به . وقد كانت له قدم راسخة فى العلوم والآداب والرواية والشعر . وقد قالوا إن الوصف يعجز عن تحديد مكانته فى النبوغ الذى سما به إلى هذه الثقافات المختلفة . فقد كان عالماً

فقيهاً ، وشاعراً مجيداً ، وأديباً أريباً ، ونديماً جم الظرف حلو الشمائل ، وجليساً لطيف المعاشرة رقيق الحاشية لا يستغنى عنه الخلفاء ، وراوية يروى أخبار القدامى والمحدثين ، بل وكثيراً ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائليها . وكان مغنياً عارفاً بفن الغناء تمام المعرفة وعازفاً ماهراً وملحناً بارعاً . وعلى الرغم من ذلك فقد قالوا إن الغناء أصغر علومه وأدنى ما يوسم به ، وهذه مبالغة يقصد بها الإقناع بعلو كعبه وسمو قدره فى كل تلك العلوم . وكان علمه عدةً لتجاربه الفنية ، وموصلاً له إلى المشاعر النفسية وإدراك مكنونات العواطف وأسرار النفوس والعقول . وقد كان له فى العلوم نظراء إلا فى الغناء فقد سبق فيه من مضى وقلما لحقه أحد ممن بقى . فكان إمام صناعته حياً وبعد الحياة ، يشهد له بذلك الموافق والمفارق . بل وتشهد له القصة التالية :

حدث محمد بن عطيه الشاعر قال « كنت عند يحى بن أكثم فى مجلس له يجتمع إليه فيه أهل العلم ، وحضره إسحق ، فجعل يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم ، ثم تكلم فى الفقه فأحسن واحتج ، ثم تكلم فى الشعر واللغة ففاق من حضر . فأقبل على يحى بن أكثم وقال : أعز الله القاضى ! أفى شىء مما ناظرت فيه تقصير ؟ قال لا والله . قال : فما بالى أقوم بسائر العلوم وأنسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه ؟ فالتفت بعض أهل الجدل

إلى إسحق وقال : يا أبا محمد أخبرنى ، إذا قيل من أعلم الناس بالشعر واللغة ، أيقولون إسحق أم الأصمعى وأبو عبيدة ؟ فقال بل الأصمعى وأبو عبيدة . قال فإن قيل من أعلم الناس بالنحو أيقولون إسحق أم الخليل وسيبويه ؟ قال بل الخليل وسيبويه . قال فإن قيل من أعلم الناس بالأنساب أيقولون إسحق أم ابن الكلبى ؟ قال بل ابن الكلبى . قال فإن قيل من أعلم الناس بالكلام أيقولون إسحق أم أبو الهذَيْل والنَّظام ؟ قال بل أبو الهذيل والنظام . قال فإن قيل من أعلم الناس بالفقه أيقولون إسحق أم أبو حنيفة وأبو يوسف ؟ قال بل أبو حنيفة وأبو يوسف . قال فإن قيل من أعلم الناس بالحديث أيقولون إسحق أم على بن المدِينى ويحى ابن مَعين ؟ قال بل على بن المدينى ويحى بن معين . قال فإذا قيل من أعلم الناس بالغناء أيجوز أن يقول قائل فلان أعلم من إسحق؟ قال لا . قال فمن ههنا نسبتَ إلى ما نسبتَ إليه لأنه لا نظير لك فيه وأنت فى غيره لك نظراء .فضحك وقام وانصرف » .

قال الخليفة المأمون : « لولا ما سبق على ألسنة الناس وما اشتهر من أمر إسحق لوليته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به وأعفّ وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة » .

وهنا نجد أنفسنا أمام تصريح له خطره وجلاله ، وشهادة من أمير المؤمنين الخليفة الأعظم لأحد أعلام الموسيقى جديرة

بأن يعتز بها كل موسيقى فى العرب ، بل فى الشرق كله . هى شهادة بما ينبغى أن يتجمل به كل مشتغل بهذا الفن مؤدياً كان أم ملحناً أم عازفاً ، هاوياً أو محترفاً على سواء . فقد أقر له بسعة الاطلاع ووفرة العلم ، ورشحه للقضاء فى عصر يتبوأ فيه هذا المركز أمثال أبى يوسف صاحب أبى حنيفة الفقيه العظيم . فكان هذا إقراراً من الخليفة بأن إسحق ألمّ بالفقه والأصول الدينية وأحاط بالعلوم الاجتماعية وتوفر على اللغة وأدبها ، ونحوها وصرفها ، شعرها ونثرها . فإذا أضيف إلى كل هذه الثقافات شهادة الخلق الرفيع فقد حيز له الفخار من جميع نواحيه . ولكن ماهى تلك الأخلاق؟ هى الصدق والعفة والأمانة ورأسها التدين. وهى صفات يكمل بعضها بعضا . فالموسيقى الصادق العفيف الأمين هو الجدير بأن تعتز به أمته وأن ينال هذه الشهادة من مثل الخليفة المأمون ، وهو حكيم الخلفاء وعالمهم ورأس المدنية وعنوان الرقى والكمال فى عصر بنى العباس ، بل الخليفة الذى لم ير المشرق من أعلام هذه الدولة من يماثله أو يدانيه .

وهكذا كان إسحق أسوة فى غنائه كما كان قدوة فى علمه وثقافته.

ومن الصفات التى اشتهر بها إسحق بين معاصريه تجنبه على الخلفاء ودله عليهم بفنه . وأحسب أنه كان يفعل ذلك رفعاً لمكانة فنه عن أن تبتذل ولأن كل محجوب محبوب .

سأل إسحق الموصلى المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين فإذا أراده للغناء غناه. فأجابه المأمون إلى ذلك. وسأله بعد حين الإذن له فى الدخول مع الفقهاء فأذن له. قالوا وقد كان يدخل ويده فى يد قاضى القضاة يحيى بن أكثم. بل لقد تغالى إسحق فسأل المأمون بعد ذلك أن يأذن له فى الصلاة معه يوم الجمعة فى المقصورة. فضحك المأمون وقال: ولا كل ذا يا إسحق، قد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم. وأمر له بها.

وفى هذا أعظم تنويه بالمكانة التى بلغها إسحق فقد امتد به طموحه إلى مكان ليس لغير الخليفة فيه موضع، فما انتهره الخليفة ولا انتبه وإنما رده رداً جميلا، وتلطف فى التخلص من طلبه حتى اشتراه منه كما يُشترى الشىء الثمين من مالكه.

حدثنا محمد بن عمران الجرجانى عن إسحق الموصلى قال: «كان والله إسحق غرة زمانه وواحداً فى عصره علماً، وفهماً، وأدباً، ووقاراً، وجودة رأى، وصحة مودة. وكان والله يخرس الناطق إذا نطق، ويحيّر السامع إذا تحدث. لا يمل جليسه مجلسه، ولا تمج الآذان حديثه، ولا تنبو النفس عن مطاولته. إن حدثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غناك أطربك. وما كانت

خصلة من الأدب أو جنس من العلم يتكلم فيه إسحق فيقدم أحد على مساجلته أو مناوأته فيه ».

ومن العجيب أن إسحق لم يكن أحسن المغنين صوتاً فى عصره، وإنما كان تفوقه عليهم بحسن صناعته وحذقه فنه.

سئل زرزور الكبير، وكان من فطاحل المغنين المعاصرين له، كيف كان إسحق يتفوق عليكم عند الخلفاء وأنت وإبراهيم ابن المهدى ومخارق أطيب أصواتاً وأحسن نغمة؟ قال: كنا والله نحضر معه فنجتهد فى الغناء ونقيم الوهج فيه، وتقبل علينا الخلفاء، حتى نطمع فى إسحق ونظن أنا قد غلبناه، فإذا غنى عمل فى غنائه أشياء من مداورته وحذقه ولطفه حتى يسقطنا كانا ويقبل عليه الخليفة دوننا ويصغى إليه ويجيزه، ونرى أنفسنا اضطراراً دونه.

لم يكن إسحق إذن مغنياً وفق ما تلهم الصدفة ويوحى به الارتجال ويوجه إليه الصوت الحسن، ولكنه تناول فن الغناء المرتكز على أسس فنية. فوضع القواعد والأصول، وضبط الأوزان، وأحكم الأجناس والمقامات، وتصرف بها تصرفاً يشهد له بالدقة والعمق والتنسيق. فأصبح الغناء فى عصره يعتمد على الأصول المحكمة والقواعد المدعمة.

وهذا أحد تلاميذه عمرو بن بانه يتحدث عما صنعه أستاذه فى الطرائق والأجناس، وفى تقسيم الخفيف والثقيل، وتمييز

الأصابع وأجزائها على ترتيب وتفصيل مبتكر ، فيقرر أن قد بلغ شأوه فى هذه القواعد والأصول مبلغاً جعلت شيوخ الغناء وأعلامه — وفى مقدمتهم والده إبراهيم وابن جامع — يذعنون له ويروون عنه ويقصدون إليه فى تفهم ماأدركه من أسرار فنية دقيقة .

وقد صنف إسحق من الكتب ما كان مرجعاً لا يستغنى عنه كل من ألف فى هذه الصناعة [1] .

وكان إسحق معاصراً لأولئك العلماء الذين ترجموا كتب الفلسفة والرياضة عن اليونان [2] .

---

(١) ومن تصانيفه : كتاب أغانيه التى غنى فيها ، أخبارعزة الميلاء ، كتاب أغانى معبد ، كتاب أخبار حماد عجرد ، كتاب أخبارحنين الحيرى ، كتاب أخبار ذى الرمة ، كتاب أخبار طويس ، كتاب أخبار المغنين المكيين ، كتاب أخبار سعيد بن مسجح ، كتاب أخبار الدلال ، كتاب أخبار محمد بن عائشة ، كتاب أخبار الأبجر ، كتاب الاختيار (ألفه للخليفة الواثق) ، كتاب اللحظ والإشارات ، كتاب الشراب ، كتاب جواهر الكلام ، كتاب الرقص والزفن (الزفن من باب صرب نوع من الرقص) ، كتاب النغم والإيقاع ، كتاب أخبار الهذليين ، كتاب قيان الحجاز ، كتاب النوادر المتخيرة ، كتاب القيان ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أخبار جميل ، كتاب أخبار كثير ، كتاب الندماء . . وغير ذلك وهو كثير .

(٢) ولا نرتاب فى أنه أفاد من تلك الكتب وأجادها معرفة وإتقانا ظنه بعض الناس إلهاماً وعبقرية سبق بها إقليدس وغيره من مؤلفيها ، لأن القواعد والحدود التى رسمها لا تختفى فيها عمليات الموازنة والمقارنة وإن كان هو لم يصرح بذلك ، وليس ملزماً بهذا التصريح . ولسنا ملزمين بدورنا أن نصدق أنه وفق من تلقاء نفسه وبدون سابق اطلاع كل هذا التوفيق ، فهى نظريات رياضية هندسية يقوم بعضها على بعض ويتوقف كل منها على معرفة الآخر .

وليس أجدى فى تصوير تلك الثقافات فى حياة إسحق من أن نعود إلى حداثته فنقضى معه يوما كاملا من أيام شبابه الغض وعهده بطلب العلم والتماسه ... حياة يوم كامل يختلف فيه إلى العلماء والقراء والأدباء والفقهاء وأعلام العزف والغناء من رجال ونساء، تحت رقابة أبيه وفى بلاط الرشيد .

ها هو إسحق يقول « بقيت دهراً من دهرى أغلس[1] فى كل يوم إلى هشيم فأسمع منه ، ثم أصير إلى الكسائى أو الفراء أو ابن غزالة فأقرأ عليه جزءاً من القرآن ، ثم آتى منصوراً زلزلا فيضار بنى طرفين أو ثلاثة ثم آتى عاتكة بنت شهدة فآخذ منها صوتاً أو صوتين ، ثم آتى الأصمعى وأبا عبيدة فأناشدهما وأحدثهما فأستفيد منهما ، ثم أصير إلى أبى فأعلمه ما صنعت وما لقيت وما أخذت وأتغدى معه ، فإذا كان العشاء رحت إلى أمير المؤمنين الرشيد » .

وقد يسر عليه أن يحوز هذه الكنوز كلها أنه بذل مثلها من ماله لأولئك العلماء . وما كان ذلك التحصيل كله ميسوراً إلا لمن كان فى مثل ثروة إسحق التى مكنت له من أن يغشى المجالس التى يلتقى بها أمثال هؤلاء ويبذل لهم ما يجعلهم أسخياء بما لديهم . وناهيك بمثل الأصمعى فى أدبه، والفراء فى نحوه، والكسائى وهو أحد أئمة القراءات

---

(١) الغلس بفتحتين ظلمة آخر الليل .

السبع ومؤدب الخليفة ، ومنصور زلزل أمهر عازف بالعود .
وحسبك مثلا لهذا البذل السخى الوفير رواية إسحق عن نفسه قال:
« أخذ منى منصور زلزل إلى أن تعلمت مثل ضربه بالعود أكثر
من مائة ألف درهم سوى ما أخذته له من الخلفاء ومن أبى » .

وقد تبين بعد يسير من الزمن أن هذه الثقافة الباهظة الثمن
لم يضع ما بذل فيها هباءً ، بل لقد غرست البذور فى أرض خصبة ،
وسرعان مابدت الثمار ناضجة . وأثبت إسحق فى فتوته ما ناظر به
شيوخ الفن المعمرين فى أخطر حلبــــة فنية ضمت أفذاذ العصر
من أقطاب الغناء .

اجتمع المغنون يوما بحضرة الرشيد وجلسوا فى صفوفهم
بناحيتين من المجلس للمناظرة فى الغناء ، وبينهم ابراهيم بن المهدى
وابراهيم الموصلى وابن جامع وفليح بن أبى العوراء ومخارق
ويحي المكى وإسحق الموصلى وغيرهم من فحول مطربى ذلك العصر ،
وكان اسحق ما يزال صبياً . وقد اشتد التنافس بينهم فأخذوا
يتناوبون الغناء فى إجادة نادرة وحسن أداء . فلما جاء دور إسحق
أخذ العود وغنى غناءً ليس أحسن منه موقعاً فى القلوب . وطرب
الرشيد من صناعته فأقبل عليه وطلب إليه المزيد . فغناه إسحق
لحناً آخر فأجاد فى الغناء إلى ماوراء الغاية حتى قال الرشيد
وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب : والله ما الغناء الذى يلين

الحركة ويفسح فى الرأى والصدر ويحدث فى النفس طرباً إلا غناء هذا الرجل .

وقد أدناه منه الرشيد فصار له الأنيس والجليس . ومما يدل على مكانة إسحق ودنوه من مقام الخليفة ، بل وهو فى الحقيقة تقدير للموسيقى وإعلاء للموسيقيين ، هذه القصة التى نوجزها عن اسحق فيما يلى :

يروى إسحق أنه كان يوماً عند الرشيد بين ندمائه وفيهم أخوه إبراهيم بن المهدى ، فغنى إسحق :

شربتُ مدامة وسقيتُ أخرى   وراح المنتشون وما انتشيت

فقال له ابراهيم : ما أصبت يا أسحق ولا أحسنت . فقال له إسحق : ليس هذا مما تحسنه وتعرفه وإن شئت فغنه فإن لم أجدك تخطئ فيه من ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال . ثم قام الرشيد لبعض شأنه فانتهز ابراهيم فرصة انصراف الرشيد وأقبل على إسحق يصب عليه جام غضبه ويسمعه من الكلم المرير ما ضاق به صدر إسحق ، وقد رأى من العسير عليه أن يبادله الشتائم والقذف وهو من الخليفة حيث يعلم ، وإن كان قد رد عليه مثلا بمثل على أسلوب التنكر والتحايل . فلما عاد الرشيد وثب إبراهيم بين يديه يشكو إسحق من أنه شتمه واستخف به . ولكن الرشيد أمره أن يمسك عن مثل هذا اللغو ، حتى يعود

المجلس حيث كان من الطرب والغناء . فلما انقضى المجلس وانصرف الناس استبقى الرشيد إسحق وحده ، فداخله الخوف على نفسه . فقال له الرشيد : ويحك يا إسحق أتراني لا أعرف وقائعك . . حدِّثني عنك لو ضربك أخي إبراهيم ، أكنتُ أقتص لك منه فأضربه وهو أخي يا جاهل ؟ أتراه لو أمر غلمانه أن يقتلوك فقتلوك أكنت أقتله بك ؟ فقال إسحق : قد والله قتلتني يا أمير المؤمنين بهذا الكلام . ثم استدعى الرشيد أخاه إبراهيم وانفرد به وقال له : لِمَ تستخف بخادمي وصنيعتي ونديمي وابن خادمي وصنيعة أبي ؟ تُقدم على هذا وأمثاله وأنت مالك والغناء وما يدريك ما هو ؟ ومَن أخذ لحنه وطارحك إياه حتى تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه ؟ ويدعوك إلى إقامة الحجة عليك فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه . . . وما زال به لوماً وتعنيفاً إلى أن قال : والله لئن أصابه سوء أو سقط عليه حجر من السماء أو سقط من دابته أو سقط عليه سقف أو مات فجأة لأقتلنك . ثم قال له قم الآن فاخرج .

وقد تلمس فى هذه القصة رجاحة عقل الرشيد ثم تساميه بقدر نديمه الموسيقي إلى مرتبة أخيه ، وإنذاره إياه ، وإلزامه نحو إسحق بما يعد أسلوباً من التأمين على حياة ذلك الفنان لأن الفن الممثل فيه جزء من حياة الدولة .

وما كاد إسحق يدرك عصر المأمون حتى رأيناه أعلم عصره فى الغناء ، يعرف غثه من ثمينه ، وزيفه من صحيحه ، يصلح فيه خطأ المخطئين ، ولا يرده عن ذلك عظم منزلة المخطىء . لأنه يعتقد أن الفن فوق المجاملات الشخصية وأن الحق والصواب لا يعلوهما شىء . فكانت مطارحات ومنازعات مع إبراهيم بن المهدى وهو أخو الرشيد وعم المأمون وفى ذلك أحاديث طويلة .

حدث إسحق قال : دعانى المأمون وعنده إبراهيم بن المهدى وفى مجلسه عشرون جارية ، وقد أجلس عشراً عن يمينه وعشراً عن يساره . فلما دخلت سمعت من الناحية اليسرى خطأ فأنكرته . فقال المأمون : يا إسحق أتسمع خطأ ؟ قات نعم والله يا أمير المؤمنين . فقال لإبراهيم : هل تسمع خطأ ؟ قال لا . فأعاد المأمون علىَّ السؤال فقلت بلى يا أمير المؤمنين ، وإنه لفى الجانب الأيسر ، فأعاد ابراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى ثم قال لا والله يأمير المؤمنين ما فى هذه الناحية خطأ . فقلت يأمير المؤمنين مر الجوارى اللواتى على اليمين يمسكن . فأمرهن فأمسكن . فقلت لإبراهيم هل تسمع خطأ ؟ فتسمّع ثم قال ما ههنا خطأ . فقلت يأمير المؤمنين يمسكن وتضرب الثامنة. فعرف ابراهيم الخطأ وقال: نعم يأمير المؤمنين ههنا خطأ . فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم : يا ابراهيم لا تمار إسحق بعدها فإن رجلا فهم الخطأ بين ثمانين

وتراً وعشرين حلقاً لجدير ألا تماريه . فقال ابراهيم صدقت ياأمير المؤمنين .

وهكذا كان إسحق مرهف السمع دقيق الفكرة نافذ البصيرة يفطن إلى مايفوت غيره من كبار الحذاق وأساطين الغناء .

كان عقيد يغنى بحضرة المأمون بصاحبة أحد العازفين . وكان ابراهيم بن المهدى حاضراً . فدخل عليهم إسحق . فقال المأمون : كيف تسمع مغنينا هذا ؟ فقال : هل سأل أمير المؤمنين غيرى ؟ قال الخليفة : نعم سألت عمى ابراهيم بن المهدى فوصفه وقرظه واستحسنه . فقال إسحق : ياأمير المؤمنين أدام الله سرورك وأطاب عيشك ، إن الناس قد أكثروا فى أمرى حتى نسبتنى فرقة إلى التزيد فى على . فقال له المأمون : لا يمنعك ذلك من قول الحق إذا لزمك . فالتفت إسحق إلى عقيد وقال له اردد الصوت . فردده وتحفظ فيه وضرب ضاربه عليه . فلما انتهى سأل ابراهيم بن المهدى كيف رأيته ؟ قال ما رأيت شيئاً يكره . فأقبل على عقيد وسأله فى أى طريقة هذا الصوت الذى غنيته ؟ أجاب فى الرمل . فسأل الضارب فى أى طريقة ضربت أنت ؟ أجاب فى الهزج الثقيل . فقال إسحق : ياأمير المؤمنين ما عسيت أن أقول فى صوت يغنى مغنيه رملا ويضرب ضاربه هزجاً وليس هو صحيحاً فى إيقاعه الذى ضرب عليه . فأخذ المأمون العجب لما فطن إليه إسحق وقد

فات سواه برغم تكرار الصوت والغناء . وأحاطه بالتكريم والتوقير وأثنى عليه خير الثناء .

ولم تكن صناعة إسحق فى الغناء سهلة المأخذ فقد حدث عجيف بن عنبسة قال : كنت عند أمير المؤمنين المعتصم ، وكان إسحق الموصلى يغنيه :

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعبا

فأمر المعتصم بإعادته ثلاثاً . فقال ابراهيم بن المهدى : قد استحسنتَ هذا الصوت يا أمير المؤمنين أفنأخذه ؟ قال نعم خذوه فقد أعجبنى. فاجتمع جماعة من المغنين ، مخارق وعلويه وعمرو بن بانه ومحمد بن الحرث وغيرهم فأمر المعتصم إسحق أن يلقيه عليهم حتى يأخذوه . قال عجيف فعددت خمسين مرة قد أعاده فيها عليهم وهم يظنون أنهم قد أخذوه ، ولم يكونوا أخذوه لكثرة زوائده . وقد قال محمد بن الحرث فى ذلك : ومن يقدر أن يأخذ من ذلك الشيطان شيئاً !!!

وأحسب أن إسحق قد تعمد الضن بلحنه على هؤلاء المغنين . فقد كان إسحق كأبيه ابراهيم ضنيناً بفنه ، شحيحاً بإنتاجه حتى على أقرب جواريه وأدناهن إليه . وهى صفة ما نحبها لأحد ، وما نرضاها للفنان خاصة كائناً ما كان زمنه أو وطنه . ولعل أمثال

هؤلاء وقد ابتكروا فى التدوين الموسيقى ما سبق به العرب سواهم هم الذين تخلفوا بتراث الموسيقى العربية بسبب هذه الأنانية الفنية وهذا الشح وحب الذات وما يرادفها من الخلال ، فهى التى جنت وتجنى دائماً على الفن والفنانين . ومن يدرى لعل علوماً كثيرة ضافية نافعة كانت تجدى على البشر ، ولكنها وقعت فى أيدى أشحّاء فاحتجزوها احتجاز البخلاء بأموالهم . على أن دفائن الكنوز تحت التراب قد يعثر عليها ولكن كنوز الإنتاج العقلى إذا ذهبت مع أصحابها ودفنت معهم فليس لها من عودة آخر الدهر .

ومن الأدلة على اعتزاز إسحق بفنه وخوفه أن يتسرب من أفواه من يتصلون به ما تحدثنا عنه « دمن » وهى من كبار جواريه وأحظى من عنده ، فقد قالت لمن سألها فى ذلك : ما أخذت أنا عنه ولا واحدة من جواريه صوتاً قط ، إنه كان يبخل بذلك : وما أخذت منه إلا صوتاً واحداً . وذلك أنه انصرف من دار الخليفة فدخل إلى البيت فرأى عوداً معلقاً فأخذه بيده وقال لخادمه ياغلام صح لى بدمن . فجاءنى الغلام فخرجت . فلما بلغت الباب إذا هو مستلق على فراشه والعود فى يده وهو يصنع هذا الصوت ويردده :

ألا ليلك لا يذهبْ ... ونيط الطرف بالكوكبْ

وهذا الصبح لا يأتى ... ولا يدنو ولا يقرب

وقد تنوّق [1] فى هـــذا الصوت وبالغ فى تجويده حتى استقام له . أما أنا فعلمت أنى إذا دخلت إليه أمسك ، فوقفت أستمع حتى فرغ منه . ثم وضع العود من يده وتذكر أنه طلبنى ، فقال ياغلام أين دمن ؟ فقلت هاأنذا . فقال منذ كم أنت واقفة ؟ فقلت منذ ابتدأت بالصوت وقد أخذته . فنظر إلىّ نظر مغضب آسف . ثم قال غنيه . فغنيته حتى استوفيته . فقال لى وقد فتر وخجل قد بقيت عليك فيه بقية أنا أصلحها لك . فقلت لست أحتاج إلى إصلاحك إياه وقد والله أخذته على رغمك . فضحك .

ونرى إسحق كثيراً ما يحاول الهرب من تلك النفس التى حطمها السهر والغناء والطرب واللهو إلى نفس أخرى زاهدة متعبدة تنزل عند قضاء الله وتطمئن إليه فنراه يقول :

ولما رأيت الدهر أنحت صروفه
على وأودت بالذخائر والعقدْ
حذفت فضول العيش حتى رددتها
إلى القوت خوفاً أن أجاء إلى أحد
وقلت لنفسى أبشرى وتوكلى
على قاسم الأرزاق والواحد الصمد

---

(١) أى تأنق وتألق .

وهى صورة من الشعر كان أحرى بها أن تصدر من رجل زاهد متقشف ، لا من إسحق ربيب النعمة والثراء وصاحب الليالى والطرب والغناء ، ولكنه اتجه بهذا القول يريد أن يطمئن إلى قضاء الله بعد أن أفزعته مظاهر الترف وعملت فى أعصابه ألوان الرفاهية والنعيم .

وامتدت السنون بهذا العبقرى فعبر عهود الخلفاء حتى أقبل عصر الواثق وقد بلغ به الكبر حداً استعفى فيه من العزف أو أعفى منه ، وبقى له فيه علمه وفضله . وهو إذ ذاك يغشى مجلس الخليفة غير مجهول القدر أو منتقصه .

تناظر المغنون فى مجلس الواثق عمن هو أمهر العازفين بالعود ، وكان ملاحظ رئيس العازفين إذ ذاك ، فرأى إسحق أن يقدم عليه غيره . فقال الخليفة: هذا حيف منك . فطلب إسحق أن يجمع بين المتنافسَين حتى ينجلى الأمر فيهما . فلما حضرا امتحنهما فى المعروف من الأصوات فذكر ثلاثة منها ، فتقدم المتنافِس وقصّر ملاحظ فى أولها . فعجب الواثق لأصالة حكمه وسرعة كشفه . فحاول ملاحظ أن يستغل شيخوخة إسحق لإخراجه وتحديه ، فقال : يا أمير المؤمنين لمَ لا يضرب هو ؟ فقال إسحق : يا أمير المؤمنين إنه لم يكن أحد فى زمانى أضرب منى ، إلا أنكم أعفيتمونى فتخليت عنه ، على أن معى بقية لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة . ثم قال :

يا ملاحظ افسد تسوية أوتار عودك وهاته . ففعل ملاحظ ذلك.
فأخذ إسحق العود وتعرف أبعاده ومواضعه دون إصلاح وغنى.
ثم قال لملاحظ غن ما شئت . فغنى ملاحظ صوتا صاحَبه فيه
إسحق بعزفه بذلك العود الفاسد التسوية ، فلم يخرج عن لحنه فى
موضع واحد حتى استوفاه ويده تصعد وتنحدر على الدساتين[1] .
فقال له الواثق : لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به . فقال
إسحق : يا أمير المؤمنين لقد بلغنى أن « الفهليذ[2] » ضرب يوماً
بين يدى كسرى فحسده رجل من حذاق أهل صنعته فترقبه حتى
قام لبعض شأنه ثم قصد إلى عوده فأفسد تسوية بعض أوتاره ،
فرجع فضرب وهو لايدرى ، والملوك لاتُصلح فى مجالسها الميدان ،
فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد ، إلى أن فرغ . ثم قام وأخبر
الملك بالقصة ، فامتحن الملك العود ، فعرف ما فيه . فقال له زه
معجباً . ثم أغدق عليه الكرم الفيّاض بعد كلمة الإعجاب . وبين
إسحق أنه عالج هذه التجربة عدة سنين حتى لان له صعبها . فقال
له الواثق : لئن مت لتموتن هـــذه الصناعة معك . وأمر له
بثلاثين ألف درهم .

ومن هذا نعلم إلى أى حد بلغت المقدرة الفنية عند هذا الفنان
النادر النظير ، وكيف أنه انتصر بمقدرته على الزمن فى شيخوخته

---

(١) الدساتين : مواضع العفق . (٢) كبير الموسيقيين فى بلاط كسرى .

انتصاره على الأوتار التى فقدت استقامة أوضاعها . كما تتجلى عناية ملوك الشرق بالموسيقى وأهلها ، سواء أكانوا ملوكا فى الفرس أو خلفاء فى العروبة والإسلام .

وإذا كان هـــذا هو مقام إسحق فى التفوق على أقرانه من أعلام الغناء والعزف فى عصره فلم يكن عجباً أن يتفوق على الخليفة نفسه ، ولـكن فى هذه الصناعة أيضاً .

روى أن الواثق أمر إسحق أن يصنع لحناً فى شعر كان قد لحنه الواثق وغنى فيه غناءً أعجبه ، فغنى فيه إسحق فى لحن جديد صاغه فلما سمعه الواثق قال : أفسد علينا إسحق ما كنا أعجبنا به من غنائنا .

أرأيت كيف كان التواضع فى الفن حين خضع سلطان دولة الحكم لسلطان دولة الفن ؟.. وهذا لا يعيب الخليفة ، بل هو نفس الدليل على سؤدده ورفعته وعلو قدره .

وعلى الرغم من أن إسحق ، قد جمع بين الثقافتين العربية والفارسية ، وبرغم أصله الفارسى ، فقد ظل حياته شديد التعصب لكل ماهو عربي قديم . بل إن نزعته هذه لم تقف عند حد الموسيقى وألحانها فحسب ، بل تجلت كذلك فى شعره إذ تراه لم يعمد فى قريضه إطلاقاً إلى الأساليب التى استحدثها الشعراء المولدون ولم ينهج نهجهم فى الميل إلى الأوزان اليسيرة القصيرة . فهو لم يشبه أبانواس قط فى مثل قوله :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

إنما كان إسحق متأثراً بشعراء الصدر الأول للإسلام فى أساليب الشعر وأوزانه ومعانيه. بل إن ذوقه الموسيقى ليتجلى فى ألفاظه خاصة، فإنك لن تستطيع أن تستخرج لإسحق لفظة منكرة أو كلمة كريهة على السمع فى عامة شعره.

وكان إسحق إذا غنى فى مثل هذا الشعر الجيد سلب الألباب وسحر العقول. وفى ذلك يقول أمير المؤمنين الواثق بالله:

« ما غنانى إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى، وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها، ولو أن العمر والنشاط والشباب مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى».

وهل يمكن أن يقال أبلغ من هذا القول فى تكريم الموسيقى وأهلها!!!

وكان إسحق يتحلى بالشجاعة والفروسية، ويحب أن ينسب إليهما، وقد اشترك فى بعض الحروب.

ولازمت إسحق روحه المرحة طول حياته، فلما تقدمت به السن لم يمنعه الشيب عن ميله للطرب وحبه للمرح. وفى ذلك يقول:

لاح بالمفرق منك القتير وذوى غصن الشباب النضير

إن ترى شيباً علانى فإنى مع ذاك الشيب حلو مزير

قد يفل السيف وهو جِزار ويصول الليث وهو عقير

وانك لتراه فى هذا الشعر يعارض ويلج فى معارضته أن الشيب يتعارض مع الظرف والكياسة . ثم يقارن هذه الحال بحال الأسد الذى يقوى على المصاولة وهو جريح . بل إنه لا يقف عند هذا الحد بل يتحدى الشباب فيقول (قد يفل السيف وهو جزار) يشير بذلك إلى أن الشاب المكتمل الشباب قد يكون خائراً مثبط الهمة كالسيف المفلول .

وكانت وفاة إسحق ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، فى شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين من الهجرة (٨٥٠ م) . ولما نعى إلى المتوكل غمه ذلك وحزن عليه ، وقال « ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته » . ورثاه كثير من الشعراء بقصائد طويلة عامرة نفيسة .

عريب

جارية من جوارى الفن ، بل هى الفنون كلها مجتمعة ، وكأن القدر قد صنف منها كتاباً ضمّن صحائفه صور الحياة الاجتماعية والثقافية فى دولة بنى العباس إبان عظمتها وارتقائها . ولو أتيح لنا فى حلقة واحدة أن نستعرض جملة من الجوارى تفردت كل منهن بناحية من نواحى الجمال والفن ، وكانت فيهن الشاعرة والكاتبة والخطاطة والعالمة والراوية الأديبة والعازفة البارعة والمغنية المطربة ، لكان جميعهن على اختلاف هذه المزايا والصفات أقل من أن يكن عوضاً عن عريب التى جمعت ذلك كله إلى جمال فاتن وروح تعبث بالقلوب وظرف يمتلك المشاعر وشخصية لها دوى يهز قصور الخلفاء ويأسر أصحابها خليفة بعد خليفة وعهداً بعد عهد...

هذه هى عريب التى أصبحت تسامى بشخصيتها من سبقها من أبطال تاريخ الموسيقى وبطلاتها فى عصر بنى أمية . وكأن عزة الميلاء وجميلة وسلامة ومن فى طبقتهن من الفنانات الغردات قد استعدن وجودهن ، أو امتدت حياتهن فى روح هذه الجارية التى كانت تبدو شخصيات متعددة فى شخصية واحدة ، أو أنها كانت

مثلا أعلى لما ينبغى أن تتحلى به جوارى الطبقة العليا ، إذا أغضينا عن ناحية ضعيفة فى حياتها . إنما يعنينا من شأنها أنها بلغت القمة فى الموسيقى فناً وعلماً ، وأداءً وغناءً ، فكان لها من مروياتها إحدى وعشرون ألف مقطوعة غنائية . ومن له كل هذه الثروة من الرواية لحرى به أن يدع ويبدع ...

ولندع بين يديك صورة مجسمة فى كلمات لمعاصر يصفها فيقول : « ما رأيت امرأة أضرب من عريب ، ولا أحسن صنعة ولا أحسن وجهاً ، ولا أخف روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جواباً ، ولا ألعب بالشطرنج والنرد ، ولا أجمع لخصلة حسنة لم أر مثلها فى امرأة غيرها » .

ومع أن عريب ارتفع بها جدها الباسم إلى هذا المرتقى الفنى فقد كان لها خصوم يأخذون عليها الغناء الواهن المتخاذل ، غناء الأهازيج والمقطوعات ذات الطابع الرخيص . ويظهر أن ذلك المأخذ قديم ، طالما نشكو نحن منه فى زماننا ، واشتكى منه الأولون قبلنا ، لأنه استغلال لجوهر الموسيقى والنزول به إلى أرخص المواطن . على أن ذلك لم يكن كل شأنها فللمغنى مقامات ترتفع فيها همته ويعلو جناحه ، وله فى بعض الأحايين زلات وهنات هينات .

فهذا هو بشار بن برد على جلالة قدره فى الشعر يهبط فى بعض الأحيان من ذلك المستوى الرفيع إلى مثل قوله :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وإسحق الموصلى الذى إن جاز له أن يعارض المغنين وينغص عليهم فنهم معتزاً بأبيه فى حضرة الخلفاء لم يُخل أباه من النقد فجمل أعلى غنائه فى ثلث محصوله ، أعنى مائتى أغنية هى التى نالت عنده الشأو البعيد والمقام الرفيع ، ومثلها متوسط ، وبقيتها صنعة تافهة يرى أن أباه كان خليقاً ألا يعزوها إلى فنه .

وإذا كان هذا شأن مثل إسحق مع أبيه ابراهيم ، أفلا تلتمس المعذرة لجارية غلب عليها الاستهتار فى شطر كبير من حياتها ! ! وهى فى مسئوليتها أقل شأناً من غيرها ! ! على أنها مع هذا قد تفوقت بأغان لها مكانتها وخطرها . وحسبها أن يأمر الخليفة المعتمد بجمع أغانيها التى ابتدعتها هى ثم يتناول الرواة نقل تلك الأصوات فإذا بها قرابة مائتين وألف ، وهو ضعف محصول إبراهيم الموصلى الذى تمتع فى عصره بإمارة الفن وسلطانه .

وقد استهدفت عريب لنقد لم يكن الباعث عليه سوى حقد هى السبب فى إثارته ، فى نفس عبد الله الهشامى ، فإنه كان يغنى للمتوكل فدعاه المعتز للغناء فقال : « إنى تبت عن الغناء منذ قتل سيدى المتوكل » . فأطالت عريب لسانها وقالت : « أحسنت حيث تبت فإن غناءك كان قليل المعنى لا متقناً ولا صحيحاً ولا طرباً » .

فاضحكت المجلس جميعاً منه ، فخجل . فكان بعد ذلك يكيل لها الصاع صاعين ويقول عن صنعتها هى ألف صوت فى العدد ، وصوت واحد فى المعنى ، ويلوّح بقول القائل :

يا عين بكّى خالدا ألفاً ويدعى واحدا

وليس بمستغرب أن يكون ما عصف بها من رياح النقد كان مصدره الاستطالة منها ، واعتزازها بنفسها ، اعتزازاً لعله غض من منافسيها ومنافساتها فخلق لها خصوماً جرّحوها فى فنها ، فإذا لم يكن لهم سبيل إلى ذلك ، عمدوا إليها هى فخمشوها بأظفار حادة فى نواح شخصية .

ولكن من هى عريب ، تلك التى شغلت أذهان الرواة والفنانين ردحاً من الدهر غير قليل ، وحلت من قصور الخلفاء حلول البدر المتنقل فى منازله ؟

قالوا إنها جارية لعبد الله بن إسماعيل . ولكن من أى سوق اشتراها ؟ أو بالأحرى من أى العروق تحدرت دماؤها ؟

لقد قالوا فى ذلك قولا له شأنه وخطره . فتحدثوا أن عريب قد واجهت الدنيا من نافذة عالية وقمة رفيعة ، وأنها بنت جعفر ابن يحيى ، أى أنها من خير بيوت الوزارة والسلطان . فأمها فاطمة وصيفة عبدالله بن يحيى بن خالد البرمكى . فوله بها جعفر بن يحيى حين

رآها ثم أصبحت له زوجاً بعد قليل وعز على أبيه يحيى أن يحدث هذا فأمره بأن يخلى سبيلها . ولم يكن أمامه غير الطاعة فتظاهر بإخراجها ، ثم أسكنها منزلا عند باب الأنبار غير معروف ، فى خفية من أبيه . وكان يتردد إليها فكانت عريب ثمرة هذا الزواج . وزاد الأمر تعقيداً وخفاءً أن أمها واتاها الأجل فى حياة جعفر فدفعها إلى امرأة نصرانية مبالغة فى إخفائها ، كانت هى مربيتها بعد أمها . فلما وقعت الواقعة بالبرامكة وجرت عملية الاستئصال فيهم وفيمن يمت إليهم بقرابة أو صلة تخلصت تلك النصرانية من عريب فباعتها جارية . وما زالت من يد إلى يد حتى اشتراها عبد الله ابن اسماعيل على نحو ما بينا .

وكانت عريب ذات شبه ينم على أصلها هذا ويدل على أبيها . كما أن ثقافتها كانت تشف عن عراقة وعلو نسب . وكانت عريب تعرف نسبها من البرامكة وانتماءها إليهم وتعلم مَنِ الأب ومَنِ العم، وربما روت عنهم أشياء وهى تعزو نفسها وقرابتها إليهم . إلا أن الغموض الذى شاب حياتهـا وتاريخ ميلادها ، مع الظروف السياسية ، ومقامهـا فى قصور الخلفاء ، كل ذلك جعلها قليلة الاكتراث بأمر هذا النسب الذى انهار سقفه ، وتضعضع جداره وأصبح ضرره لمن يعتز به أكثر من نفعه .

وقد تلاطمت أمواج الحوادث بعريب وأخذت تلقى بها من مطارح متباينة كتباين الرواة فيها . ومهما يكن من قول فإن عريب فيما يبدو لنا كانت فنانة النزعة ، من الصعب أن يحكم عليها رتاج القفص خلف السجف والحجب. وقد آل أمرها أخيراً إلى الأمين فى أول خلافته ، حتى إذا قتل عادت إلى سيدها الأول . وبعد سكون الفتن واستواء المأمون على أوج خلافته كانت عريب فى الطليعة . وجرت عليها الأقضية والأحداث . ثم آلت إليه أخيراً فحلت من قلبه محل قلبه ، هياماً بها وميلاً إليها . ثم كانت بعد وفاته فى تركته فاشتراها المعتصم بمائة ألف درهم وأعتقها ، فكان له ولاؤها .

وهذه الحرية والانطلاق لازماها فى نفسها وفى فنها وفى غنائها .

وأكثر ما علمناه من المغنين اختصارهم فى الطرب على العاطفة المشبوبة الثائرة ، وعلى الوجد والهيام ، والحب والعشق . أما عريب فلم تقف بهذه العاطفة فى تلك الحدود الضيقة بين رسم وطلل ، ومعشوق وعـــذول ، وهاجر ووَصول ، بل توسعت فى موضوعها وتجاوزت بها المنطقة الفردية إلى فضاء الإنسانية الرحب . وهى حين تريد أن تهدف إلى هذه الغاية عامدة أو مرتجلة لا يكون شاعرها الملهم أبو نواس أو بشار ولكنها تلتمسه عند أبى العتاهية الشاعر الإنسانى الذى يجعل الحقيقة هدفه والحكمة مقصده .

زارها مرة علويه المغنى فحفظ منها بيتين وأحسن روايتهما وأداه لحنهما ، ثم حضر إلى المأمون ومشى إليه فى رقص وتصفيق وهو يغنى :

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته
صفالى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمشتاق إلى قرب صاحب
يروق ويصفو إن كدرت عليه

فسمع الخليفة من هذا اللحن مالم يسمع مثله من قبل وسحرهم ما فيه من روعة وبراعة ، فاستعادوه سبع مرات . ثم تأثر الخليفة بذلك الصاحب الذى ينشده أبو العتاهية فى البيت الثانى ، ذلك الصاحب الذى لاتغيره البأساء ولا تميل به السراء . فقال لعلويه بعد أن غناه للمرة السابعة : خذ الخلافة واعطنى هذا الصاحب .

ولا عجب أن تصوغ عريب فى لحنها مايهز مشاعر المأمون إلى استعادته سبع مرات . ولكن ما الذى أثار فيه تلك الهزة العجيبة والشوق المجهول إلى الصاحب المنشود ؟ ألم يكن قد سمع هو ولا أحد من جلسائه هذا الشعر من أبي العتاهية أو من روى عنه ؟ ...لعل ذلك قد كان . ولعله سمعه المرة بعد المرة . أما مصدر تلك الهزة العنيفة الجديدة اليوم فهى الموسيقى التى كانت ثوباً طريفاً وحلية مرصعة أظهرت مافى هذا الشعر من جمال . وكذلك تقوم

الموسيقى بدور المفسر العاطفى لا اللغوى ، فتظهر من خبايا الشعر ماتعجز عنه المعاجم والقواميس .

وتلك التى كانت تلحن وهى لما تتجاوز أربعة عشر عاما من سنها ليس بمستغرب عليها أن تلحن لأبى العتـــاهية فى الحكم ، ولا أن تعقد بينها وبين الواثق مباراة فى التلحين فتقف له بالمرصاد عند كل بيت يلحنه فتجدد تلحينه بما يفوق مقدرته . وليس فى ذلك من بأس على الواثق ، فهو فى هوايته كابراهيم بن المهدى وهى فى صناعتها واحترافها كإسحق . ومن تلك الأصوات التى تبارت فيها عريب والواثق :

لم آت عامدة ذنباً إليك بلى	أقر بالذنب فاعف اليوم عن زللى
فالصفح من سيد أولى لمعتذر	وقاك ربك يوم الخوف والوجل

وكذلك :

أشكو إلى الله ما ألقى من الكمد	حسبى ربى ولا أشكو إلى أحدِ
أين الزمان الذى قد كنت ناعمة	فى ظله بدنوّى منك ياسندى

وعريب التى تتوج شَعرها من المسك بما يقوّم حانوت عطار كانت فى كل شىء متطرفة . . . فى هذا الذى سمعت الآن ، وفى ابتكارها حين تبتكر ، وفى صداقتها حين تصادق ، وفى خصومتها حين تناضل ولو كان الخليفة أو عامل الخليفة .

ولقد تلدغها العقرب وهى تغنى فيمنعها تطرفها هذا أن تخضع لقانون الطبيعة ، وقد اجتمع عليها لدغ العقرب ومس الحمى ّ فى حضرة المأمون ، فما لانت ولا استكانت بل مضت فى الأغنية حتى نهايتها ، وهى فى نشوتها الفنية قد نسيت نفسها وما يصيب جسمها ، ولعلها لم تشعر بنفسها حين سقطت مغشياً عليها بعد انقضاء أغنيتها .

ثم يذهب بها التطرف فى الابتكار فتجيب عن الشعر بالشعر ، وعن الغناء بالغناء ، فإذا بها من كل ذلك فى موضع السحر والدهشة وحيرة السامع .

اجتمع لديها بعض المغنين وأخبروها بأغنية لبنّان المغنى بحضرة الخليفة فاستدعته تحت هطول الأمطار واستعادته ماغنى ، وأجابت معارضة بالمثل . قال بنان :

تجافى ثم تنطبق	جفون حشوها الأرق
وذى (١) كلف بكى جزعا	وسفر القوم منطلق
به قلق يململه	وكان وما به قلق
جوانحه على خطر	بنار الشوق تحترق

فارتجلت عريب على البديهة :

---

(١) الواو واو رب والتقدير رب ذى كلف .

أجاب الوابل الغدق وصاح النرجس الغرق
وقد غنى بنان لنا جفون حشوها الأرق
فهات الكأس مترعة كأن حبابها حدق

فكانت أبياتها موضع السحر والطرب بقية يومهم .

وكانت عريب شاعرة مغنية حتى فى نثرها وتعبيرها الجارى على اللسان طوعاً دون إعداد . فها هو المأمون وقد عاد إليها بعد فراق يسألها فيقول : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فتجيبه : ياأمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ماعُرفتْ حلاوة الوصل ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا . فتحدث المأمون إلى جلسائه عنها حديثاً يعد شهادة بمقامها فى الأدب فيقول : أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً . وفى هذا المعنى تقول أيضاً :

وتخلط الهجر بالوصال ولا يدخل فى الصلح بيننا أحد

وكذلك شاء القدر أن تطول حياة عريب ، وأن تشاهد العصر العباسى منذ أوج عظمته إلى بداية انحطاطه حيث كانت وفاتها حوالى عام ٢٢٦ ﻫ (٨٤١ م) . وهى فى كل ذلك صورة من الفن السافر الذى لا يبالى أين تلقى به الرياح . فهى وراء الجمال كقاصّة الأثر ، وهى فى إثر الفن أينما وجدت إليه السبيل ، ترويه عن غيرها أو تبتكره ، ترسله أحياناً شعراً وتارة نثراً . وتطاوعها

قدرة عجيبة . ولا يعنيها حين ترسل فنها حراً طليقاً أن يعجب الناس به أو ينقدوه ، فهى قد أرضت هوايتها .

وفوق ذلك تبدو لنا عريب فى صورة بعض الفنانين فى عصرنا ممن امتازوا فى سرعة البديهة وحضور الجواب بما يخيب أمل المتكلم فى انتصاره . ومن العجيب أن يكون ذلك فى عصر لا يُعرف فيه الكثيرون من أمثالها على هذا النحو من القدرة والتفوق .

ولو أردنا أن نتقب عن مثال القينة المستكملة لجميع شرائط النبوغ ، المعبرة فى حياتها أصدق تعبير عن عصرها وفنها تعبيراً يجد فيه التاريخ صحيفة وافية الموضوع عن ذلك العصر ومدنيته، فإن تلك القينة المثالية فى ثقافتها وفنها وأدبها هى عريب .

الكندى

هو أبو يوسف يعقوب الكندى . ووالده إسحق أمير الكوفة الذى استمرت إمارته بها فى عهد ثلاثة من خلفاء الدولة العباسية المهدى والهادى والرشيد . وقد تحدر من الأصول الرفيعة فى البيوتات العربية . وجده الأشعث بن قيس صحابى جليل . وبقية أجداده ملوك فى الجاهلية وأمراء فى الإسلام .

وانتقل الكندى إلى بغداد فتى قد شب فى أحضان العلوم والفنون ، والدولة فى أوج مجدها وفى مشرق ثقافتها . وقد تعلم الحساب والرياضيات والطبيعيات ، وأجاد معرفة الطب والمنطق والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك . وأحاط بالثقافتين اليونانية والفارسية . واستقى من موارد الحكمة الهندية . وقد أجاد تعلم اليونانية حتى تخيره المأمون بين كبار حكماء العرب الذين قاموا بترجمة المكتبة اليونانية وما اشتملت عليه من علوم وفنون . وقد عُدّ الكندى فى صدر أربعة هم حذاق الترجمة وحملة لوائها .

وكان الكندى أول نجم لمع فى سفر التاريخ الفلسفى فى الأمة العربية . ولم يتقدمه اسم قبله من هذه السلالة . ولم نعرف أحداً

سبقه إلى مزاولة هذه الصناعات منذ ظهرت الدولة الإسلامية .
وإذا كان الفارابي والرئيس ابن سينا وغيرهما قد أشرقت سمعتهم وحلقت شهرتهم وزاد حظهم من المعرفة فقد كان ذلك بحكم التطور . ولكن للبداية قدرها والفضل للمتقدم .

وقد كاد تاريخ الثقافة العربية يطبق سجله وإجماعه على شهرة الكندى من ناحية الفلسفة وحدها . ولعل كثيراً من أهل العلم والأدب اختلفت عليهم العصور وهم لا يتعدون بالكندى حدود مملكة العلوم العقلية البحتة . وقد تنبه تاريخ الموسيقى فى العهد الأخير إلى هذا العبقرى فألقى عليه أضواء البحث والتنقيب والدراسة ، فبعث من شخصيته ما كان مجهولا ونشر من تراثه ما كان مطويا ، ليتقدم به مرة أخرى إلى الدنيا لا كعالم من علماء الموسيقى فحسب بل كأقدم كاتب عربي وصلت إلينا مؤلفاته فى هذه الصناعة . ولئن تناقل الرواة أسبقية بعض علماء العرب للكندى فى هذا المضمار أمثال يونس الكاتب والخليل بن أحمد وغيرهما ممن تقدموه فإنه لم يصل إلينا أى أثر من مؤلفات أولئك إطلاقا ، كما خلت دور الكتب فى جميع الممالك من وجود أى مصنف من مصنفاتهم الموسيقية.

وللكندى كتب كثيرة فى الموسيقى عرف التاريخ منها سبعة وبقى منها فى دور الكتب العامة رسالتان مقطوع بنسبتهما إليه ، إحداهما مخطوطة معنونة باسم « رسالة فى خبر تأليف الألحان » . محفوظة بدار الكتب بأكسفورد تحت رقم ٢٣٦١ . أما الأخرى

فهى التى تسمى « رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى » وهى محفوظة بدار الكتب العامة ببرلين تحت رقم ١٢٤٠ [١] .

أما الرسالة الأولى فقد عالج الكندى فيها علم التأليف وطبيعة الأصوات وتركيب النغمات مع تطبيق ذلك على آلة العود .

ويصف الكندى السلم الموسيقى العربى مشتملا على اثنتى عشرة نغمة . إذن فهو مطابق لما نعرفه فى العصر الحديث بالسلم الملون (الكروماتى) وهو السلم ذو أنصاف الأبعاد الطنينية . وكان يطلق على هذه النغمات أسماء الحروف الأبجدية العربية حسب ترتيبها . فالنغمة الأولى وهى نغمة مطلق الوتر الأول يرمز إليها بالحرف « ا » والثانية بالحرف « ب » والثالثة بالحرف « ح » والرابعة بالحرف « ى » وهكذا . . . والعود عنده ذو خمسة أوتار ، هى من الغلظ إلى الحدة على الترتيب : البم فالمثلث فالمثنى فالزير الأول فالزير الثانى [٢] . ويختص كل وتر بستة أصوات يكون أولها مطلق الوتر . وتستخرج الأصوات الباقية بالعفق عليه بواسطة الأصابع الأربع : السبابة والوسطى والبنصر والخنصر .

ونغمة الخنصر فى كل وتر تكون على بعد ذى الأربع من مطلقه ، وهى نفس نغمة مطلق الوتر الذى يليه . وعلى ذلك

---

(١) وقد منحت المقادير مؤلف هذا الكتاب حظاً تاريخياً إذ قام للموسيقى ودراستها بنشر هاتين الرسالتين بعد تصحيحهما وشرحهما والتعليق عليهما ثم نشرهما مترجمتين إلى الألمانية .

(٢) الوتر الخامس فى العود لم تعرفه العرب فى ذلك الوقت إلا من الناحية النظرية فحسب ، وظل العود من الناحية العملية ذا أربعة أوتار حتى عهد زرياب .

تنتهى نغمات الديوان الأول بالحرف الأبجدى « ل » على الوتر الأوسط حيث يبتدىء بعدها الديوان الثانى بالحرف الأبجدى « ا ». وتتكرر النغمات فى الديوان الثانى على نفس ترتيب الديوان الأول وبمسمياته . وتنتهى نغمات هذا الديوان الثانى بالحرف الأبجدى «ل» على الوتر الخامس (الزير الثانى) حيث تبدأ نغمات الديوان الثالث .

وفيما يلى جدول يبين أسماء أوتار العود وتوزيع النغمات عليها كما ورد فى تلك الرسالة المشار إليها [(١)].

الزير الثانى	الزير الأول	المثنى	المثلث	البم
ط	د	ك	و	ا
ى	ه	ل	ز	ب
ك	و	ا	ح	ج
ل	ز	ب	ط	د
ا	ح	ج	ى	ه
ب	ط	د	ك	و
ج				

(١) ويتضح من هذا الجدول أن المتقدمين من العرب كانوا يستعملون الوتر الأول (الغليظ) كما يستعملون بقية الأوتار الأخرى ، ويجرون عليه ما يجرونه عليها من الإطلاق والعفق ، بينما لا يستعمل هذا الوتر فى العود فى العصر الحاضر إلا مطلقاً من غير عفق .

وبما هو جدير بالذكر أن الاثنتى عشرة نغمة المشتمل عليها الديوان العربي على نحو ما يصفه الكندى ، متفقه فى مقاديرها مع نسب أبعاد سلم « فيثاغورس » الذى أساسه دوائر الخامسة تتكرر اثنتى عشرة مرة ، وتكون آخر نغمة تنتهى إليها هذه الدوائر الاثنتى عشرة هى الجواب السابع للنغمة الأولى التى ابتدىء بها مع فارق بسيط جداً يساوى الفرق بين $(\frac{٢}{٣})^{١٢}$ ، $(\frac{١}{٢})^{٧}$ وهو مايسمى « كوما فيثاغورس » وقيمتها $\frac{٧٤}{٧٣}$ تقريباً .

ولعل من المهم أن يعلم القارىء كيف كان الكندى وأقرانه ، من علماء العرب المتقدمين ، يعبرون عن أبعاد درجات السلم وعن النسب العددية بين الأصوات . وإنا نسوق على سبيل المثال ما يقوله الكندى فى بداية رسالته (فى خبر تأليف الألحان) التى سبقت الاشادة إليها وهو :

« و ك إلى ا كله وثمن كله . وقد بينا أن فضل الذى بالخمسة على الذى بالأربعة كل وثمن كل . . . » [١].

---

(١) وقدتبين فى الجدول المتقدم الذى أوضحنا فيه مواضع الأصوات من أوتار العود الخمسة أن ك رمز لصوت مطلق وتر المثنى وأن ا هو صوت إصبع السبابة على هذا الوتر وإذن فالبعد بين الصوتين ك ا هو حسب اصطلاحنا بعد طنينى ، ويعبر عنه الكندى أنه يساوى كله وثمن كله (أى أنه إذا خرجت ك من مطلق الوتر الذى يبلغ طوله ٩٠ سنتيمتراً مثلا فان الصوت ا يخرج من بعد ٨٠ سنتيمتراً من هذا الوتر. وإذن يكون طول الوتر الذى أخرج الصوت ك = ١ + $\frac{١}{٨}$ طول الوتر الذى أخرج النغمة الثانية وتكون ك : ا = كله وثمن كله) . وعلى هذا النحو فان مسافة الخامسة تزيد على مسافة الرابعة ببعد طنينى . ويعبر الكندى عن ذلك بقوله « إن فضل الذى بالخمسة على الذى بالأربعة كل وثمن كل » .

أما المخطوطة الثانية من رسالتى الكندى ، فهى بحث طريف شيق لم يقتصر الشأن فيه على معالجة الموسيقى من ناحيتها الفنية وحدها بل تناول بحوثاً ضافية رائعة ، تعد فى أكثر مسائلها من بحوث العصر الحديث وإن كان صاحبها قد تقدم هذا الزمن بأكثر من ألف عام .

وفى مقالات هذه الرسالة وبين ثنايا فصولها العديدة ندخل على الموسيقى من عالم جديد لم يكن معروفاً من قبل، ولعله لم يعرف إلا حين استيقظ العلم إلى التحليل الجديد فى القرن العشرين أو قبيله .

وها نحن نرى الموسيقى فى تلك الرسالة مشرفة على جميع نواحى الحياة غير مقصورة على اللحن والإيقاع ولا على النفخ والعزف ولا على ما يتطرق إلى مداخل النفس من طريق الحاسة السمعية ، بل يتخطى الكندى بالموسيقى مسافة السمع القصيرة ، فيخرج من الألحان ، إلى الألوان ، ويقفنا على طبيعة كل لون وتأثيره فى النفس . ويضع بينها النظائر والأشباه والأقيسة مقترنة بنتائجها التى تنتهى إليها. فالألوان كالألحان تعبر عن المعانى النفسية والقوى الحيوية وتدل عليها وتؤدى إليها .

ولمَ تكون الألوان والألحان هى المسيطرة وحدها على تلك القوى المنبهة للملكات والسجايا!! فهذه هى العطور أيضاً: إنها موسيقى صامتة . وهى فى مملكة الأراييح لها أثرها وخطرها . فهذه زهرة

تثير النخوة ، وتلك أخرى تهيج بعبيرها لواعج الشوق ، وثالثة تحمل فى عطرها العُجب والكبر . وهى جميعاً فيما تنبه من القوى كالألحان والألوان .

ولكن ثمت مرحلة أخرى هى الحاسة الذوقية من الألفاظ المنطقية المستمدة من العقل وهو أشرف المخلوقات .

والكندى بعد ذلك لا يترك شيئاً ، حتى حاسة اللمس ، وإن كان لا يفردها ببحث خاص لأنها — على حد تعبيره — تشترك مع غيرها فى أكثر حالاتها .

وإذا كنا ننشد تقديم الكندى موسيقياً لمن لم يعرفوه كذلك فقد كشف لنا فى مصنفاته تلك أنه شىء آخر حتى فى الموسيقى . فقد فلسفها وسما بها ونشر منها أشعة وأضواءً على جميع الأشياء . ولم يجعلها مقصورة على حاسة واحدة . وكأنى به قد قسم الموسيقى إلى نوعين موسيقى معزوفة مسموعة مرتلة ، وأخرى تنظرها العين وتتعطر بها الحياة ويستمتع بها العقل فكراً وشعراً ومنطقاً .

فإذا شعر الكندى بأننا قد بدأنا نسأم فى مصنفه جدية البحث الدسم راح يرفه عنا بفصل ممتع من نوادر الموسيقى الفلسفية أو الفلسفة الموسيقية .

ولعل من الخير أن نختتم حديثنا عن الكندى بجمل من ختام رسالته قال :

« الغناء فضيلة شريفة تحذرت على المنطق فى قدرته ولم يقو على إخراجها فأخرجتها النفس لحناً ، فلما ظهرت سرت بها وطربت إليها. فاسمعوا من النفس وناجوها وراعوا مناجاة الطبيعة والتأمل لها » .

ومن ذلك أيضاً قوله :

« فضل الموسيقى يأتلف مع كل آلة كالرجل الأديب المؤتلف مع كل بشر » .

وكذلك ما حدث به الكندى رواية على سبيل التندر قال :

« خرج بعض الفلاسفة مع تلميذ له فسمع صوت القيثارة فقال للتلميذ امض بنا إلى هذا القيثارى لعله يفيدنا صورة شريفة . فلما قربا منه سمعا صوتاً رديئاً وتأليفاً غير متفق . فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة والزجر أن صوت البومة يدل على موت إنسان . فإن كان ذلك حقاً فصوت هذا يدل على موت البومة » .

لقد عاش الكندى بين ترف المال وترف العلم ، ينهل الثقافات من جميع مواردها الممكنة ، حتى أهاجت عليه عبقريته الخصوم والحساد وخلقت منه فيلسوفاً متشائماً ، ضيق الصدر ، يأنس بالوحدة وينشد الخير فى العزلة ، ويرى الظلم والوحشة فى أقربائه الأدنين حتى فى شقيقه وعمه وخاله ، والمرء عادة يلتمس السعادة بين هؤلاء . ولكن حياة الكندى لم تعد تحتمل . فهو يضمّن وصاياه أن « الأخ فخ ، والعم غم ، والخال وبال ، والولد كمد ، والأقارب عقارب » .

وقد رأى بعينيه تطاول الجهلة والحمقى وتمتعهم بعليا المكانات ، حين يجوع أهل الحكمة والمعرفة فراح يقول :

أناف الذنابي على الأروس فغمض جفونك أو نكس
وضائل سوادك واقبض يديك وفى عقر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابغ العلـ ـو وبالوحدة اليوم فاستأنس
فإن الغنى فى قلوب الرجال وإن التعزز بالأنفس
وكائن[1] ترى من أخى عسرة غنى وذى ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت على أنه بعد لم يرمس
فإن تطعم النفس ما تشتهى تقيك جميع الذى تحتسى

وكانت وفاة الكندى عام ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م)

* * *

ولعلنا استطعنا فى هذه الإلمامة القصيرة أن نضع أيدينا على حياة الكندى الفيلسوف والطبيب والفلكى والرياضى ، ثم وصلنا رحلتنا فتعرفنا إلى الكندى الفيلسوف فى الموسيقى والموسيقى فى الفلسفة ، حتى أتيح لنا أن نعرف وجهته النفسية أيضاً حين هو فيلسوف ناثر وموسيقى شاعر .

---

(١) كائن لغة فى كأين .

الفارابى

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بلده وسيج من مقاطعة فاراب بخراسان . عمر ثمانين عاماً ، حيث كان مولده فى عام ٢٦٠ هجرية (٨٧٤ م) ووفاته ٣٣٩ هجرية (٩٥٠ م) .

كان والده من قواد الجيش ، فلما بدت على ولده مخايل النجابة فى صباه اقتضت حاجة مواهبه العالية ، أن يغادر مسقط رأسه إلى بغداد ، وكانت قبلة الحضارة والنور ، ومركز الثقافة والعلم فى العصر العباسى . فلما أتم بها دراسته وتحصيله التحق بحاشية الأمير سيف الدولة من بنى حمدان ، أمير حلب ، على إثر حادثة تناولها القصّاص والمؤرخون فى أسلوب نسجوا له حللا طلية من الخيال يصور بحق عبقرية هذا الفيلسوف . على أنه لم يتقرب للأمير بادىء الأمر بفلسفته وحكمته ، بل كانت الموسيقى هى رسوله وشفيعه إلى قلب سيف الدولة حين دخل عليه وجلس إلى جانبه دون تهيب أو تردد ، حتى إذا أصلح أوتاره هز أوتار القلوب ولعب بمهج الحاضرين ، حتى أضحكهم وأبكاهم وأذهلهم عن أنفسهم . فدل بذلك على أصالته فى الموسيقى وعراقته

فى التصرف بفنونها وألوانها. وكان سيف الدولة مجدوداً فى التاريخ فقلما أتيح لأمير أو خليفة أن يحظى بشاعر مثله كالمتنبي وفيلسوف كالفارابي الذى صحب الأمير إلى دمشق، فأقام فى حاشيته مدة ثم مال إلى الوحدة والانفراد واعتزل المجتمع وعاش عيش الحكماء إلى وفاته.

وقد حدثوا أنه بعد وفاة سيف الدولة ، تزيى الفارابي بزى المتصوفة ورثاه على قبره وقام فى مجموعة من أصحابه بصلاة الجنازة عليه . كما يزعم البعض أنه قدم إلى مصر قبل وفاته بعام وإن كان ذلك لم يثبت تاريخياً .

كان الفارابي صافى الروح طاهر النفس ، متزهداً فى دنياه ، متحلياً بالقناعة والرضى ، مكتفياً بالكفاف من العيش ، يسير عل نهج من تقدمه من الحكماء . كما كان دائم التأمل والتفكير يقطع زمانه باستيعاب المذاهب الفلسفية ، قديمها وحديثها . ولا أدل على قناعته من اكتفائه بأربعة دراهم يتقاضاها من سيف الدولة ليقتات منها بالضرورى فى يومه وليلته . ولم تدع الفلسفة والدراسات له من الوقت ما يعنى فيه بحسن منظره وهيئته ، وهو الرجل الذى بلغ به الأمر فى القناعة والقصد أن يقرأ كتبه على ضوء مصابيح الحراس فى ظلام الليل الداجى. وحق هذا الذى قيل إن الفارابي قد عاش فى دولة العقل ملكا وفى العالم المادى مملوكا.

وقد كان الفارابي فى طموحه وآماله الكبار ، كبقية أعلام النبوغ والعبقرية لا يقنع منذ صباه بأستاذ واحد ، بل لقد تتلمذ

على الكثيرين من علماء وفلاسفة وفنانين فجال فى الحكمة ، وصال فى الرياضة ، وأمعن فى الطب ، وافتن فى الموسيقى ، وبرع فى اللغات حتى اشتهر عنه علمه بجميع لغات الدنيا — وما كان ذلك لأحد ولا يمكن أن يكون — ولكن المؤكد المعروف أنه عرف العربية لغة الدين والأدب ، والفارسية لغة الفن والموسيقى والتركية لغة العشيرة والقبيلة واليونانية لغة الفلسفة والحكمه ، وبحسبه أن نؤكد له المعرفة بهذه اللغات وما فيها من ذخائر وكنوز .

وكان صاحب مذهب خاص أسماه مَن بعده بفلسفة الفارابى ، وهو مع ذلك جم التواضع حين يسأل عن الموازنة بينه وبين أرسطو فيقول : لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه . ثم يبلغ به حب العلم أن يقول : قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة ، وأرى أنى محتاج إلى معاودته . وإن كنت أرى أن مجهوده العلمى يتجه فى الأكثر إلى ضبط كتب أرسطو ، وتخليص فلسفته بما جعل مذهبه فيها مدرسة تأثرت بها اللغات قديمها وحديثها عند ترجمتها إليها.

ولم تبق من مؤلفاته الكثيرة سوى اثنى عشر كتاباً فى مختلف العلوم والفنون متفرقة ، فى مكاتب أوربا . ولما كان الفارابى من أقطاب الفلسفة فى الشرق خاصة ، وفى العالم كافة ، فقد توارى جانبه الموسيقى عن الأنظار والأسماع ، عند كثير من الناس . وقد يرجع ذلك فى الأهم إلى أن أثره فى الفلسفة كان من الذيوع

والشهرة بحيث طغى على الجانب الفنى من حياته . وقد يرجع السبب أيضاً إلى أن البحوث العلمية التى عالجها فى الموسيقى لم تكن من البساطة واليسر بحيث تقرب ألى أفهام جماهير النـاس ممن يعنيهم من الموسيقى مجرد الطرب والأداء . وقد وجد الفارابى الفيلسوف ما لم يجده الفارابى الموسيقى ، فهو حين نشر فلسفته ومذهبه فيها كان له تلامذة أوفياء ، يحرصون على الدراسة والبحث والنقل . وهو حين ألف فى الموسيقى وابتكر فى علومها لم يجد مثل أولئك كثرة ووفرة فى مثل عصره الذى عاش فيه . يشهد لثروته الفنية مؤلفاته الموسيقية ، فمن هذه المؤلفات « كتاب الموسيقى الكبير » و « كلام فى الموسيقى » و « كتاب فى إحصاء الإيقاع » وغيرها من المؤلفات الموسيقية ، إلا أنها فقدت جميعاً ، ولم يبق منها إلا الكتاب الأول ، وهو سفر جليل ضخم حوى أسرار هذه الصناعة من ناحيتيها العلمية والفنية. ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ واحدة منها فى ميلانو بإيطاليا ، والثانية فى مدريد بأسبانيا ، والثالثة فى ليدن بهولندا [1] .

---

(١) وقد لخص عن هذا الكتاب باللغة الألمانية العلامة « كوزاجارتن » فى نهاية القرن الماضى وإن كانت تعليقاته لم تخل من خطأ عرضنا له تفصيلا فى كتابنا عن ابن سينا الذى نشر باللغة الألمانية. وقد قام فى السنوات الأخيرة بترجمة كتاب الفارابى هذا إلى اللغة الفرنسية وشرحه والتعليق عليه العلامة المستشرق المرحوم البارون دى أرلنجيه الذى كان مقيما فى تونس وتوفى بها عام ١٩٣٢ . وقد أتم الترجمة فى جزأين ظهر أولهما قبيل وفاته وظهر الثانى بعدها .

وللفارابى « كتاب فى إحصاء العلوم » عرض فيه أيضاً للموسيقى ، وقد ترجم إلى اللاتينية [١] .

وإنه ليتبين من مؤلفات الفارابى فى الموسيقى عظيم شغفه بهذا الفن ، وواسع اطلاعه فيه ، وتفننه فى دراسة فنونه وعلومه . ولم يكتف الفارابى فى ذلك بتصنيف الكتب بل ابتكر فى الآلات الموسيقية . روى ابن أبى أصيبعة أن الفارابى صنع آلة إذا وقع عليها أحدثت انفعالا فى النفس فيُضحك السامع ويبكيه ويستخفه ويستنفره . وقال بعضهم إنها شبيهة بآلة القانون المعروفة لعهدنا هذا أو هى القانون بذاته .

ولقد ذكر الفارابى فى مقدمة كتابه أنه استنبط طريقة خصيصة به ولم يقلد أحداً . والحقيقة أنه بز فى مؤلفاته الموسيقية جميع معاصريه ومن تقدم من أهل هذا الفن ، فجاءت — وبخاصة كتاب الموسيقى الكبير — شاملة وافية مستوعبة لجميع نواحى هذا الفن من ناحية طبيعة الأصوات وتوافقها وأنواع الأنغام والأوزان والآلات الموسيقية المختلفة ، إلى غير ذلك مما يتصل بهذه الصناعة وعملها بما ينهض شاهداً على ما وصل إليه فيض علمه بالموسيقى وإتقانه إياها إتقاناً لا مزيد عليه .

ومن كان له مثل هذا الاطلاع على الفلسفة والحكمة والآداب فى اللغات المختلفة خليق به أن يبلغ هذا الأوج الرفيع البعيد المدى وقد بلغه الفارابى حين أضاف إلى فلسفة الحكمة فلسفة الموسيقى .

---

(١) وأخرج الدكتور هنرى فارمر حديثاً باللغة الانجليزية القسم الخاص بالموسيقى من هذا الكتاب ترجمة وتعليقاً .

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس الوزير الطبيب الفيلسوف الموسيقار أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا . كان والده من بلخ ثم تخير أن يعيش في بخارى ، وقد عينه نوح بن منصور الساماني والياً بإحدى حواضر هذا الإقليم . ومن قرية قريبة منها وهي افشنا تزوج عبدالله فأنجب علياً . وكان مولده في شهر صفر عام ٣٧٠ هـ (أغسطس سنة ٩٨٠ م) . وقد أولاه أبوه عناية وافرة . ولم يدخر وسعاً في تقويمه وإحسان تربيته ، سيما وقد عاد إلى بخارى ولما يزل الطفل في سنواته المبكرة . وبخارى بحكم مركزها العلمي جديرة بأن تكون حقلاً خصيباً لإنماء تلك العبقرية العالمية المنتظرة .

وقد أتم ابن سينا استظهار القرآن ، وما زال في العاشرة من سنه ، وألم بمقدار كبير من ثقافة عصره ، من العلوم الشرعية والعربية ، وحفظ من نحوها وأدبها ما جعل الناس يرون فيه المعجزة التي تحدّت السن والطاقة البشرية . وما زال به الجد والتحصيل وهو صبي حتى بز أعلام عصره ، وفاق أساتذته . وأكب على مناهل الرياضيات والمنطق ، وعلم الكلام والفلسفة .

أقبل على دراسة الطب فكان الطبيب النطاسى الماهر ولما يتجاوز السادسة عشرة من فجر شبابه .

وقد واتته الأقدار بفرصة عجيبة ، وذلك أن الأمير نوحاً ابن منصور اعتل وحار الأطباء فى معالجته . ولما انتهى الأمر إلى ابن سينا ، الطبيب الفتى ، كان عنده الدواء المرجو والشفاء المنشود . ولما عوفى أمير الملك على يد أمير الطب أجزل له العطاء وأباحه خزانة كتبه ، ففتح له بذلك الكنز العامر بأغلى ما أنتجه العقل البشرى فى تلك العصور . فأقبل عليها ابن سينا إقبال النهم ، وأفاد منها فرصة ما كان له إليها من سبيل لولا أن الأقدار هيأتها له وللعالم الذى اجتنى ثمار عبقريته فيما بعد .

ومات والده وهو فى الثانية والعشرين ، فرحل عن بخارى ، وتنقل فى مواطن عديدة كجرجان وخراسان وداغستان وغيرها من المدن الواقعة على مقربة من بحر قزوين . ثم استقر به المقام فى جرجان حيث ألقى بها الدروس والتف حوله الطلاب ، وبدأ وضع كتابه القانون فى الطب ، وهو المرجع الذى أكسبه الشهرة العالمية وجعله أحد أطباء التاريخ ، فقد بقى كتابه هذا أساس الدراسات الطبية ، فى الأقطار العربية وممالك أوربا أحقاباً وقروناً متطاولة .

وقد استوزره شمس الدولة أمير همذان ، ولم يخل فى ذلك من المحن والكوارث التى كادت تعصف به فقد أسره الجند وأرادوا

قتله، ولم ينجه منهم سوى الأمير الذى احتفظ به ليقوم على معالجته من داء عياء . و فى ظل ذلك العهد بدأ كتابه العظيم وأثره العالمى الخالد وهو مصنفه « الشفاء » .

وكانت حياته العلمية مدرسة تعليم ، ثم ندوة سمر ، تبدأ بالفلسفة والطب ، حتى إذا ملت العقول وسئمت الأفهام بدأ الدور الفنى كل ليلة يحوّل تلك السآمة العقلية إلى مرح وطرب وموسيق وغناء ، حيث يتقدم العازفون ويقبل المغنون . ومن ثم تهدأ تلك الثورات الفكرية والمذاهب الفلسفية لتحل محلها الأغانى الروحية والألحان الموسيقية الساحرة .

***

ولئن عرف الناس أن ابن سينا كان علماً من أعلام زمانه فى جميع العلوم : فى الدين ، والفقه ، وفى اللغة ، والفلسفة ، والرياضيات ، والمنطق والأدب ، وعلم النفس ، وأن الطب لم يكن غير ناحية من نواحى عبقريته الفذة فإن قليلا من الناس من يعلم أنه من أساطين علماء الموسيق فى زمانه ومن أوسع معاصريه علما بها .

كان ابن سينا إمام عصره فى العلوم الموسيقية فى الشرق والغرب . وكانت كتبه وكتب الفارابى أساس العلوم الموسيقية العربية حتى فى الأندلس برغم أنهما من المشارقة .

لقد ألف ابن سينا فى الموسيقى ثلاثة كتب : اثنين باللغة العربية والثالث باللغة الفارسية. وأكبر هذه الكتب وأوسعها بحثاً هو الجزء الموسيقى من كتابه «الشفاء» وهو موسوعة شاملة لجميع العلوم ودائرة معارف واسعة، خصص منها مجلداً ضخماً للموسيقى. وأما كتابه الثانى فى الموسيقى فهو جزء من كتاب «النجاة» وهو موسوعة أخرى أقل توسعاً من الأولى. ثم الكتاب الثالث الفارسى واسمه «دانيش ناما» أى كتاب المعرفة ، ويحتوى على الجزء الموسيقى من كتاب النجاة.

أما كتاب الموسيقى فى موسوعته «الشفاء» فلم يبق منه فى دور الكتب العالمية العامة إلا أربع نسخ مخطوطة، كلها فى مكتبات انجلترا، وأكملها المخطوطة المحفوظة فى مكتبة أكسفورد.

أما كتاب «النجاة» فقد ترجمته أوربا إلى اللاتينية عام ١٥٩٣ ولكنه — للأسف — ينقصه الجزء الخاص بالموسيقى. بيد أن مخطوطتين منه محفوظتان فى مكتبة أكسفورد.

ولقد عالج ابن سينا فى هذين المؤلفين، وفى مؤلفه الفارسى، كل مايتعلق بالموسيقى العربية من ناحيتها اللحنية والإيقاعية، وشرحها شرحاً وافياً، مبوباً أجمل تبويب يتفق والعلوم الموسيقية الحديثة. ولقد يطول بنا البحث إذا تعرضنا لكل ماكتبه ابن سينا فى موضوع الموسيقى، إنما نقصر الإشارة هنا إلى ناحية واحدة

امتاز بها ابن سينا فى مؤلفاته ، وانفرد بالبحث فيها عن كل من سبقه من العرب ومؤلفى الشرق ، وهى الناحية الخاصة بالموسيقى العربية والهارمونى ، وعلى الأدق فى التعبير الموسيقى وتعدد الأصوات .

تعدد أصوات المغنين فى وقد واحد أمر طبيعى لا صناعى ، عرفته أقدم العصور . فقد تغنى الأطفال والنساء والرجال جميعاً فى وقت واحد منذ القدم ، فى تراتيلهم الدينية واستقبالهم للملوك والقواد الفاتحين . ومما لا ريب فيه ، أن لكل فئة من أولئك طبقة من الأصوات خاصة . فإذا امتزجت بعضها ببعض ألفت نوعاً من تعدد الأصوات . . . وهذا النوع وإن كان متأصلا بالطبع فى الموسيقى منذ القدم ، وقد أثبت التاريخ الموسيقى وجوده فى جميع الممالك القديمة، إلا أن هذه الممالك لم تلتفت واحدة منها إلى تواليفه التفاتاً مقصوداً، ولم يتعرض عالم من علمائها إلى بحثه بحثاً علمياً.

وهذا هو السبب فى إغفال البحث عن تعدد الأصوات فى الموسيقى وتأخر ظهوره ، حتى تحدثت عنه أوربا فى العصور الوسطى حيث لفت نظر العلماء ما تستعمله الكنيسة فى التراتيل من اختلاف الأصوات فى الأداء ، وظهر « هوكبالد » الايطالى الملقب بوالد الهارمونى فى آخر القرن التاسع وأول القرن العاشر (٨٤٠ — ٩٣٠ م) . يحدثنا هذا الموسيقى ، فى مؤلفاته النظرية عن تعدد الأصوات بما يقرره من إمكان امتزاج نغمة الأساس

بالرابعة والخامسة والجواب ، وهو ما كان مستعملا من غير قصد في أغاني الجماعات في الممالك القديمة .

ولقد خلف «هوكبالد» العالم الموسيقي «جيدو الأريزي» فنهج منهج سلفه . وتلقت أوربا مؤلفات هذين العالمين بالترحيب والإقبال ، وبحثوا فيها ، وزادوا عليها ، حتى تطوروا بتعدد الأصوات وصار عِلماً قائماً بذاته هو «علم الهارموني» الذي هو جوهر الفرق بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية .

وكان المعتقد أنه لم يتعرض من علماء العرب أحد للكلام في تعدد الأصوات ، حتى كشف العهد الأخير ، عما دبجه يراع ابن سينا في هذا الموضوع في مخطوطاته الموسيقية التي أشرنا إليها آنفاً . فكان ابن سينا أول عربي عالج هذا الموضوع في شيء كثير من التفصيل والإسهاب .

وإذا علمت أن ابن سينا عاش في القرن العاشر ، وهو الزمن الذي عاش فيه هوكبالد وجيدو تقريباً ، تحقق لديك أن ابن سينا كان في بحثه هذا حراً طليقاً ، لا صلة له بمؤلفات ذينكما العالمين . وأظهر الدلائل على ذلك أن طريقة بحثه في هذا الموضوع وتفكيره فيه تختلف اختلافاً بيناً عن طريقة صاحبيه مع ما يزيد على هذا من بعد الدار ونأى المزار ، وتباين اللغة ، والفروق الأخرى الكثيرة من ثقافية وغير ثقافية بينه وبينهما .

والمحقق بعد ذلك أن تعدد التصويت كان معروفاً عند العرب ، استعملوه فى أغانيهم وأهازيجهم ، بل وأعجب من هذا أنهم استعملوه فى عزفهم بالآلات الموسيقية ، وهى مفخرة عزت على الكثير من الممالك المتحضرة فى ذلك الوقت .

اتخذ ابن سينا فى كتابته عن تعدد التصويت عنواناً أدمجها فيه أسماه « محاسن اللحن » وجعلها أربعة أنواع مختلفة هى : الترعيد والتمزيج والتوصيل والتركيب ثم استنبط من التمزيج فرعاً أسماه التشقيق ومن التركيب فرعاً آخر أسماه الإبدال . وإذن فقد توسع ابن سينا فى بحثه وشرحه شرحاً وافياً بز فيه صاحبيه وامتاز عليهما بما استخلصه فى بحثه من كثرة أنواع تعدد الأصوات .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن ابن سينا اتفق مع العالمين الأوربيين فى جوهر بحثهما عن الانسجام الصوتى والتوافق الهارمونى ، فقال فيما عرف به « التركيب » :

« أما التركيب فإنه يخلط بالنغم الأصلية فى نقرة واحدة نغمة موافقة لها ، وأفضل ما كان من الأبعاد الكبار ، وأفضله الذى بالكل ثم الذى بالأربع » .

ويتأدى قوله هذا إلى أنه يمكن المزج بين صوتين بأدائهما معاً فى انسجام توافقى ، وأحسن ما ينتهى إليه الأمر فى ذلك :

الجمع بين الأساس وجوابه أو الأساس وخامسته أو رابعته [1].

وقد بقى ابن سينا نجما من نجوم الفلسفة والطب والموسيقى إلى أن توفى شمس الدولة ، فلم تطب له الحياة مع ولده الذى خلفه على الإمارة . واشتدت الأمور بابن سينا حتى سجنه الأمير بالقلعة عدة سنوات إلى أن لاذ بالفرار واعتصم بأصبهان فى صحبة الأمير علاء الدين ، وكان طبيبه وسميره وصاحبه فى جميع مغازيه وأسفاره .

وقد انهار ابن سينا ، وناءت صحته بالأعباء الفادحات التى تثقل كواهل الجبال ، وهو بين قطع الأسفار وتأليف الأسفار إن جاز هذا التعبير . وقد عانى الأمرّين من محن ، وسجن ، ومرض ، وغربة ، وحقد خصوم ، ومكابدة اطلاع ، وتأليف وتصنيف . ولعل الموسيقى كانت ركن الترفيه والسعادة فى حياته ، والكهف الذى تلجأ إليه نفسه حين تشتد الظلمة وتعظم المحنة .

---

(١) قد شغل ابن سينا وبحوثه الموسيقية جزء كبيراً من الحياة الدراسية لمؤلف هذا الكتاب فأفرد لذلك رسالة ظهرت باللغة الألمانية عام ١٩٣١ كشف فيها عن النواحى المستحدثة التى كان التاريخ الموسيقى ينسب بدايتها إلى التفكير الأوربى حتى زمن ظهور هذه الرسالة . وقد تلقت جامعة برلين والدوائر العلمية معلومات هذه الرسالة بالترحيب على أنها تغيير فى مادة التاريخ وكشف لبعض نواحيه ورد للحق إلى نصابه وإعادة قيمة الكشف الفنى لعبقرية الشرق والمدنية الإسلامية فى الرئيس ابن سينا . ولا يحتمل هذا الكتاب استيفاء جميع النواحى التى تجلى فيها فضل ابن سينا على الموسيقى وتجديده فى علومها وفنونها .

وفى شهر رمضان عام ٤٢٨ ﻫ (يوليه سنة ١٠٣٧ م) وقد بلغ السابعة والخمسين من عمره لقى ربه بعد عكوف على الرياضة والطاعة والتصدق بكل ما يملك .

وقد دوّن أكثر من مائة كتاب ، كلها شهود عدل بما له من فضل وبما له من ثقافة واسعة ألمّ فيها بجميع العلوم والفنون فى عصره . ومعظم مؤلفاته لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا . وكثير من كتبه الكبرى كالقانون والشفاء ترجمت إلى اللاتينية ، وطبعت عدت مرات .

***

لقد عاش ابن سينا سبعة وخمسين عاما من الدنيا ، وستمضى سبعة وخمسون قرناً وأضعافها وابن سينا لايزال يعيش لا فى بخارى وجرجان وأصبهان ، بل فِى خلود العبقرية ، التى لا تعرف الزمان والمكان .

أعلام عصر الأندلس

(١٣٨هـ/٧٥٦م - ٤٢٢هـ/١٠٣١م)

زرياب

هو رمز حضارتى المشرق والمغرب ، وحامل لواء الغناء العربى لدولة بنى العباس فى بغداد وبنى أمية فى قرطبة . ولم نعلم أن أحداً أتيح له أن يشهد الخلافتين ويغنى فى البلاطين على مثل ما أتيح لزرياب . ومن هنا تبدو لنا نواحى تفرده وجوانب عظمته . فقد يسرت له الأقدار أن يتتلمذ لأعلم شخصية موسيقية فى ملك الرشيد ، ثم تكرمه الأقدار نفسها فتتيح له مغادرة بغداد إلى جنة العرب الجديدة فى بلاد الأندلس ، فإذا به يوازن ويقارن ويطلع على ألوان الجمال الغربى فيضيفها إلى ثقافته العربية الفارسية الممزوجة بعبقريته الفردية .

وزرياب هو أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى العباسى . ولقب بزرياب بسبب سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلو شمائله وحسن صوته تشبيهاً له بطائر أسود حسن التغريد يقال له « الزرياب » .

نشأ هذا العبقرى الفذ تلميذاً لإسحق الموصلى ببغداد فحفظ عنه أساليب الغناء وأسرار التلحين . وقد تفانى فى تجويد صناعته بما حبته به الأقدار من قوة حفظ وجودة ذاكرة وجمال صوت

فى غزارة مادة وسعة موهبة وسلامة ذوق حتى بز أستاذه .
ولم يعرف المشرق أحداً يسامى إسحق فى بدو ولا حضر
إلا أن يكون زرياب ، وزرياب لاغير .

وكان إسحق فى غفلة من أمره وأمر تلميذه حين سأله الرشيد
يوماً طالباً أن يحضر إليه مغنياً جديداً حسن الصنعة ، على سبيل
التنويع والتغيير . فاندفع إسحق فى ذكر زرياب والثناء عليه
وامتداح مقدرته ونبوغه . فاستدعاه الرشيد إليه ، وراح يستفسره
ويمتحنه . فوجد فيه فصاحة المنطق وحضور البادرة وسرعة الإجابة
فى غير تردد ولا تهيب . وسأله عن شأنه فى الغناء فقال « أحسن
منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسن لا يحسنونه مما لا يحسن
إلا عندك ولا يدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن
قبلك » . فاستدعى له الرشيد بعود إسحق . فأبى وقال « لى عود
نحته بيدى وأرهفته بإحكامى لا أرتضى غيره » . فأمر الرشيد
بإحضار ذلك العود فوجده لا يختلف فى منظره عن عود إسحق .
فقال له « ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » . فأجاب زرياب
« إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وإن كان
يرغب فى غنائى فلا بد لى من عودى » . فقال الرشيد « ما أراهما
إلا واحداً » ، فأجاب زرياب : « صدقت يا مولاى ولا يؤدى
النظر غير ذلك ، ولكن عودى وإن كان فى قدر حجم عوده

ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغسل بماء سخن يكسبها أنوثة ورخاوة ؛ وبمها ومثلثها [1] أتخذتهما من مصران شبل فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها » .

فأعجب الرشيد ببراعة وصفه وأمره بالغناء ، فاندفع يغنى :

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فقال الرشيد لإسحق بعد أن استولى عليه الطرب وتمكن منه الإعجاب « لولا أننى أعلم من صدقك لى على كتمانه إياك لما عنده وتصديقى لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأنه ، فخذه إليك واعتن به حتى أفرغ له فإن لى فيه نظراً » .

فدبّ الحسد فى صدر إسحق وثارت الغيرة فى دمه . ثم خلا بزرياب وقال له « إن الحسد أقدم الأدواء ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها . وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك . فإذا أنا قد أتيت نفسى من مكمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ، ولو أنك ولدى . ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك ،

(۱) البم والمثلث وتران من أوتار العود .

وليكن فى ذلك ما كان ، فتخير فى اثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً لسهامى فإنى لا أبقى عليك ولا أدع اغتيالك باذلاً فى ذلك بدنى ومالى . فاقض قضاءك » .

فآثر زرياب الحياة بمنأى عن المكايدة والحسد ، واختار الرحلة عن بغداد . وخرج منها بأهله وبيته .

وإن فى هذه المأساة المبكية لعبراً ، وحقائق ذات شأن . فها نحن نرى إسحق يعجب بفنه ويظن نفسه قد ملك الدنيا غناءً وطرباً بما أخذ عن أبيه وعن معاصريه ، حتى سما عليهم جميعاً ، وإذا بتلميذه الأسود ، يختفى وينطوى على نفسه فيتنكر ويخترع فى صناعة آلة العود وفى أوتارها . ثم هو لا يعلم ذلك حتى يفاجأ به كفجاءات القدر بين يدى الرشيد . فيدب فى نفسه ما يشبه الحمى القاتلة غيظاً وكمداً . وكأن هذه الحقيقة تقول لكل فنان ولكل عالم كن طريقاً إلى غيرك ودع الدنيا تسير قوافلها إلى الأمام ، ثم لا تغتر بموهبتك فقد يطالعك زرياب من وراء حجاب ...

وعبرة أخرى هى صراحة الفنان فى أدبه أو أدبه فى صراحته . أنظر إلى الخطاب الملكى ، وإلى مراعاة التعبير اللائق ، الذى هو أحرى بأن يتنبه إليه الباحثون فى التراكيب البيانية والجمل

البلاغية ومخاطبات القصور. فنرى زرياب يقول للرشيد «لم تسمعه أذن قبلك»، وكان يستطيع أن يقول «ما لم تسمعه أذناك قبل اليوم». وانظر إلى قوله «صدقت يا مولاى»، ثم يرد عليه رداً جميلا يفند أنه صدق . . . إلى آخر ما ورد فى القصة.

ونحن وقد أفردنا فى هذا المصنف فصلا ضافياً، عن إسحق الموصلى، ووفيناه حقه من الثناء، إلا أننا لا نعفيه من المحاكمة بين يدى التاريخ العادل عما صنعه فى تلميذه ومحاولة كبت الموهبة الفريدة وإخماد الصوت العالى. وإنها لأنانية لا تغتفر أن يستغل فنان غناه وثروته وجاهه ليهدد بالقتل تلميذاً ناشئاً ويحمله على النزوح عن وطنه، والفرار بحياته وحياة أهله، لأنه يخشى مزاحمته فى الشهرة والمنزلة.

وعبرة العبر كلها أن تلك الأنانية ومحاولة كبت المواهب وستر أشعة الكواكب لا يغنى شيئاً عن الحاقدين، بل هو أبلغ فى إظهار الموهوبين وإعلاء مكانة النابغين. فقد غرب زرياب عن المشرق ليضىء فى المغرب، وحرمت من صوته بغداد فكان بلبلا فى قرطبة. بل كان أعلى نجم وأضوأ كوكب فى سماء الأندلس حيث أصبح فيها رئيس المغنين، وشيخ العوادين، وإمام الموسيقى والمخترعين فى صناعة العود.

وهكذا تحدثنا عبر التاريخ أن علو نجم يوسف كان بفضل حسد اخوته والكيد له ...

وكما اغترب يوسف وسجن ، اغترب هذا وضرب ونفى . فقد ارتحل زرياب عن بغداد بأهله . وولى وجهه شطر المغرب ، فنزل بالقيروان عند ملكها الأغلبي زيادة الله بن إبراهيم الأغلب (٨١٦م — ٨٣٧م) فذاع صيته فى إفريقية كلها . وغنى يوماً بحضرة هذا السلطان أغنية تمدح فيها بالسواد فى قول عنترة العبسى :

فإن تك أمى غرابيــة	من ابناء حام بها عبتنى
فإنى لطيف ببيض الظبا	وسمر العوالى إذا جئتنى
ولولا فرارك يوم الوغى	لقدتك فى الحرب أو قدتنى

فغضب زيادة الله ، وصب عليه جام نقمته ، وأمر بضربه ثم إبعاده ، وقال له إن وجدتك فى شىء من بلدى بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فكان لامحيص له أن يترك القيروان كما ترك بغداد .

وسمع بزرياب الحكم الأموى ملك الأندلس ، فاستدعاه إلى قرطبة . فسار إليها متنقلا بين حواضر الأندلس ، وهو يلاقى التكريم حيثما نزل والتبجيل حيثما ارتحل ، حتى انتهى إلى الجزيرة الخضراء فبلغه وفاة الحكم فاغتم لسوء حظه ونكد طالعه ، وهمّ بالرجوع ، وكان معه منصور اليهودى رسول الحكم إليه فثناه عن ذلك ، ورغبه فى متابعة رحلته إلى عبد الرحمن بن الحكم الذى تولى الملك بعد أبيه .

وما أن بلغ مسامع الخليفة ابن الحكم قدوم زرياب إلى الأندلس فى طريقه إليه ، حتى كتب إلى عماله يوصيهم بإكرامه والعناية به وبعياله ، وإيصالهم إليه بالتوقير من بلد إلى بلد حتى يدخل قرطبة . وأمر غلمانه أن يتلقوه بالركائب ، وبما عساه أن يكون فى حاجة إليه . وخرج هو لاستقباله بظاهر المدينة . فدخل زرياب وعياله البلدة بليل صيانة لحرمه ، وأنزل فى دار من أحسن الدور تهيأت له فيها وسائل الراحة وكل ما يحتاج إليه .

وبعد ثلاثة أيام استدعاه عبد الرحمن إليه ، وكان قد كتب له راتباً فى كل شهر مائتى دينار ، وأن يجرى على بنيه الأربعة عبد الرحمن وجعفر وعبد الله ويحي عشرين ديناراً كل شهر ، لكل واحد . وذلك زيادة عما قرر منحه على سبيل التكرمة فى كل عيد ومهرجان من المال والغلال . واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار . . . فلما استدعاه الخليفة إلى مجلسه ، وقد طاب له المقام وأمن على نفسه تصاريف الدهر وكيد الكائدين ، وأمر له بالشراب ، غنى زرياب وجاوب على الشراب بما يفوق الشراب من صنعة ساحرة وفن عجاب ، مما جعل الخليفة يزداد به تعلقاً وله حباً ، ويؤثره بالحظوة على جميع المغنين . وذاكره فى أحوال الملوك ، وسير الخلفاء ، ونوادر العلماء ، فإذا هو كأستاذه إسحق بحر لا يدرك ساحله .

فزاد فى تكريمه ، واختصه بمجالسته ، على مائدة طعامه . وبالغ فى الاعتزاز به حتى أفرد له باباً خاصاً ، يستدعيه منه متى أراد سماعه ومنادمته .

ولم تقف مواهب زرياب عند جودة الغناء والمهارة فى العزف بل تخطى ذلك إلى تحسين صناعة العود ، كما كانت تبشر بذلك فطنته العجيبة التى تجلت أمام الرشيد .

وهو الذى زاد الوتر الخامس فى العود ببلاد الأندلس ، وكانت من قبل أربعة . كما أنه هو الذى ابتكر فى العزف استعمال ريشة النسر ، لأنها تجمع بين القوة والليونة ، وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب .

ومن مآثر زرياب على الموسيقى أن هيأ لنفسه فيها مدرسة خاصة وطريقة مستحدثة فى التعليم . إذ كان المتبع قبله فى تلقين الألحان أن يكرر المغنى اللحن لتلاميذه حتى يحفظوه ، فاستعمل زرياب طريقته الجديدة فى تعليم هذه الألحان إذ يصل إلى تحقيق هذه الغاية على ثلاثة مراحل :

الأولى لتعليم الإيقاع فى قراءة الشعر، وأن ينقر التلميذ الدف ليظهر له زمن الإيقاع ويضبط الحركات .

ثم يدرس فى المرحلة الثانية الألحان فى شكلها الساذج .

وفى الثالثة ترجيع الصوت وحلية الغناء وإظهار العواطف .

وكان يمتحن أصوات تلاميذه قبل البدء فى تعليمهم ، فيجلس الطالب على كرسى صغير ويصيح بصوت عال « يا حجام » أو يغنى قائلا « آه » ويرددها ممدودة على جميع درجات السلم الموسيقى . ثم يقرر بعد هـــذه التجربة درجة صوت التلميذ ، من الحسن والجودة والقوة .

وكان زرياب فوق مدرسته الموسيقية وعبقريته الفنية ، عالماً جليلا وشاعراً مطبوعاً ، وفلكياً بارعاً ، خبيراً بالنجوم وقسمة الأقاليم واختلاف طبائعها وأهويتها ، وتشعب بحارها ومختلف بلدانها وسكانها .

وجمع زرياب إلى سعة علمه وكبير فضله ، كثيراً من ضروب الظرف ، وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وآداب المجالس ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملكية ، حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه .

وقد عد فى نظر المؤرخين رسولا من رسل المدنية والتجديد فى عرف اللياقة ومظاهر الجمال والتأنق . فكان له ذوقه الخاص ، فى الملابس على اختلاف الفصول ، وتصفيف الشعر ، واتخاذ الأكواب من الزجاج بدل المعادن ، واصطناع الأصص للأزهار من الذهب والفضة . فاقتدى به الملوك والأمراء والأشراف . وكانت كلمته عندهم قانوناً ، ورأيه تشريعاً ، ودستوراً للجمال

وللذوق . وقد استحسن الناس ذوقه حتى فى الأطعمة والحلوى ، وبقيت أسماء بعضها مقرونة باسمه بعد حياته ، وظلت منسوبة إليه حتى آخر أيام الأندلس .

ومات زرياب وله العدد الجم من تلاميذ مدرسته . كما خلف ميراثاً فنياً نفيساً بلغ على ما يحدثنا به المؤرخون عشرة آلاف من الأصوات ، لم يقتصر ذيوعها على بلاد الأندلس ، بل عمت جميع الأقطار الإسلامية .

وقد أنجب ثمانية من الأبناء وبنتين ، وقد تعلم جميعهم الغناء ومهروا فيه .

* * *

وهكذا استطاع زرياب أن يقهر الحوادث ليشق لنفسه الطريق إلى المجد . وتغلب على المكائد فى بغداد والمحنة فى القيروان فوجد تحت سماء الأندلس الحياة الآمنة المطمئنة ، فاخترع للموسيقى ولآلاتها ولألحانها . وأنجب ذرية لروحه من تلاميذه ، وذرية لبيته من أبنائه وبناته . وجدد فى أطوار المدنية وجمال الذوق . وخلف من الألحان عدداً إن لم يكن قد بلغ فيه ما ذكره عنه المؤرخون فهو على أى حال ، دليل على غزارة مادته ، واتساع أفقه ، وأنه حقق لنفسه من علو الشأن فى الغرب مكانة لا يقل فيها عن مكانة إسحق فى الشرق .

ولادة بنت المستكفى

كان القرن الخامس الهجرى بالنسبة للأندلس عصر شباب وقوة وازدهار ، فالأندلس جنة المغرب ، وبلادها الخضراء تتقلب فى أعطاف النعيم، والأسر الكبيرة تتبارى فى ابتناء القصور وابتكار أساليب الجمال فيها . وكانت المدنية العربية الإسلامية يومئذ مدرسة الدنيا كلها وملتقى حضارات الشرق والغرب ومزدحم الفنون من كل نوع ولون بل من كل سحر وإبداع . وكانت تلك القصور حلقات تجمع مختلف الأطايب والطرائف ، ففيها الطرب إلى جانب الأدب والعلم الباحث إلى جوار الفن الرفيع ...

فى تلك البيئة المرحة الضاحكة ، وفى ذلك الجو الطلق الساحر الجميل شبت ولادة آية فى الروعة والجمال والثراء . ولمَ لا وهى بنت الخليفة المستكفى بالله ، قد أوتيت جمال الصورة وجمال الأدب وجمال التربية وجمال الغناء الفاتن والصوت العبقرى وجمال جميع الحياة من حولها . وأعجب شىء فى ذلك أنها شاعرة ومغنية معاً ، وهى فيهما على قمة التفوق والامتياز . فكان طبيعياً أن يعد مجلسها سوقاً تتصارع فيه الأرواح وتتنافس فيه المواهب . ولكن فى أى

شيء يطاولها المطاول ؟ ! ! فليس عند أحد موهبة لم تتمتع بها ولادة ، فمن غنى سبقته إلى الأداء ، ومن نظم سحرته بما ليس فى قدرته .

وكان ابن زيدون واحد عصره ، والمدل بروعة بيانه . وقد سار شعره فى أفواه القيان والمغنين لسمو معانيه وموسيقية ألفاظه فكان الأدب صلة محكمة ، بين ابن زيدون وبين ولادة . فبها سعد ، وبها أو بحسادهما معاً كان شقاؤه .

وإننا حين نستعرض شعر ولادة نحكم لأول وهلة بأن هذا الشعر لم يخلق إلا للغناء والتغريد . إصغ إليها وهى تقول :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السر على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك

يا أخا البدر سناءً وسنا حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

ثم استمع إلى قولها فى ابن زيدون :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق

سبيل فيشكو كل حب بما لقى

وقد كنت أوقات التزور فى الشتا

أبيت على جمر من الشوق محرق

فكيف وقد أمسيت فى حال قطعه

لقد عجل المقدور ما كنت أتقى

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى

ولا الصبر من رق التشوف معتقى

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا

بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

وقد أجابها ابن زيدون بقوله :

لحى الله يوماً لست فيه بملتق محياك من أجل النوى والتفرق

وكيف يطيب العيش دون مسرة وأى سرور للكئيب المؤرق

كانت ولادة بنت المستكفى فى مكانتها من الأندلس وفى قصر الخلافة بقرطبة أشبه بعلية بنت المهدى فى بغداد . فكلتاهما أميرة ، شاعرة ، أديبة ، مترسلة ، مغنية ، عازفة ، مشرقة الجمال . وكلتاهما أيضاً عفيفة القلب متمردة الشعر . ومن عجب أن تلتقى كلتاهما فى معنى التعفف والصون من حيث الحياة والمثل العليا ، بينما شعرهما يبدو أقرب إلى الأدب المكشوف ، وأدنى إلى عدم المبالاة أحياناً . ولكن العجب العاجب فيما التقتا فيه من الانقطاع للفن مدى الحياة ، وترك الحياة الزوجية وتكاليفها والاكتفاء بهذا الجو المليء طرباً وأدباً وموسيقى .

كانت ولادة تساجل أهل الأدب وتناضل الشعراء ، فتسحر ألبابهم وتتركهم تائهين فى بيداء ليس لها حدود ولا نهاية .

مرت يوماً بقصر الوزير عامر بن عبدوس فألفت أمام القصر بحيرة تجمعت فيها المياه فقالت للوزير على البديهة :

أنت الخصيب وهذه مصر   فتدفقا فكلاكما بحر

وفى هذا البيت نرى إلمامها بالتاريخ وتقويم البلدان وسحر البيان فى كلام موجز وبديهة حاضرة .

ولما نكب ابن زيدون وتغيرت عليه الأيام قال فى ولادة قصيدته المشهورة :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا
حالت ببعدكم أيامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا   يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

وابن زيدون وإن كان قد عرف برقة حاشيته وبعد مرماه إلا أن روح ولادة هى التى أوحت بهذه القصيدة فجاءت صورة من عمق روحها ورقة طبعها وانسجام شمائلها . وهى أيضاً روحها التى جالت فى موهبة ابن زيدون ، فلحقته إلى الزهراء وعزفت فى أعماق نفسه قصيدة كتبها إليها ، فلو قال قائل إنها من تأليف روحها فى روحه ما تعدى الحقيقة . ومنها :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله
كأنما رق لى فاعتل إشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم

كما حللت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت

بتنا لها حين نام الدهر سرّاقا

نلهو بما يستميل العين من زهر

جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقى

بكت لما بى فجال الدمع رقراقا

ولئن كان أهل التاريخ والنقل لم يتوسعوا فى مكانتها الغنائية فذلك لأنها غير معدودة من الموسيقيين المحترفين الذين يتنقلون من قصر إلى قصر ومن ندوة إلى ندوة فتنتقل أخبارهم وأخبار جوائزهم . أضف إلى ذلك أنها بنت خليفة ولها من الصون ما يمنع الألسنة عن تناقل أخبار أغانيها .

وقد تمتعت ولادة بعمر طويل فى ظلال الفن وبين جناته وسلسبيله ، تنظم وتغنى وتضع الشعر والألحان لنفسها ولمجلسها حتى وافتها نهايتها عام أربع وثمانين وأربعمائة هجرية (١٠٩١ م) .

عبد الوهاب بن الحاجب

كادت الموسيقى الشاعرة والشعر الموسيقى فى الأندلس يعتبر كل منهما لغة الذوق الشعبي وشعار الثقافة العامة . وأى شيء كان يصور تلك الحضارة العظيمة والمدنية الرائعة والترف الشامل أفضل من الموسيقى والغناء !! إنك لا تكاد تخاطب رجلا ولو كان رجل الشارع حتى يجيبك بالبيت الطريف مروياً أو مبتكراً . ولا تكاد تغشى ندوة أو تطرق باب منزل حتى تسمع نغمة العود والمزمار قبل أن تسمع أصوات من فى الدار . وذلك لأن القوم قد أفسحت لهم الطبيعة صدرها وأخصبت لهم أرضها وحملت لهم وجه مدنيتها ، فلم يبق ذو صناعة إلا والموسيقى إلى جانب صناعته ، ولا ذو علم إلا والشعر جزء من علمه .

وإننا لا نبالغ إذا قلنا إننا نوشك أن نسمع الموسيقى فى كل شعر أندلسى لمجرد قراءته ، فثمت رنين وتصوير وجمال فى المعنى ، وثمت حدائق وغابات وأشجار وأنهـار بين ثنايا الكلمات . وهل الموسيقى والغناء إلا رنين وأنين وألحان تتناجى بها الأرواح الشاعرة الحساسة !!

ولعل عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب ممن تسفر شخصيتهم عن أوضح صورة لهذه الحقيقة .

كان كما يصفه المؤرخون « واحد عصره فى الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع وإصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التى لا يلحق فيها ، مع شرف النفس وعلو الهمة » .

وهذه الصفات مجتمعة تعنون لنا شخصية هذا الموسيقار . وتضع يدنا على الخلال الرفيعة التى ينبغى ألا يخلو منها فنان مثقف، وإن لم يكن شاعراً كابن الحاجب جمع الله له المواهب والمناقب والمال وعلو المحتد وشرف البيت والإمارة أو ما يقرب منها . فهو ناعم البال ، مطمئن النفس ، رحيب العيش ، يرفل فى رخاء وبهجة ، ويقصد إليه الفنانون من المشرق فيجود عليهم بالمال ويجودون عليه بما هو أغلى من المال . وهذه الحال أغنته عن مشاق الارتحال ومتاعب التجوال . وكان له من ثروته شراك صيد وروض ظليل تأوى إليه البلابل طائعة منساقة إلى الحَب فيتلقاها ويصطاد أنغامها فى شراك نفسه وفى شبكة حفظه . فكل مغن يقصد الأندلس لا بد له من أن يعرّج على ابن الحاجب ليلقى بين يديه بهدايا المشرق من سحر وغناء وشعر . فما يزال المغنى أو العازف أو الشاعر أو الأديب فى صبوح وغبوق بين الغداة

والعشى حتى يستنفده ابن الحاجب كل مالديه . وهكذا كان يستقبل هؤلاء فيزيد بهم علمه ويقوى فنه حتى أصبحت ذاكرته مكتبة غنائية تحتوى على كنز من التسجيلات الموسيقية من المشرق والمغرب . وقد كلفه هذا أن ينفق جميع دخله السنوى الكثير ويستدين فوقه ما هو أكثر ، وهى تضحية تدل على تقدير هؤلاء لقيمة الموسيقى وجمال الغناء ، وقد أرخصوا فى سبيل ذلك المال واحتملوا عبء الديون ليزدادوا فنا وحتى لا ينقطعوا عن القافلة أو تفوتهم شاردة مبتكرة أو طرفة جديدة .

ولقد تعلم ابن الحاجب من تجاريه وأفاد من زواره وابتكر اللحن الجميل للشعر الجميل وكلاهما من صنعته حيث كان أعلم أهل عصره بصناعة اللحن وأقدرهم على العزف بالعود . وكان بشارة الزامر يزمر عليه وهو من حذاق زمرة المشرق .

ومن العجيب فى مثل تلك العصور البعيدة أن نرى ابن الحاجب هذا حريصاً على أن يجعل فنه مصدر سعادته الشخصية والعائلية ، فإذا لم يزره أحد من أصدقائه أو لم يزر هو أحداً منهم جعل بيته ندوة واستدعى العشرات من أهله وأقربائه وغلمانه وكلهم مغن أو عازف فما يزال الجميع حول مائدته وهو يبادلهم العزف والغناء فيستمع إليهم ويستمعون إليه حتى إذا طرب تفرد فتغنى وغرد

واستخرج ودائع حفظه وروائع ابتكاره فنقـــل مستمعيه من الأرض إلى ما يشبه الجنة .

هذا هو الفنان الهاوى الذى ترك من سيرته مثلا تحتذيه الهواة فى مختلف العصور . فما أسعد تلك الأسرة التى كلها مغنون وفنانون وموسيقيون . وهل تنتظر من هؤلاء إلا ذوقا رفيعا ، وخلقا جميلا ، وعشرة سعيدة وحياة يمضى ليلها ونهارها كأيام الأعياد !!

إن كانت هـذه أسرة واحدة فلقد كانت الأندلس كلها تلك الأسرة ...

عهود الخلفاء

تمكيناً لطلاب البحث من الوقوف على المراحل التاريخية الدقيقة فى حياة الموسيقى العربية وأعلامها عبر العصور التى تناولها هذا المصنف ، رأينا أن نسجل فيما يلى قائمة بأسماء خلفاء تلك العصور ومدة حكمهم بالتاريخين الهجرى والميلادى إيثاراً للفائدة وتعميما لجدواها . وهى بلاشك عظيمة الفائدة حتى لغير المشتغلين بالموسيقى ، لاسيما إذا لوحظ أن العثور عليها مبسطة على هذا النحو غير ميسور للجميع :

الخلفاء الراشدون (١١ هجرية / ٦٣٢ ميلادية — ٤١ هـ / ٦٦١م)

أبو بكر	(١١ هـ / ٦٣٢ م — ١٣ هـ / ٦٣٤ م)
عمر	(١٣ هـ / ٦٣٤ م — ٢٣ هـ / ٦٤٤ م)
عثمان	(٢٣ هـ / ٦٤٤ م — ٣٥ هـ / ٦٥٥ م)
على	(٣٥ هـ / ٦٥٦ م — ٤١ هـ / ٦٦١ م)

خلفاء بنى أمية (٤١ هـ / ٦٦١ م — ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)

معاوية بن أبى سفيان	(٤١ هـ / ٦٦١ م — ٦٠ هـ / ٦٨٠ م)
يزيد بن معاوية	(٦٠ هـ / ٦٨٠ م — ٦٤ هـ / ٦٨٣ م)
معاوية بن يزيد	(٦٤ هـ / ٦٨٣ م — ٦٤ هـ / ٦٨٤ م)
مروان بن الحكم	(٦٤ هـ / ٦٨٤ م — ٦٥ هـ / ٦٨٥ م)
عبد الله بن مروان	(٦٥ هـ / ٦٨٥ م — ٨٦ هـ / ٧٠٥ م)

الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ / ٧٠٥ م — ٩٦ هـ / ٧١٥ م)

سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ / ٧١٥ م — ٩٩ هـ / ٧١٧ م)

عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ / ٧١٧ م — ١٠١ هـ / ٧٢٠ م)

يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ / ٧٢٠ م — ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م)

هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ / ٧٢٤ م — ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م)

الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ / ٧٤٣ م — ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م)

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ هـ / ٧٤٤ م — ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م)

ابراهيم بن الوليد (١٢٦ هـ / ٧٤٤ م — ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م)

مروان بن محمد بن مروان (١٢٧ هـ / ٧٤٤ م — ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)

خلفاء بنى العباس (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)

(١) العصر العباسى الأول ـ الذهبي (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م)

أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م — ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م)

أبو جعفر المنصور (١٣٦ هـ / ٧٥٤ م — ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م)

محمد المهدى بن المنصور (١٥٨ هـ / ٧٧٥ م — ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م)

الهادى بن المهدى (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م — ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م)

هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م — ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م)

محمد الأمين (١٩٣ هـ / ٨٠٩ م — ١٩٨ هـ / ٨١٣ م)

عبد الله المأمون (١٩٨ هـ / ٨١٣ م — ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م)

أبو اسحاق محمد المعتصم (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م — ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م)

الواثق بالله بن المعتصم (٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م — ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م)

(ب) العصر العباسى الثانى ـ الاضمحلال (٢٣٢هـ/٨٤٧م — ٣٣٤هـ/٩٤٥م)

المتوكل على الله بن المعتصم	(٢٣٢هـ/٨٤٧م — ٢٤٧هـ/٨٦١م)
المنتصر بن المتوكل	(٢٤٧هـ/٨٦١م — ٢٤٨هـ/٨٦٢م)
المستعين بالله بن المعتصم	(٢٤٨هـ/٨٦٢م — ٢٥٢هـ/٨٦٦م)
المعتز بن المتوكل	(٢٥٢هـ/٨٦٦م — ٢٥٥هـ/٨٦٩م)
المهتدى بالله بن الواثق	(٢٥٥هـ/٨٦٩م — ٢٥٦هـ/٨٧٠م)
المعتمد على الله بن المتوكل	(٢٥٦هـ/٨٧٠م — ٢٧٩هـ/٨٩٢م)
محمد المعتضد بالله	(٢٧٩هـ/٨٩٢م — ٢٨٩هـ/٩٠٢م)
المكتفى بالله بن المعتضد	(٢٨٩هـ/٩٠٢م — ٢٩٥هـ/٩٠٨م)
المقتدر بالله بن المعتضد	(٢٩٥هـ/٩٠٨م — ٣٢٠هـ/٩٣٢م)
القاهر بن المعتضد	(٣٢٠هـ/٩٣٢م — ٣٢٢هـ/٩٣٤م)
الراضى بالله بن المقتدر	(٣٢٢هـ/٩٣٤م — ٣٢٩هـ/٩٤٠م)
المتقى لله بن المقتدر	(٣٢٩هـ/٩٤٠م — ٣٣٣هـ/٩٤٤م)
المستكفى بالله بن المكتفى	(٣٣٣هـ/٩٤٤م — ٣٣٤هـ/٩٤٥م)

(ج) العصر العباسى الثالث ـ السقوط (٣٣٤هـ/ ٩٤٥ م — ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)

المطيع لله بن المقتدر	(٣٣٤هـ/ ٩٤٥ م — ٣٦٣هـ/٩٧٣ م)
الطايع لله بن المطيع	(٣٦٣هـ/ ٩٧٣ م — ٣٨١هـ/٩٩١ م)
القادر بالله بن اسحاق	(٣٨١هـ/ ٩٩١ م — ٤٢٢هـ/١٠٣١م)
القائم بأمر الله بن القادر	(٤٢٢هـ/١٠٣١م — ٤٦٧هـ/١٠٧٤م)
المقتدى بأمر الله	(٤٦٧هـ/١٠٧٤م — ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
المستظهر بالله بن المقتدر	(٤٨٧هـ/١٠٩٤م — ٥١٢هـ/١١١٨م)

المسترشد بالله (٥١٢هـ/١١١٨م — ٥٢٩هـ/١١٣٤م)

الراشد بالله بن المسترشد (٥٢٩هـ/١١٣٤م — ٥٣٠هـ/١١٣٥م)

المقتفى لأمر الله (٥٣٠هـ/١١٣٥م — ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

المستنجد بالله بن المقتفى (٥٥٥هـ/١١٦٠م — ٥٦٦هـ/١١٧٠م)

المستضىء بأمر الله (٥٦٦هـ/١١٧٠م — ٥٧٥هـ/١١٧٩م)

الناصر لدين الله (٥٧٥هـ/١١٧٩م — ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)

دولة بنى أمية بالأندلس (١٣٨هـ/٧٥٦م — ٤٢٢هـ/١٠٣١م)

عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨هـ/ ٧٥٦م — ١٧٢هـ/٧٨٨م)

هشام بن عبد الرحمن (١٧٢هـ/ ٧٨٨م — ١٨٠هـ/٧٩٦م)

الحكم بن هشام (١٨٠هـ/ ٧٩٦م — ٢٠٦هـ/٨٢٢م)

عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦هـ/ ٨٢٢م — ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م)

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨هـ/ ٨٥٢م — ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م — ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م — ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)

عبد الرحمن الناصر بن محمد (٣٠٠هـ/ ٩١٢م — ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)

المستنصر الحكم بن عبد الرحمن (٣٥٠هـ/٩٦١م — ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)

هشام المؤيد بن الحكم (٣٦٦هـ/٩٧٦م — ٣٩٩هـ/١٠٠٨م)

المهدى محمد بن هشام (٣٩٩هـ/١٠٠٨م — ٤٠٠هـ/١٠٠٩م)

سليمان المستعين بالله (٤٠٠هـ/١٠٠٩م — ٤٠٠هـ/١٠٠٩م)

المهدي محمد بن هشام (ثانية) (٤٠٠هـ/١٠٠٩م — ٤٠٠هـ/١٠٠٩م)

هشام المؤيد بن الحكم (ثانية) (٤٠٠ هـ/١٠٠٩م — ٤٠٣ هـ/١٠١٢م)

سليمان المستعين بالله (ثانية) (٤٠٣ هـ/١٠١٢م — ٤٠٧ هـ/١٠١٦م)

ملك بنى حمود (٤٠٧ هـ/١٠١٦م — ٤١٤ هـ/١٠٢٣م)

المستظهر عبد الرحمن بن هشام (٤١٤ هـ/١٠٢٣م — ٤١٤ هـ/١٠٢٣م)

المستكفى محمد بن عبد الرحمن (٤١٤ هـ/١٠٢٣م — ٤١٥ هـ/١٠٢٤م)

ملك بنى حمود (ثانية) (٤١٥ هـ/١٠٢٤م — ٤١٨ هـ/١٠٢٧م)

المعتمد هشام بن محمد (٤١٨ هـ/١٠٢٧م — ٤٢٢ هـ/١٠٣١م)

للمؤلف

١ — الكوميدى الحديث — المجموعة الأولى من أزجاله المسرحيه طبع القاهرة سنة ١٩١٧

٢ — أشهر مشاهير الموسيقى الغربية — طبع برلين سنة ١٩٢٣

٣ — رسالة الكندى فى خبر تأليف الألحان — طبع ليبزج سنة ١٩٣١

٤ — ابن سينا وتصانيفه الموسيقية — طبع برلين سنة ١٩٣١

٥ — دراسة القانون — طبع القاهرة سنة ١٩٣٤

٦ — مجلة «الموسيقى» (١٤عدداً) — طبع القاهرة سنة ١٩٣٥—١٩٣٦

٧ — موسيقى قدماء المصريين — طبع القاهرة سنة ١٩٣٦

٨ — صور التاريخ الموسيقى — طبع مصلحة المساحة بالقاهرة سنة ١٩٣٧

٩ — الموسيقى النظرية — القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧ / « الثانية سنة ١٩٣٩ / « الثالثة سنة ١٩٤٦ }

١٠ — موتسارت { قصة الطفل المعجز / والموسيقى العبقرى } طبع القاهرة سنة ١٩٣٩

١١ — المجلة الموسيقية (١٣٧ عددا) طبع القاهرة سنة ١٩٣٦—١٩٤١

١٢ — الموسيقى فى كلمات « « « ١٩٤٣

١٣ — بيتهوفن طبع القاهرة سنة ١٩٤٤

١٤ — تبسيط دراسة الموسيقى » » » ١٩٤٥

١٥ — تنظيم أوقات الفراغ القاهرة { الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥
« الثانية سنة ١٩٤٦

١٦ — مجلة الموسيقى والمسرح (٤٨ عددا) طبع القاهرة سنة ١٩٤٧ — ١٩٥١

١٧ — فردريك شوبان طبع القاهرة سنة ١٩٤٩

١٨ — أعلام الغرب (من سلسلة التاريخ الموسيقى) { الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩
« الثانية سنة ١٩٥١

١٩ — الموسيقى العربية وأعلامها (من سلسلة التاريخ الموسيقى)

طبع القاهرة سنة ١٩٥١

